

الشيخ الصالح

تأليف

علي حسنين علي

المفتش بوزارة المعارف

وأستاذ علوم التربية بدار العلوم والمعلمين العليا سابقاً

الطبعة الثانية

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

الشيخ الصالح

تأليف

على مسنين على

المفتش بوزارة المعارف

وأستاذ علوم التربية بدار العلوم والمعلمين العليا سابقاً

الطبعة الثانية

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

الإهداء

إلى كل من ينصُر دولة الأدب ، وينشُر لغة
العرب أهدي رواية «الشيخ الصالح» ، ثمرة يراعتي وسليمة
قريحتي اعترافاً بأثره ، وتشجيعاً لغيره

المؤلف

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَسْنَا إِلَّا مَعْبَرِينَ عن الحقيقة المرة حين نقول إنَّ ركنًا عظيمًا من أركان الأدب العربي ناقصٌ ، وإن خزانة أهل الضاد خالية من ذخيرة من أنفس الذخائر وأشدّها أثرًا في ترقية الحياة العقلية ألا وهي « الروايات المُمتعة »

ومن ذا الذي ينكر ما لعبت وتعب الروايات في ميادين الحياة الأجنبية ، أو يتجاهل ما لها على ثروة الأدب العربي من فضل ؟ وكيف نَعْمَى عن آثارها وهي مُستَراد^(١) الخيال الصائب والفكر الثاقب ، ومرآة الحياة ، وصورةُ المصور ، ودارسة النفوس ، وممثلة العالم وضاربةُ الأمثال ، وباعثةُ الآمال ؟

كم ضُمّنت فضائل في سطورها ، وحملت على رذائل بين طيّاتها ،
وكم بثّت من مبدأ قويم ، ورققت من وجدان سقيم !

ألم تكن عوناً للنشء بل غير النشء على تحسين لغتهم وتجويد أسلوبهم وسعة خيالهم وصقل ذوقهم ؟ أنْ تُذكر أنها سُلوة الحزين البائس وفرجة المدهور^(١) اليائس ، تُدسى ذا الوصب وصَبّه ، وتزيل عن المكدود تعبهُ ؟ وأى شيء أحبُّ إلى نفوس القراء من أسلوب قصصى خلاب ، وطريق يملك على الناس المشاعر والألباب ؟

إن الكاتب القصصى القدير كالنطاسى البارع الخبير ، يتتبع مواضع الأدواء ليصف لها نافع الدواء ، وإن المِرْقَمَ^(٢) فى يد البليغ كالريشة بين أصابع المصور الماهر ، فالأول يَسْحَرُ القارىء بسحر أسلوبه ولا يزال به حتى يقوده قسراً إلى غرضه . والثانى يبهـر البصر ببديع ألوانه ورائع تصويره ليحمل صاحبه من الجمال الظاهر ، إلى باطن الفن الأسر ، ومن منشور المثال ، إلى مطوى وحى الخيال

والآن كيف السبيل إلى إقامة ذلك الركن المفقود ، وسد ذلك الفراغ الموجود ؟ إن الخطب ليس باليسير فهو يتطلب أفلاماً متضافرة وعقولا مفكرة وأخيلة واسعة

بهذا يمكننا أن نجارى كتاب الغربيين والأمريكيين أولئك الذين يَنْمُون وتبقى قصصهم على ممر الدهور زاهية خالدة تحلو بتكرارها وتلبث عزيزة على قرائها

(١) من نزل به مكروه (٢) القلم

انما لا تنكر أن بين ظهرانينا نفراً ليس بالقليل من المعربين
القديرين ممن نحن في حاجة اليهم ، ولكن يُعوزنا عنصر آخر هو
أجدى على دولة الأدب ذلك هو عنصر المؤلفين المبتكرين الذين يرؤونا
الدهور الغابرة ، في ثيابها المتغايرة ، والعصور الحاضرة ، في صورها
المؤلفة والمتناكرة ، من اجتماعية وخلقية ، وفكرية وعلمية ، ودينية
وسياسية ، في لفظ مختار وأسلوب خلاب

ولسنا ندعى أن كنانتنا خلو من هذا الصنف من البلغاء ، ولا أن
أعمادنا صنم من المفكرين الأذكاء ، ولكن أغلبهم مخبوءون يفتقرون
إلى شجاعة وثقة بالنفس ليظهروا ، وإلى تشجيع وقدّر لأعمالهم ليزهروا
فليبرز كل ذي موهبة إلى الميدان ، وليعرض بنات فكره للعيان
وليعلم أن كل ثمين سيشق له في عالم الأدب طريقاً ، وكل ممتع سينال
عند الجمهور رضا وتوفيقاً

المؤلف

الفصل الأول

الطريق المهيّب

السماُ صافية الإهاب ، زرقاء الجلباب ، قد بدا فيها البدر كما يبدو
الملك يضحبه الجلال وتكتنفه العظمة ، قدبُ الحياء إلى الكواكب
فتوارت بالحجاب اللهم الا قليلا كان يُبْهِبُ^(١) هنا وهناك كأنه رقباء الملك
بسط القمر رداءه الفضى على تلك الحقول الخضراء المترامية
الأكناف ، وبعث بأشعته اللجينية إلى تلك المجارى المائية التى تتخللها
كما تتخلل العروق جسم الانسان ، فزاد المنظر جمالا على جمال .
كان السكون ضاربا بجرائه^(٢) فوق ذلك الطريق الممتد من الزقازيق
إلى ميت غمر فكنت لا تسمع إلا حفيف النبات والأشجار تستجملها^(٣)
الرياح الخَصِيرة^(٤) وإلا عواء بعض الذئاب يخترق الفضاء أحيانا .
لم يكن ذلك الطريق طريقا معبداً مأمون العِثار ، بل كان كثير
المرتفعات والمنخفضات والمنعطفات ، قد نبتت الأشواك على كثير من
جوانبه ، ومالت الأشجار وأغصانها كثيراً نحو جادته فكانت عقبة كأداء
فى طريق السَّابِلَة .

ومما امتاز به هذا الطريق وحشته وكثرة مخاوفه وتعدد حوادثه

(١) بتلاّ (٢) الجران مقدم عنق البعير (٣) تحرّكها (٤) الباردة

فلطالما أنهرت^(١) فيه دماء طاهرة ، وفاضت أرواح بريئة ، وسلب المارون فيه في وضح النهار .

وقصارى القول أنه كان منذ كاراً^(٢) ماوى للصوص الأئمة الذين لم تردعهم قوانين البلاد ولم يكن لهم من دينهم زاجر أو واعظ ، وملجأ للعاطلين المشردين الذين آثروا الكسل والنهب على العمل والشرف . ولهذا كان الناس يهابون المرور فيه ، وإذا اضطر أحد إلى ركوب مئنته اجتهد أن يكون في جماعة وأن يكون معه سلاح يدفع به عن نفسه شر الطوارىء . وتندر أن ترى من المسافرين من يجرؤ على اختراق هذا السمّت^(٣) في أثناء الليل بعد أن رأى ما رأى وسمع ما سمع من الحوادث المروعة والأخبار المفزعة .

في تلك الليلة القمراء ضم هذا الطريق ثلاثة رجال أحدهم مترجل والآخران راكبان اشتملا بشيأيهما اشتمال الصمّا^(٤) توقيا من البرد القارس ولم يظهر من وجهيهما إلا شفاحتى إن الناظر إليهما لا يستطيع تمييز أحدهما عن الآخر

أما المترجل فقد كان قى أمرد^(٥) يمد من العمر ثمانية عشر عاما

(١) سالت (٢) ذا أهوال فلا يساكه إلا ذكور الرجال (٣) الطريق

(٤) اشتمال الصمّا أن يرد الرجل الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يرد ثانيه من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيها جميعا (٥) لم ينبت وجهه

كبير الرأس ، رقيق الحاجبين ، ضيق العينين ، أفطس الأنف ، غليظ الشفتين موجّنا^(١) ، صليب القنّاة مفتول العضل ، قست عليه الشمس قسوتها فصبغت إهابه^(٢) بصبغ أسود لماع . وكان يلبس جلبابا أسود لم يصل إلى ركبتيه ولم يعد كماء مرققيه فوقه صدار مفرّق بالقصب . قد انتعل الغبراء ووفى رأسه الكبير بكمة من الصوف معصوبة بمندبل أحمر تدلّى طرفاه فوق ظهره ، وحول وسطه حزام من جلد ، وقد حمل على كتفه اليسرى عصاً غليظة مقمّعة بالحديد .

في هذه الملابس غير الكافية وفي تلك الليلة القرّة^(٣) كان يسير هذا الفتى أمام الفارسين وعلى بعد خطوات منهما كأنّ ليس للزمهرير عليه من سلطان ، أو كأنه خلق من طينة غير التي خلق منها رقيقاه ومع حالته هذه ومع ما في الجو من برد كنت تلمح على جبينه العريض الناصع قطرات من الماء تتفرّق ثم لا تلبث أن تنحدر على صفحتي وجهه أو تسقط تحت قدمه . فهل بالرجل يا ترى مسّ من الحمى وعهدنا به سليم الجسم ؟ أو هل دمت السماء فأصاب وجهه دمعاتها ؟ اللهم لا هذا ولا ذاك . وما تلك القطرات المائية إلا بخار الجسم دفعته حرارة العدوّ فبدا على محيّا ذلك المسكين . وكيف لا ينّضح^(٤) ذلك المرق وقد قطع هذا العداء خمسة أميال جريا على طريق كثير العثرات بدون تنفيس^(٥)

(١) عظيم الوجنات (٢) جلده (٣) الباردة (٤) لا يرشح (٥) راحة

إيه أبها الأغنياء القساة! أنضبت^(١) موارد الرحمة من قلوبكم حتى
اتخذتم من بنى أمكم خدما يبارون الخيول في عدوها؟ أم هي المظاهر
السكاذبة والأبهة الزائلة لا تكمل إلا باستخدام « سائسين » يفسحون
في الطريق أمامكم؟

تلك عادة قبيحة من عادات الغاير من العصور ، ولكن آثارها
لا تزال تتجلى اليوم في بعض البلدان وأمام جنازات المسيحيين . وهاهو
ذا بعد إجازة^(٢) تلك الشقة قد استبدل الذميل^(٣) بالوخذ^(٤) أخيراً
وأهوى بيديه نحو الأرض كأنما يفتش عن شيء . فقد .

وإذ هو كذلك سمع صوتاً من بعد يحمل هذه الكلمات :
« ماخطبك يا مرجان ؟ ألم يكفك مانعانيه من هذا البرد الذي يُجمد
الدم في العروق ؟ أسرع فقد تأخرنا كثيراً ولا يزال بيننا وبين ميت غمر
جَذَبَةٌ^(٥) » .

وسمع الرفيق الآخر يضحك ضحكة غريبة ويقول : « ما إخاله إلا قد
بلغ منه الأئين^(٦) وله العذر إذا ألمس الراحة قليلاً فقد عدا الليلة كالفرس
الجموح لا يلوى على شيء . ولكن هؤلاء الأرقاء لم يخلقوا إلا لهذا
الصَّنَف من الأعمال ، فهم كالحيوان يسخره صاحبه ويشعرون بالسعادة في
الذل ويمجدون الحرية في العبودية .

(١) نضبت الماء غار (٢) قطع (٣) السير اللين

(٤) السير السريع (٥) مسافة طويلة (٦) التعب

طرقت هذه الألفاظ الجارحة مِسْمَعِي ^(١) مرجان ، وشعر كأن
سهما مسموماً صوّب إلى قلبه فمزقه ، فانتصب فجأة متنفساً الصُّعْداء ^(٢)
وصاح بصوت ممزوج بالألم والحسرة : إني لست بمتعّب يا سيدي
ولكن

ولم يتم جلسته بل عطف نحو شجرة على جانب الطريق وضرب يده
إلى جيبه فأخرج كِبْرِيْتاً أوقد به فتيلاً .

وما سرى صوت الثُّقَاب إلى الفارسين حتى التفتا وراءهما مذعورين .
نظرا فرأيا على ضوء البدر مرجانا وقد أسند ظهره إلى شجرة وانحنى
قليلاً ، ورأيا بيده ناراً فأخذهما الدَّهَش . وما هي إلا بضع ثوان حتى كانا
أمامه . فقال السيد بصوت تمازجه الشفقة : ماذا حدث لك يا مرجان ؟ فأجابه
الخادم : ليس عليّ من بأس يا مولاي ، ولكنّها قطعة من الزجاج على ما أظن
قد شجبت أخذَصَ قدمي شجاً صغيراً ، وسأكون على أهبة السير في
فقاطعه سيده قائلاً : ولكن ماذا تفعل بهذه النار ؟ فأجابه « إني
أكوى الجرح ياسيدي فهذا دواء قد جربته كثيراً فوجدته ناجماً »
فتقدم سيده نحوه مترجلاً وقال : أرني جرحك يا مرجان فإني عهدتك
تستصغر الكبير . فشعر الوَصيف ^(٣) بشيء من الخجل والاضطراب
وقال : لا تُقلق خاطرك ياسيدي فما حدث لي هين جداً . ولكن اصرار
سيده جعله يذعن أخيراً لإرادته .

(١) أذني (٢) تنفساً معدوداً (٣) الخادم

نظر السيد على غير هوى عبده فزفر إذ رأى الجرح بليغا ، ورأى قطرات الدم قد تجلَّلت^(١) القدم في بقع مختلفة ، فقال لرفيقه الذي لم يزايل^(٢) ظهر جواده والذي لم يظهر أقل اهتمام بالحادث :

« إِنَّ أَخْمَصَ قَدَمِهِ قَدْ شَقَّ شَقًّا عَمِيقًا وَلَا أُدْرِي أَيْسْتَطِيعُ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ مُوَاصِلَةَ السَّعْيِ مَعَنَا »

فأجابه الآخر وفي صوته رنة الاستخفاف والاستهزاء : وماذا نفعل ؟ أقترح أن نبقى معه هنا حتى تلتئم جراحه^(٣) أم نربطه في ذيل فرسنا ونجربه جرا ؟ .

فامتعض^(٤) حينئذ كلا السامعين الخادم والسيد ، ونظرا إليه نظرة الدهش ، ثم قال السيد : ليس أمامنا إلا رأى واحد لا ثانى له وهو أن نردف المسكين خلف أحدهما .

فصاح الآخر خلف أحدهما ؟ ما أعجبَ هذا الاقتراح ! وماذا يقول الناس حينما يرون سيداً وعبداً فوق فرسين فضلا عن فرس واحد ؟ إن هذا مستحيل ، والرأى عندي أن يسير خلفنا حتى قرية « النخاس » فلقد سرنا على مقربة منها ثم نتركه هناك ، وإنه لا يعدم أن يجد له مبيتاً ومواسياً ثم نستمر في السير وحدنا ، فإني لا أخشى السُرى^(٥) ولا أظنك تخشاه . على أن القمر لا يزال يحرس الكون بعين ساهرة وإن سلاحنا

(١) عَلَّتْ (٢) يفارق (٣) جروحه (٤) غضب

(٥) السير ليلاً

معنا . وإذا رينَ بنا ^(١) — لا قدر الله — فهل تظن أن خادمك
يخلصنا ؟ لقد قطعنا إلى الآن شوطاً بعيداً ، ولم يحدث شيء ما يعكّر
صفونا اللهم إلا ما أصاب عبدك وإني على يقين من أن سفرنا
سيتّم بسلام .

فأجابه الآخر : آمل أن تتحقق نبوءتك ، غير أن إباءك أن
تردّ خادمي لا يمنعني أنا من أن أشركه معي . انه خادم يستأهل كل
عناية ، وإن حالته تستحق العطف لا اللوم .

وما انتهى من هذا الحديث حتى نهض مرجان وصاح بصوت
بنّىء عن مقدار كلفه ^(٢) برب نعمته وقدره لاقتراحه : أشكرك ياسيدي
ولكن ذلك لن يكون أبداً ، على أنى والحمد لله أشعر الآن بتمام المقدرة
على معاودة المسير بل العدو

ثم نظر إلى الرّاكب الثانى بعد أن عصب قدمه بمنديل رأسه نظرةً
تشفّ عما في قلبه نحوه من البغض والمقت وقال : لا حاجة الآن إلى جرى
أو تركى ، على أنى لو مُنيت ^(٣) بشرّ مما أصابنى الليلة ما فكرت في أن
أترك ولىّ نعمتى ونعمة أبى يسير وحده في هذا الطريق الموحش
ثم انطلق أمام الفرسين كأن لم يصبه شيء ، ولم يسمع دعوة سيده له
« بورك فيك يا مرجان »

استمر الخادم على سيرته الأولى بل زاد من سرعته مدة ليست بالقصيرة

(١) وقعنا في ورطة (٢) غرامه (٣) أصبت

كان يفكر خلالها في رفيق سيده العجيب وفيما سمع من حديثه ويدفع
ماتخالج^(١) في صدره من أمره ، ثم تغلبت عليه عوامل الشك فصاح في أعماق نفسه
الطّيبة : إني لأظن هذا الرجل إلا شيطانا خبيثا قد استدرج سيدي الحسن النية
ليوقعه في حباله من حباله ، وإلا فلماذا أراد أن يتركني وراءه تحت رحمة الليل ؟
أسفقت منه على ، أم ليخلى الطريق مني حتى يستطيع أن ينفذ ما تدبّرت من سوء ؟
ولكن لا . إن سيدي أثقب نظرا وأبعد من أن يُخدع بمثل تلك الخدعة .
ولو أنه داخله خلجة شك في أمر هذا الرجل لما أمّن أن يركب معه هذا
الطريق ، ولأثر أن يقضى سحابة ليلته بالزقاق ، وما أدري لعلهما صديقان
قديمان قد جمعتهم يد المقادير بعد أن فرقتهما يد النوى .

وكان قد هدأ سيره قليلا ، ثم جمع قواه واستحثّ رجليه واندفع إلى الأمام
كأن شبحا من الخطر يتعقبه . وما وراءه إلا الجوادان يديران دريرا^(٢) .
وإنه لكذلك تتقاذفه الهواجس ، وتتهاداه الوسواس ، إذ سمع صوتا
يناديه أن قفْ فقد بلغنا « النخاس » وإذا كنت لا تزال تجنّح للراحة
فما عليك إلا أن تمرّج عليها وتقرع أحد أبوابها .

عرف مرجان مصدر هذا النداء فلم يُعره اهتماما ، بل كان جوابه عليه
أن أطلق لساقيه الريح حتى غاب في ظل القرية ثم برز في وسط الطريق .
وحملت الريح إليه قهقهة سيده العالية فصاح في نفسه : ترى ماذا يُكنُّ
لنا هذا الليل في جوفه ، وماذا يضمّر القضاة في صدره ؟

(١) يقال تخالج في صدرى شيء أى شككت (٢) يعدوان عدوا شديدا

الفصل الثاني

الفاروس

أنشأ المزمِّلان ^(١) يتحادثان فقال أحدهما لرفيقه . ألم أقل لك إنه صيهاً بهذه الفكرة وإنه يؤثر أن يكون بجانب كسيراً أو طريقاً على أن يكون بعيداً عنى سلباً معافى ؟ إن هذا القين ^(٢) نشأ في فَنائي فريته مثلما أهوى كما أدبت أباه من قبل ، فلم ينسيا رب نعمتهما ولم يألوا جهداً في راحتي ولولا أن قتل أبوه لرأيتَه يعدو وراءنا الليلة كما يتقدمنا ابنه الأمين .

ولم ينم كلامه حتى رأى فرسه قد صر ^(٣) أذنيه ، وبدأ يضرب الأرض بحوافره ، ثم سمع وقع منابك جواد منبعث من الخاف ، كأنما العبد المقتول قد بُعث من مرقده ليحقق ظن سيده .

وكان الصوت قد سرى إلى أذن مرجان ، فتراجع حتى كان على مقربة من سيده ، وهمس في أذنه ببعض كلمات ظهر أثرها في الحال ، إذ قد مال سيده إلى جانب الطريق مُظهِراً من تحت عباءته غدارة فيها الموت أما الرفيق الثالث فلم يظهر عليه أقل اهتمام بالحادث كأن الأمر لا يعنيه أو كأنه أخذ عهداً ألا يهدد في حياته .

وأما مرجان فقد وقف في الطريق متعرضاً قابضاً على عصاه بيده

(١) زَمَلَهُ في ثوبه لَفَهُ (٢) العبد (٣) نصبهما للاستماع

اليمى قائلا : دعانى أقابل هذا القادم ، ولا تتدخل حتى تريا ذلك لزاما .
فابتسم سيده حتى لمت أسنانه الذهبية ، ولم يرم الآخر ببنت شفة
بل ساق فرسه إلى الجانب الآخر ، ولبت كأنه أحد الأنصاب ^(١)
وإنهم لسكذلك إذ نظروا زوبعة من مثار الرهج ^(٢) تتقدم نحوهم
وتبينوا خلالها شبحا ما لبث أن بان عن فارس يركض جواده
مِلء فُروجه ^(٣)

فصاح مرجان بأعلى صوته ملوِّحا بعصاه : قف أيها القادم وأخبرنا
من أنت ، وإلا فالويل لك ...

وما أتم كلامه حتى وجد نفسه يدور على نفسه كالذوامة ^(٤) ثم
وجد نفسه لصيق جواد سيده . ولولا لطف الله لخرَّ صريعا مبقور
البطن أو مهشم الرأس ، لأن القادم لم يأنبه بإنذار العبد ، وربما لم يسمع
منه كلمة ، وهذا بالجمع كالبرق صادما في أثناء ذلك مهدده صدمة كادت تفقده
صوابه ، وكان من أثرها أن طارت الحكمة والعصا معا في الهواء ثم استقرتا
في قناة على كَثَب من الطريق .

حدث ذلك في أقل من لمح البصر ، ثم استفاق الكل من ذهوله .
نظر مرجان إلى وجه سيده فلمح فيه سؤرة الغضب والسخط ، ونفذت
عيناه المتألفتان إلى قلبه فقرا فيه آيات الارتياب والقلق ، ولاحظ أن

(١) جمع نُصْب وهو ما نصب ليُعبد (٢) الغبار (٣) يستحث
فرسه بقوة (٤) فلَسَكَة يرميها الصبي بخيط فتدور على الأرض أى تدور
(٢)

الغدّارة لاتزال بمكانها من يده لم يندلع لسانها ولا أستمعت صوتها . وشاء سيده ألا يضيع وقتاً أكثر فأمره بالمسير فأطاع .

ودار حديث بين الرفيقين فقال أحدهما للآخر : لقد كان حريّاً بك ألا تمنعني من إطلاق غدارتي ، فإن ذلك الرجل يستأهل العقاب بل القتل على ما فعل . ألا ترى أنه كان ينوي أن يطرح خادمي تحت سنانك فرسه ولو استطاع لفعل ؟ إني شممت ريح الغدر من أردانه ^(١) وإني أتوقع شراً من مروره في مثل هذه الساعة ، وما أحسبه إلا جري ^(٢) سوء يحمل الموت في صدره ، أو أحد هؤلاء الأبالسة الذين يفجمون السابلة في أموالهم وأرواحهم تحت أرواق الليل ^(٣) وفي بياض النهار ، وإلا فلماذا لم يحيى أفراداً ضمهم وإياه طريق واحد مهيب ، وحوام جوف الليل الفسيح ؟ أما كان من الحزم أن يعقب ^(٤) ولو بضع دقائق حتى يُزيل ماعلق بأذهاننا من الريب في شأنه ؟ إنه لو فعل لكان خيراً لنا وله وربما كانت وجهته وجهتنا ، وحينئذ ينضم إلينا فيزداد بنا ويزداد به قوة .

وصمت برهة ثم أردف يقول : ألسنت علي رأبي يازمبلي ؟

فأجاب الآخر بصوت الرزين الواصل من كلامه : نعم . لست على رأيك يا صديقي . وما أحسبك إلا ركبت متن الشطط في حكمك ، وقنوت ^(٥) رجلاً لاتعرفه ، وإنما جمعتك وإياه ساعة عصيبة . وما يدريك لعله يكون

(١) جمع رُذْن وهو أصل السكم (٢) رسول

(٣) في أثناء ظلمته (٤) يعطف (٥) قذفه بالفجور

بريثاً من كل ما وصمته به ، وأن حدّك ليس بكهانة ^(١) . إني لا أظن ذلك الراكض إلا خابط ليل ساقته ظروف كظروفنا لاختراق هذا السبيل ، ولو لم يتعرض له ذلك العبد الأخرق بتلك الحلة المريبة لمضى المار بسلام ، ولو صرعه ذلك الجواد لكان إثمه على نفسه . وكيف ترتقب من سار أوحد مثل هذا أن يعطف على جماعة لا يعلم من أمرهم شيئاً ولا يتوقع منهم نفعاً ؟ ألا يوحى إليه العقل وحب الحياة أن يكون حذراً كغراب ، سيّ الظن بمن يقابله حتى لا يقع في أحبولة لا خلاص له منها ؟ إن فرداً هذا شعوره وتلك حاله ليتصور كل شبح عدواً ، وكل ظل كهيناً ، وكل حفرة قبراً . وكل همس غدراً . وما حالنا بنخير من حاله فلماذا ونحن جماعة ننتظر من غيرنا ما لا ينتظره منا ؟

وفي هذه اللحظة أصرّ الجوادان بأذنيهما ، ووفقاً فجأة كأنما كانا على اتفاق ، وصهلا صهيلاً تجاوب بصداه الخاققان ، وأخذتا ينسكتان الأرض سنابكهما . فنظر كل من الصديقين إلى صاحبه نظرة استفهام مازجها الشك ، ثم انحنيا إلى الأمام محدّقين ببصرهما ، ولسكنهما لم يقبينا شيئاً مما حير لهما . ثم أعادا الكرة وإذا بهما يريان على بعد وخلف شجرة ضخمة مرجاناً مطروحاً على الأرض ، فعلقا أنفاسهما برهة رأياه في أنثاهما مرتفقاً ^(٢) وواضعاً يده أمام جبينه كأنما يستكشف ^(٣) شبحاً أو يستطع خبراً . فصاح

(١) أى أن ظنك ليس ييقين (٢) متكئاً على مرفق يده (٣) يستوضح

المولى : الحمد لله لقد حسبته طارت نعمته^(١) وسكنت نأمة^(٢). ثم رأياه
ينفض ويستأنف^(٣) الشرى بقدم مطمئنة .

وصل الحديث ما كان قد قطع من الحديث قائلا : على أنى لم أقبض
على يدك وأحل بينك وبين ما تريد من رمى ذلك العابر برصاص غدارتك
إلا لأدفع شرّاً نحن في غنى من أجله^(٤) على أنفسنا ، ألا ترى معى أن
فى كل لُغمة من لُقم^(٥) هذا الطريق مكمناً للصوص من كل شاطر عيار^(٦)
وذئب فى صورة الأبرار ، وأن فى إطلاق الرصاص تنبيهاً للآذان النائية
وإيقاظاً للعيون الساهية ؟ فلو أنى تركتك وشأنك لوقع مالم يدُرُ بخلدنا
وأحدق بنا أولئك الأشرار من كل صوب . فاشكر الله على أنى كنت
أحضر منك ذهنًا وأبعد مرّمى ، ولا تعذلى على أن دفعت شرّاً مستطيراً
وصنت يدك من سفك دم ربما كان طاهراً .

فوقعت هذه الكلمات من سامعها محل القبول ، واعترف أن فيها
نصيها من الصحة ، ثم استدفع الله الأسواء^(٧) ورجا من كل قلبه أن يصلوا
إلى مقصدهم بدون أن يحدث ما يعكر الصفو

وسمع صديقه بإلفظ « آمين »

(١) نفسه (٢) النأمة النعمة والصوت (٣) يتبدى (٤) جلبه

(٥) لقم الطريق بنيانه اللاتى تفرعن منه (٦) كثير الطواف والحركة

(٧) طلب من الله دفع السوء

الفصل الثالث

الانتقام

سار الركب بهدوء لأن وعورة الطريق وكثرة مرتفعاته ومنخفضاته
وتقارب حافتيه هنا وهناك ، وتراكم أشواكه لم تكن تسمح للمار
بغير ذلك .

ولقد عانى مرجان من الألم في طي تلك البقعة ما يعانى به خارط القتاد^(١)
والماشي على قطع الزجاج ، فكنت نراه يقفز من جهة إلى أخرى قفز الحر،
يعلوتارة ويهبط أخرى ، ويشرق مرة ويغرب مرة ، وآناً يبدو وآناً
يغيب ، ووقتاً يلتوى ووقتاً ينحني ، كأنه أعشى^(٢) يختبط أو مرتج^(٣)
عقله اختلاط .

وما زالوا سائرين على هذا النحو حتى انشعب بهم الإمام^(٤) غير
المبين إلى طريقين شجيرين لا يسمح كلاهما لغير راكب واحد بالمرور في
وقت واحد ، قد نبت على جوانبهما أشجار ضخمة من الجيز والتوت
والسدر^(٥) حجبت ضوء البدر الساطع ، ووراء تلك الأشجار التي تصفّقها

(١) الشوك (٢) الأعشى من لا يبصر ليلاً (٣) المتمايل

سكراً (٤) الطريق (٥) شجر النبق

الرياح فتصطفق^(١) وعلى مدى البصر امتدت مئات الأفدنة من القصب والذرة، تداعب خاماتها^(٢) الهواء والهواء يداعبها فتميل طوراً وطوراً أفتتصب وتلتزم^(٣) حيناً وحيناً تفترق .

عطفوا بسرة وما هي إلا بضع خطوات حتى سمعوا حركة حيوان أجفل^(٤) لرؤيتهم وانساب بين الأشجار فرارا بحياته، ثم نشروا آذانهم كما ينشر الكلب أذنيه حينما يسمع ديباً يدنو من مسكن سيده ، وإذا تصرّخ^(٥) كأنه منبعث من أعماق القبور عقبه أنين كأنين العود لعبت به أيدي البلى ثم سكوت عميق

فعر الكلل ما يعرف كل فرد في مثل هذا الموقف من الدهول والدّهش ، وأشار أحد الرّاكبين إلى مرجان إشارة تنبيه عن رغبته في مغادرة هذا المكان حالا ، ولكن الخادم المجّاجل^(٦) لم يأبه بها بل نظر إلى سيده نظرة المستفهم الذي لا ينتظر جواباً .

وما هي إلا لحظة حتى بطّح^(٧) نفسه على الأرض ، وفتح منخريه كحيوان يشم ريح فرسته، ودوّمت^(٨) عيناه، ثم استوى على أربع وأخذ يدبّ ديب القط يريد أن ينقض على قنيصته ، ثم اختفى بسرعة البرق .

(١) نهزها فتهتز (٢) الخامة من الزرع الشجرة الغضة

(٣) تتعاقب (٤) فروهرب (٥) صوت المستصرخ

(٦) الشجاع (٧) القى (٨) دارت حدقتها

فأرجس الآخران في نفسيهما خيفة ، وسرّت رهبة المشهد إلى رهبة الليل فأثرتا تأثيرهما فيهما .

وبعد لأي ما وجد بعض الكلمات طريقة إلى شفى أحدهما فقال بصوت منخفض : إن هذا العبد المنحوس الطلعة كالساعى إلى حتفه بظلمته وإنه سيجل^(١) علينا بهوسه هذا كل ضرر . لم يكفه أن كان سبباً في تأخرنا هذا التأخير حتى قيدنا بمكان يخلق في سمائه طائر الموت وتحفة الأخطار من كل جانب . وأنه لخير لنا أن نريم^(٢) عن هذه الأرض نوأ ولو أدى الحال أن نتركه هنا يقطف ثمرة مخاطرته ، وإلا فلست أتحمل تبعة ماعسى أن يقع من جراء هذا الريث^(٣) .

فأجابه الآخر بهدوء الحذر : هوّن عليك فما أظن أن في الأمر شيئاً يهدد حياتنا ، وإن هو إلا بائس ألقاه سوء طالعاه في قبضة أحد المجرمين المنتشرين بين هذه الأرجاء ، فلم يستطع دفع الشر عن نفسه ، فرفع بالاستغاثة صوته المختنق ، لعله يصادف قلب شجاع كريم فينتشله من ميته فظيعة . وإن المرء لتصاريف القضاء أطوع من ظله لنفسه ولإنفاذ القدر أحث^(٤) من الماء إلى منحدره ، وما ساق هذا الذى تسميه عبداً إلى تركنا هنا إلا عامل الشفقة وخلق الشجاعة ، وإني أتمنى أن يدرك ذلك المسكين قبل فوات الفرصة والأى يكون عونهُ دياراً^(٥) .

(١) سيجلب (٢) نرحل (٣) البطء (٤) أسرع
(٥) متأخراً

وما التحقت الكلمة الأخيرة بسابقتها حتى سمعا صوتا يشبه صوت الماء ألقى فيه حجر عظيم ، فاستحثا مطيئيهما نحو مصدره ، وقبل أن يتكهنا بما حصل وقعت عيونهما على منظر عجيب رائع فتملكنهما الدهش والذعر معا . أبصرا رجلين كخافيتي ^(١) الغراب الأسحم ^(٢) في ثياب ممزقة قد علاهما الدم والطين ، أحدهما صخم الجثة طوال ^(٣) ترمى عينه بشرر ، والثاني دونه حجما ، قد التفت سيقانهما بعضها على بعض والتحم صدراهما . رأياهما يتبادلان اللطبات المميته بضع ثوان ، ثم يردبان ^(٤) إذ يردى بهما الجرف المنهار في الماء

وعند هذه اللحظة وبسرعة دونها سرعة البرق تمكن مرجان من أن يفلت من قبضة خصمه وعلو ظهره لافا ساقيه حوله ومطوقا ليد يده ^(٥) بذراعيه الحديدين وناشبا أنياب ضرعام في قفاه

وعندئذ صاح العبد الطوال صيحة مزعجة ، ورطن رطاته ، ثم استدعى من وسائل الدفاع ما استدعيه امرؤ حريص على حياته ، فمز نفسه هزة عنيفة قصد أن يزحزح حمل كاهله ، ثم أخذ يلتوي على نفسه مزجرا ، وينحني ويعتدل مرغيا ومزبدا

وما كانت تلك الحركات إلا مخرجة لمركزه ، مُدنية له من منيئته فقد

(١) الخوافى مادون الريشات العشر من مقدم الجناح

(٢) الأسود (٣) مفرط الطول (٤) يسقطان

(٥) اللديدان صفحتا العنق دون الأذنين ، وجانبها كل شيء

ثأخت^(١) رجلاه في الطين إلى ركبتيه ، ثم هاج هيبة الجاهل^(٢) وقع في
الشرك ، ودار على نفسه نصف دورة ضارباً خصمه بمرقبيه آناً ومحاولاً عصر
عنقه آخر حتى وهت منته^(٣) ، وقرر نشاطه ، وخرخرت^(٤) حنجرتة ،
واندلع لسانه ، واسترخى ذراعه ، وجحظت^(٥) عيناه ، وزبب^(٦)
شدقاه ، ثم هوى بعبئه كالجل جثة هامة .

مُثلت هذه الفاجعة أمام شاهديها بسرعة ، وأنستهما روعة المشهد
نفسيهما فجدا جمود الصنم لا يحركان يداً ولا يبديان نصحا

نهض مرجان من مهواه بشكل تُدْعَر منه الأبالسة بله الأناسي .
وجه جهم^(٧) كوجه الموت ، وجسم قد غطاه الحالكان من سواد وطين
وجرى فوق سطحه السائلان من دم وماء ، وأعضاء مجروحة ومخدوشة في
مِزَق^(٨) قذرة . حال ترعب وتضحك وتستحق الرثاء والإعجاب .

نهض وعلى فمه الوالغ في الدم ابتسامة تبرأ منها الابتسامات ، ينبض
كل عرق في صفحة وجهه ، ويعلو صدره ويهبط كبركان أو شك أن
ينفجر ، وقفز على شفا القناة منبهراً^(٩) ومتنفذا كصفور بلله القطر أو
كمحموم به أرض^(١٠) وقال بصوت الظافر من غير أن يحول نظره عن

-
- | | | |
|------------------------|---------------|-----------------------|
| (١) غارت | (٢) الأسد | (٣) ضعفت قوته |
| (٤) الخرخرة صوت المختق | (٥) برزت | (٦) اجتمع الريق فيهما |
| (٧) كالح | (٨) قطع ممزقة | (٩) متتابع النفس |
| | | (١٠) رعدة |

تلك الجثة الفارقة في الطين والماء كأنه يتوقع منها ضررا : لقد انتقمت
لأبي من هذا الشيطان الغادر النذل ! ولقد نَضَوْتُ ^(١) البلاد طولا وعرضا
مدة طويلة طمعا في أن أظفر بطلعته فأغمد النصل في كبده فما وقفت له
على أثر وهاهو ذا القدر قد ساقه إلى الليلة من غير ما توقع ومن غير أن
أهمل للأمر . فليهدأ بالي الآن ، وليعلم أبي أن دمه لم يذهب جباراً ^(٢)
وأن ابنه لم يَخْنَثَ بيمينه

نعم ثارت لوالدي ولهذا البائس المسكين أيضا !!
وأوما بيده إلى جسم منبطح ^(٣) بين أعواد القصب

الفصل الرابع

المعركة

لَبِثَ ذَلِكَ الْجَسْمُ فِي مَكَانِهِ طَوِيلَ مَدَّةِ الْعِرَاقِ ، وَمَعَ أَنَّهُ عَلَى كَثَبٍ مِنْ مِيدَانِ الْقِتَالِ لَمْ يَسْتَرْعِ مِنَ الْحَاضِرِينَ نَظْرًا ، وَلَمْ يَسْتَخْلَصْ مِنْهُمَا آهَةً وَلَمْ يَسْتَجِرْ عَلَى دِيبَاجَتَيْهِمَا ^(١) دُمْعَةً . ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَا دَارَ مِنَ الْقِتَالِ لَمْ يَتْرَكْ مِنْهُمَا حَاسَةً إِلَّا شَغْلَهَا فَلَمْ تَعْدُ مُلَاحَظَتَهُمَا تِلْكَ الدَّائِرَةُ الضَّيِيقَةُ دَائِرَةُ الْحَرْبِ نَظَرَ السَّيِّدِ إِلَى حَيْثُ أَوْماً الْمُنْتَصِرِ نَظْرَةَ الْمَكْتَتِبِ الْحَزِينِ وَقَالَ :
حَقًّا لَقَدْ انْتَصَرْتَ الْعَدَالَةَ عَلَى يَدِكَ أَيُّهَا الْمَرِيرُ ^(٢) . إِنَّكَ لَمْ تَنَارْ لِأَيِّكَ وَلِهَذَا الْقَتِيلُ فَحَسْبُ ، بَلْ إِنَّكَ ثَارْتَ لِي يَا مَرْجَانُ أَبْضًا ، فَإِنَّ دِينَ أَيْيِكَ كَانَ لَا يَزَالُ فِي عُنُقِي حَتَّى فَكَّكَ كَتَمْتُ أَنْتَ بِشَهَامَتِكَ .

طَنَّتْ كَلِمَاتُ سَيِّدِهِ الْآخِرَةِ فِي أَذُنِهِ طَنِينُ الذَّبَابِ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ لَهَا مَعْنَى إِذْ أَحْسَسَ أَنَّ الْأَرْضَ الْقَضَاءُ تَدُورُ بِهِ وَكَأَنَّهُ سَمَرَ إِلَى مَكَانِهِ فَمَا يَسْتَطِيعُ حَرَاكَ ، ثُمَّ خَدِرَتْ أَعْضَاؤُهُ وَخَشِيَ السَّقُوطَ فَهَالَ نَحْوَ الْأَرْضِ لِيَلْتَقِطَ عَصَاهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُمْ ، بَلْ ارْتَمَى ارْتِمَاءَ الْمَرِيضِ قَالَ مِنْهُ الْهَزَالُ ، وَالْمَنْهُوكُ شَفَّةً ^(٣) طَوِيلَ الْجِلَادِ وَاللَّغُوبُ ^(٤) مَا بَيْنَ مَيِّتٍ وَحَيٍّ .

(١) خديهما (٢) القوى (٣) هزله (٤) التعب

وسرعان ما كان سيده بلصقه^(١) يمسحه ويحنو عليه حنو الأب الشفيق
على ابنه الوفي البار صاباً الماء البارد على وجهه .
وأخيراً حرك الطريق عينيه ، ومال إلى رأسه بكلمات يديه فعصبه
ووجدت هذه الكلمات طريقها إلى أذنه : ألم أقل لك إن هذا البربري
محبلة للشر ، وإنه سيوقعنا في فخ لا خلاص لنا منه ؟ ما لنا ولرجل يأكل
آخر ؟ لسنا حراس طرق فنسأل عما يقع فيها ، وإن هذا السفاح خلليق
بما حل به وأكثر ، وإذا كان في عزمك البقاء بجوار خادمك أكثر مما
ضيعنا من الوقت فانت حر فيما تفعل ، أما أنا فراحل .
وسمع صوتاً آخر محبوباً يجيبه : ارحل إذا شئت ، أما أنا فلن أترك
خادمي على هذا الحال ، وإني أستحب بقاءى هنا على ما فيه من غرر^(٢)
على السير بدونه .

سمع مرجان هذه الكلمات كما يسمها الشخص أدركته سنة من
النوم ، ثم فتح عينيه على إثر قطرات من الماء تحدرت من عيون السماء
وما لمح وجه سيده يُظله^(٣) حتى استوى جالساً وقال عفوا يا سيدي إن هي
إلا غشية عرتني ، ومد يده إلى عصاه فالتقطها واستوى على قدميه ، وقال
وهو يتمايل كسكران لعبت برأسه نشوة الإثم^(٤) : إني مستعد للرحيل .
ولكن سيده كان أعلم بضعفه من نفسه فأبى إلا أن يكون رديفه^(٥)

(١) بجانيه (٢) خطر (٣) أظله دنا منه حتى ألقى ظله عليه
(٤) الخمر (٥) راكباً خلفه

و بعد لآى ما خضع مرجان مكرها لإرادة سيده ومؤاميه .

ولنرجع الآن قليلا لننظر كيف وقع هذا الحادث غير المنتظر .
 إن مرجانا حين طرق صوت الاستغاثة غشاء أذنه لم يتردد في أن
 يتعرف الحقيقة وَيَبْطُن^(١) الأمر ، فترك الشيخين على نحو ما أسلفنا ، وسار
 سير الحذر اليقظ حتى كان على كشب من مكان الحادثة ، فاذا به يرى منظرا
 مروعا يقفُ الدَّم في مجراه ، وَيَقِفُ^(٢) منه شعْرُ الصنديد - منظرَ رجل
 سُمِرَ إلى الأرض ، قد ولى وجهه نحو القمر كأنما يُشْهده على ما سيقم
 وقبض بيده على ضَعْفَيْنِ^(٣) من الحشيش كأنما يستغيث بالأرض أن تفتح
 له أحشاءها ونحميه من موت محتم ، ومنظرَ رجل آخر من بنى جلده
 رازم^(٤) فوقه رزوم البعير ينزع منه الحياة العريضة انتزاعا ، ويمز^(٥) دمه
 مرزا ، قد أنشب أظفاره في مُتَلَدِّهِ^(٦) . فشَخَصَ صرهُ^(٧) برهة كمن فقد
 صوابه ، ثم خيل إليه أنه يرى شبح أبيه يدنو منه ، وأنه يسمع صوته يردد
 « الانتقام ! الانتقام ! »

فتأثره ، وشعر بغريزة التوحش تعود إلى عكرها^(٨) واندفع كالسهم .
 وما هي إلا قفزة وثانية حتى انقض على ذلك الوحش الانساني انقضاض
 النسر تراءت له قنيصته . وكأن مسكرة الدماء أنست ذلك المتأثر^(٩)

- (١) يعرف باطنه (٢) يقف من الفرع (٣) قبضتين
 (٤) بارك (٥) يعض (٦) عنقه (٧) فتح عينه ولم يطرف
 (٨) اصلها (٩) الجبار

العانى ما يُظلمه من خطر، وكان تذوق ماء الحياة لم يواظف فيه غريزة الدفاع عن الحياة فلبث برهة يحتمس^(١) تلك الحجر البشرية ، وأبت شفاته أن تفارقا شفة تلك الكأس الجسدية . ولم يغير من وضعه حتى أحس بقبضتين من حديد تضيقان عليه الخناق ، وبأسنان كاللواشى تنهش لحمه نهشاً . فخلص أنيابه من عنق ذلك الأسير لينفذه في جسم ذلك الراشن^(٢) الملقى بنفسه في موطن التهلكة . وهبَّ بحمله يسيل رُواله^(٣) ويتلظى^(٤) هبَّ كالبركان المنفجر يهدد ويُرعد ، يرسل فمه بالزبد وترمى عينه باللهب وبحركة غريبة املص من يده كما يملص الأسود^(٥) من جرابه بل كاد يسمره الى شجرة قريبة منه لولا أن راغ^(٦) مرجان على بطنه ضرباً بالبين حتى كلفه بفقده النفس . ثم التحم الخصمان ، ونحى وطيس النزال ، فن صفع إلى وكيز^(٧) ، ومن رأس وصدر^(٨) إلى رفس ، ومن نهش إلى عض ومن هوى ونهوض إلى افتراق وتلاق ، حتى سالت الدماء ، ودحخت^(٩) الأقدام بهما في الماء ، وكان ما كان مما وصفنا بعد قدوم الشيخين .

-
- (١) يشرب على مهل (٢) الطفيلي (٣) لعابه (٤) يخرج لسانه فيمسح به شفته (٥) العظيم من الحيات (٦) مال (٧) الصفع الضرب بالسكف مبسوطة والوكيز اللكم (٨) رأسه أصاب رأسه وصدره أصاب صدره (٩) زلقت

الفصل الخامس

السر الرهيب

كَبَّحَ هَوْلًا، الثلاثة حاضرة الشرقية حينما تضيقت^(١) الشمس للغيب
وذَرَّ قَرْنَ سَنِيهَا^(٢) في المشرق كجبين الحسنا . وها قد مر^(٣) هزيع من
الليل ولم يزل نصف الطريق مبسوطا ينتظر الطي . ولولا ما عاقهم من
الحوادث غير المتوقعة لأفلهم أديم^(٤) غير الذي يُقهم الآن ولـكانوا
أقرب إلى كعبتهم .

ركبوا والجو هادي . وإن كان قرأ ، ووجه السماء صاف لا يعلوه
عبوس ، وقطعوا مرحلة طويلة وما تبدى في تلك القبة الزرقاء غير^(٥) كِسَفٍ
من المبشرات^(٦) كأنها طلائع الحملات ، أو الرسل إلى الأرض الموات ،
أو النذر إلى من حوتهم الطرقات

وها هم أولاء الآن يستأنفون المسير بعد تلك الحادثة المروعة وقد
اغرورقت عيون السماء بقطرات من الماء تكدرت كحبات عقود وهت
أصلا كها ، ثم أرسلت مدرارها ، وصفرت الرياح صفيرها وأضعف^(٧) البرد
أو كاد ، وتوارى البدر خلف السحاب ، بعد أن كان محطوط النقب ،

(١) مالت (٢) طلع القمر (٣) طائفة (٤) حماهم سطح
(٥) قطع (٦) الرياح التي تبشر بالغيث (٧) تضايف

كأنه كره رؤية حرب شعواء ، كادت تثيرها الطبيعة بين الأرض والسماء ، وكأن الكواكب أُلْت بما قام بنفس سيدها ، فأنحدرت هي أيضاً إلى مخادعها .

انتشر على السكون رداء من الظلام خفيف ، فانكمش الراكبون انكماش الجُرَذ^(١) تراءى له الهر ، وقبعوا في ملابسهم قبوع القنافذ في جلودها واستعثت تساقط الأمطار الجوادين فاندفعوا اندفاع الشهاب يهديهما ما ركب فيهما من غرائز الخيل ، واستمرا على هذه السرعة بعض ساعة وما رفقها^(٢) عن نفسيهما إلا تلبية لإرادة صاحبيهما فقد وصل الجمع هنا إلى منعطف خطير ضيق يتطلب الحذر

ولولا جذبة قوية للعنانين في حينها لهوى السكل في ظليلة^(٣) قدرة يعلوها الطُّحْلُب ، وينبت في أرضها أعواد النبات المتراكمة ، رابضة عند رأس ذلك المنعطف كشرک للغافل .

وكانت السحب بعد أن عُلَّت^(٤) الأرض نحو نصف ساعة قد تبدد معظمها في أجواز الفضاء ، وأطل القمر من خلالها بين وقت وآخر .

وما جاوزوا ذلك المنعرج بعدة خطوات حتى التقط سمعهم مَكَا^(٥) مبعثه حقل قريب منهم لم يلبث أن تجاوزته الحقول عن أيمانهم وعن

(١) النأر (٢) رفه خفف ونفس

(٣) مستنقع (٤) العَلَل الشرب الثاني وَعَدَهُ سقاء السقية الثانية

(٥) صفيرا

شمائلهم . فداخل الراكبين من الريبة والذعر ما الله عالم به . واستبدل مرجان بظهر الحيوان ظهر الغبراء .

وإذ هم حيارى في أمرهم انفجرت قصبّات الذرة عن رجل قصير بطين^(١) كأن طوله عرضه، قد تلثم بلثام الغدر، وييده عصا في أضعاف طوله، وبوسطه حزام أسود عريض علق به خنجر كالهلال هو منجل^(٢) الأرواح، ومصدر الأتراح .

وقبل أن يسأله ما خطبه صاح بهم صيحة في ثناياها الموت : قفوا فإن لنا معكم لشأنا . ثم وثب إلى حيث الأسرى واستفسر من أنتم ؟ فرد أحد الثلاثة بصوت رزين أجش^(٣) : أنا الكومى !

فعلت لفظة « الكومى » فعلها ، فتقهقر صاحب العصا خطوة إلى الوراء متعثرا في أذيال الخيبة ولاعنا في أغوار^(٤) نفسه الكومى وتابعيه ثم دار على عقبيه ، ودار معه كرشه الكرى البارز كما تدور الكرة الأرضية، ثم اختفى حيث بدا . واختفت في نفس البرهة وجوه كثيرة مقنعة كانت تطل من بين الأشجار ، ويتأهب ذورها للوثوب والانتقاض .

سار الكومى وقد علاه من انزّه هو ما يعلو الظافر في الحروب ، وسار بجانبه رفيقه ولما تفارقه دهشة الموقف ولا زابله^(٥) سورة القلق ، وسار خلفهما مرجان .

سار الكل مدة غير قصيرة بخطى رنيبة ورفيقة شأن من تنابهم

(١) عظيم البطن (٢) محمد (٣) غليظ (٤) أعماق (٥) فارقه

المهاجس وتكتنفهم الوسوس ، يرمون وقتاً بعد آخر بنظرة نحو السماء
كأنما يستشفون^(١) ما وراء الحجب من الغيب، أو يستفسرون عن مآل
ما يشعرون به من ريب

ساروا وكل في واد من الأفكار سابح ، وفي ميدان الوهم والخيال
غاد ورائح . هذا يتذكر أسماء عزيزة ويتصور وجوهاً محبوبة تهش
للقائه وتعيس افراقه ، وذلك يتمثل رجالاً تترقب طلعه ، وتستريث^(٢)
أوبته قد أخذ منهم القلق وضرب بهم اليأس في مجال المظان^(٣) ، وثالث
يسبح في عالم آخر ويصيح في أعماق نفسه : ترعى من يكون ذلك المجلل^(٤)
بردائه ؟ إن سيدي لم ينفُض إلى شيئاً من حاله ، وإنه ذو سطوة وبأس
وإلا فلماذا يهابه العتاة الجبابرة وعهدى بهم لا يرهبون المنايا ، وتفعل بهم
كلماته ما لا يفعلها السحر ؟ أهو رب عوارف^(٥) عليهم فظهِروا بظهِرهم اعترافاً
بفضله واقراً بنعمته ؟ أم هو من القساة السفاحين فخشوا بأسه ولم يعارضوا
رغبته ؟ وإذا كان يمتُّ إلى هذه الطائفة بصلة فهل يبيت لسيدى سوا
أو يُضمر له غدراً ؟ إنه لا يستطيع مسه بأذى مادام في عرق ينبض . اللهم
لقد عميت^(٥) على سبل التفكير، فما أستطيع لهذا اللغز حلاً .

هذا ما كان يمر بخاطر ذلك العبد ويجول بمناحي نفسه ، وما أحسب
الطبيعة إلا أرادت أن تسخو على عقله بما ضنت به على جسده ، فقد استبدلت

(١) يستطاعون (٢) تستبطى . رجوعه (٣) الملف (٤) جمع عارفة

وهى الصنعة والمعروف (٥) خفيت

نقاء سريره بيض بشرته ، وصفاء قريحته بجهله وأميته^(١) ، وحبته الوفاء
والإخلاص ، وإن سلبته الحسن ورقة الاحساس .

يا لله ! كم في الحياة من رقيق يسود الأحرار ، وكم تضم تحت جناحها
من صعاليك يعظمون عند الاختبار ! !

وأخيراً نبه وقع السنايك من غفلته ، فأرى قدمين قد تطايرت منهما
الوَحْل ، ومضى الجماعة في طريقهم بسلام . ولم يحدث لهم ما يكره الصفو
أو يعوق المسير ، اللهم إلا حادثاً أشبه بحادثهم الأخير ، إذ ما وصلوا إلى
« ميت القرشي » حتى راعهم منظر عَصْبَةٍ من جنّ الإنس قد انبرؤا^(٢)
لهم مُقْعِنَ إقعاء الوحوش الضاربة توشك أن تنقض على فريستها ، ثم
ناهضين معا بوجوه لم تعلها القنُوع ، كأنهم رأوا في التقيع سُبَّةً وطاراً ، وفي
التنكر جبناً واحتقاراً ، شاهرين أساحة يلعب من فِرْندها الموت ، وهازين
عصياً كأن لها قرة^(٣) عند الجاجم .

وشعر صاحبنا بخرق المنبرين وهوَّجهم ، فآزاد على أن قال بصوت
يرسل الرعب إلى الأبدان : افسَحُوا في الطريق أنا الكومي ! !

فنكصوا على أعقابهم يحرقون الأُرُم^(٤) إلا قَزَماً^(٥) تلوح عليه
غيايل الاستهتار^(٦) والبرَم^(٧) بالحياة لم يزايل مكانه بل قلد الناطق
منهكاً « أنا الكومي » ثم صاح بصوت مأوه اليأس : لقد قطعت أرزاقنا

(١) تعرضوا (٢) ثارا (٣) يحكون الأضراس بعضها ببعض من شدة
الغضب (٤) القزم الصغير الجثة (٥) عدم المالاة (٦) برم به شتمه

واستأثرت بكل غنيمة، فهل كل شيء لك طلق (١) وعلينا محرم .
ثم هوى إلى الأرض يتخبط في دمه إذ أصابته رصاصة في سويداء
قلبه من ذلك الراكب الأنيم
أطلقت هذه الرصاصة المصمية (٢) ولا يعرف أحد كيف أطلقت على
ملا من الأشرار الفجار والشجعان الجراء وعلى واحد من زملائهم ، فهل
أطلقت منهم لسانا بكامة أو حركت يدا بضربة ؟
ما هذه السطوة الحارقة التي تمر (٣) سطوة القاهرين ؟ وما تلك
الإرادة الحديدية التي تغلب عزمات الصادقين ، وتذوب الشياطين أمامها
ذوبان الملح في الماء السخين ؟ إنه لسر عجيب ذلك الذي كان بين الضارب
والشهود لم تشأ الحوادث أن تكشفه لمرجان وسيده الآن

(١) حلال (٢) القاتلة (٣) تغلب

لفصل السادس

بين فكى الموت

انسحبت العُصبة بقتيلها ، ومر القاتل ومن معه كأن لم يأت أمرًا
نُكراً ، أو يُبثر في النفوس سخطاً مُراً . ولا يعلم إلا الله ما الذى كان قائماً
بنفسه ودائراً بخَلده .

وهام أولاء المسافرين بعد اللغوب والنصب وبعد ما عانوا من
الأخطار يدنون من قبلتهم ، ولكن بين رعد السماء وبرقها ، وزمجرتها
ووعيدها ، وتحت مطر وابل^(١) وشفيف لا ذع^(٢) .

غامت السماء ، وغابت ذوات الضياء ، فانغمس الكون في ظلام
دامس^(٣) وسار السارى في طريق طامس^(٤) . فهل كُتِبَ عليهم أن
يشتفوا^(٥) الكأس حتى الثُمالة^(٦) ؟ أو هل لعناصر الطبيعة القاسية لديهم
تِرة^(٧) فهي لا تتركهم أو تبوء بدمها^(٨) ؟ لقد طفح الكيل حقا ، ولم يبق
في جعبة الصبر منزع^(٩)

أهرعوا^(٩) في ذلك الدّيجور^(١٠) على غير هدى يخبطون خبطَ عَشواء
حتى وصلوا إلى ترعة « الصافورية » . وهناك ترشوا وأخذوا

(١) غزير (٢) ربيع باردة (٣) شدد (٤) غير واضح (٥) يشربوا
(٦) النهاية (٧) تثار لنفسها (٨) المنزع السهم (٩) أسرعوا (١٠) الغلام

يتحسسون^(١) المعبرَ حتى كشفه مرجان على كُثب منهم .

كان ذلك المعبر مركبا ولاكن على غير شكل المراكب المهدودة، قد هجره
مُكَّانه ، وطار عنه شِراعه . وإن هو في الحقيقة إلا صندوق ضخيم
مستطيل ، تعلوه ألواح ذات دُسر^(٢) لا تحمى حافاتها الراكب من
الهوى في الماء إذ ليس عليها أسوار ، قد أعد لجل الانسان والحيوان معا ،
يسير بجذب حبل يربط شاطئ التربة مثبت في قائمتين من الخشب
شرقا وغربا .

وكان هذا المعبر على تواضع تركيبه وخلوه من فن بناء السفن
نعمة من نعم الله على كل عابر ، ولم تكن أهميته في ذلك الوقت الذي
نكتب عنه أقل من أهمية القنطرة المقامة في مكانه الآن .

أخذ العبد والجواد « سيسى » مكانهما من المركب ، ولحق بهما السيد
متردداً ومتلفتا ، وسرعان ما ألمَّ العبد بما في دخيلته ، فتقدم خطوة والحبل
في قبضته ، وهمس في أذنه : إنه لن يشرَ كنا في عبرتنا . إن صديقنا قد
هجرنا لأمر في نفسه ، وإني ألمح شبه جواده يرعى هناك .

وكان الطبيعة أبت إلا تحقيق قائلته^(٣) فخطف^(٤) البرق حينئذ
خطفة كشفت عن حصان بلا راكب واقف حيث أشار الخادم على
مقربة من دَفْء^(٥) تُظَلُّ أشباحاتهم مس .

(١) يبحثون عن (٢) جمع دسار وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة
وقبل هي المسامير (٣) مقاله (٤) لمع (٥) شجرة كبيرة

وكانت تلك النظرة السريعة كافية لإشعار السيد بمخطر التريث
فقال بصوت مضطرب « هيا ! »

وما كان مرجان ليقف منتظرا تلك الكلمة، فجذبة واحدة من يديه
الأيديتين^(١) حملتهم إلى منتصف المجرى قبل أن تجرى « هيا » على لسان
صاحبها .

وفي هذه اللحظة سمع صوت صُور^(٢) ، يحمل في أمواجه الويل
والثبور^(٣) ، ورُئيت أشباح كأنها منبعثة من قبور ، تنسِل إلى الشاطئ
حيث يتكبدون^(٤) .

ارتعش الحبل في يدي العبد على الرغم من تجلده واستبداله إذسرت
إليه رِعدة الأعصاب ، وعلا محيا الرَّاكبين صفرة الوجل (إن صح هذا
التعبير عن مرجان) وشعرا بالخطر يضيق عليهما الحصار . ولكن ذلك
لم يكن ليثنى عزم الرُّبَّان عن اللحاق بالشاطئ ، كأنه صخرة النجاة .

وماذا يفعل المسكين وقد قُطِمَتْ عليه السبل ، وغدا كما يقول المثل
الإنجليزي « بين الشيطان والبحر العميق » ؟ وهل يُجديه التقهقر نفعا
ووراء الأكمة ما وراءها ؟ إنه آثر أن يرتقى بين فكي الموت مستسلما
للقادير وراكنا إلى ما قد تلده الحظوظ من فرص .

صهل الفرس الكريمُ مسمعا صوت منابك قد أعيها الصبر وحنّت
إلى أديم الغبراء حيث المضطرب^(٥) واسع ، ومجال الحرية فسيح ، وتمسحا

(١) القويتين (٢) بوق (٣) الهلال (٤) يقصدون (٥) المجال

بسيده كأنما يرفوه^(١) من رعبه ، وكأن لسان حاله يقول : امتط متنى
وأئنلى ظهر الثرى ثم دع أى إنسان يلحق لى بغير !
وما صدق الأخرس لو حم^(٢) له أن ينطق فعلى قيد رثوة^(٣) واحدة
منه وقفت ساقان طالما لحقتا بمثار نفعه^(٤) .

لم يمهل الأشرار غنيهم حتى تصل إلى أيديهم ، وهى لا بد واصله
بعد بضع ثوان ، بل رنى أحدهم يحتضن الماء على برودته ويقبض على
حافة المعبر محاولا الوثوب فوقه . ولكن يد مرجان حالت دون مراده
إذ عاجلته بضربة من العصا على أم ناصيته فهشمتها تهشما وسرعان
ما ضمه جوف الماء الذى لا يرحم

وعندئذ صاح رفقاؤه صيحة الوعيد وهزوا أذرعا تشناق لتمزيقه .
وصل المركب أخيرا بحمولته ووثب مرجان ولكن لا إلى الشاطيء بل
إلى أحضان بعض الشياطين المردة وإن شئت فإلى حضن الموت !
وقبضت يد فولاذية على معصم الشيخ الذى لم تبد عليه أية علامة
للمقاومة بل اكتفى بترديده بين وقت وآخر : وماذا تريدون من رجل
ضعيف مثلى لا يملك لكم نفعا ولا ضرا . ؟

« حقيقة إنك لا تملك الآن لنا ضرا ولكنك تستطيع أن تنفعنا »
انبعثت هذه الكلمات من فم رجل تلوح عليه أمارات السيطرة والنفوذ
وتبدو مخابيل^(٥) القيادة .

(١) يسكنه (٢) قدر (٣) بعد خطوة (٤) متطاير غباره (٥) أمارات

شعر الشيخ بشيء قليل من الاطمئنان على حياته وقال : ولكن هل لسيدي أن ينبتي كيف يمكنني نفعه ؟ فأجابه الآخر بصوت هادي رزين : بتسليمك كل مامعك من أوراق . فقال ولكن إذا تبين أنني خلو مما ترومون فهل تطلقون سراحي وسراح خادمي ؟ فأجاب الآخر : عندئذ ننظر في الأمر .

وإشارة إلى القائد وإلى اثنين من جنوده جعلتهم يقبضون على أسيرهم ويفتشونه تفتيشا دقيقا أسفر عن خيبة موحمة ، ودهشة مروعة . وكان الأمر لم يشق بتابعيه فتقدم وأخذ بنفسه بعيد التفتيش قالبا الجيوب رأسا على عقب وممزقا الثياب في عدة مواطن ولم يشعر تعبته إلا ما أثر تعب الآخرين قبله .

وحينئذ سمع صوت خلفه يقول : وهل قتشت خادمه ؟ لعل ما ينبغي معه، وإن لم يكن معه فما أحسب إلا أن ثالثهما (يعني ميسى) قد ابتلعه . فأمر الرئيس ثلثة من أعوانه بإحضار الخادم والتنقيب عن تلك الأوراق فتفرقوا في كل ناحية يفرّون عنه^(١) ولسكنهم لم يجدوا له أثرا في أى مكان كأن الأرض انشقت وابتلعه أو كأنه صعد إلى السماء بسلم . وبعد لأي مارجعوا بخفي حنين غضايا أسفين وقالوا « لقد فر » .

وحينئذ صاح الوكيل : وكيف وقد تركته في مخالب ثلاثة من رجالنا الغلاظ الأشداء ؟ وما توقعت أن ينضو^(٢) أسفار وفل^(٣) زوابع وأمطار

(١) يبحثون عنه (٢) النضو المهزول (٣) الفل المهزوم

بل جريماً نَهَكَه العراك يتغلب على تلك السواعد الفتية ويستطيع الفرار
بحياته اللهم إلا إذا كانوا أطفالاً فالويل لهم مني !

وهنا تقدم أحد المبعوثين قليلاً وقال : هوّن عليك أيها الوكيل
فلن يلحقهم منك ولا مني ويل .

فغضب المخاطب غضبة المجنون وقال : وماذا تعنى أيها الأبله ؟
فقال أعنى أنهم أبعد من أن تصل إليهم أيدينا بعقاب فان « دعبسا »
دَرَج^(١) في كفن من الماء كما درج أخوه « سعيد » منذ برهة كأنما
كانا على ميعاد وأما « الباب » فقد أدركناه وهو يلفظ النفس الأخير
والدم يندم^(٢) من جنبه وأنفه ، وأما « وحش » فلا نعلم من أمره شيئاً ،
ولعله لحق بزميله أو لعله في أثر ذلك العبد يطارده

ثم سمع صوت من خلفهم كأنه صوت سقوط جسم فنظر الكل
وإذا « بوحش » ممدد على الأرض تفيض روحه وتتطلب من الله أن
يغفر لها ما ارتكبت من آثام !!

لفصل السابع

الأسنان الذهبية

صمت المشاهدون برهة مكتئبين لفقدان أربعة من إخوانهم الباسلين ثم سمع صوت الوكيل مرة أخرى والأسى يقطر من نبراته يقول : أيها الشجعان ، أقرأ في وجوهكم آيات الحزن لما حل بأفراد منكم ، وأسمع من أفواهكم آهات اللوعة والحسرة عليهم . وحق علينا جميعاً أن نرثي لحالهم وحال أهلهم ، ولكنكم ستكونون أشد حزنًا وأسفًا وأعظم غضبًا حين تعلمون أننا فقدنا أيضاً في هذه الليلة الحصاء^(١) غير هؤلاء الأربعة يدأباطشة وقلباً فياضاً بالحب لكم والإخلاص لمهنتكم ، وأحد وكيلى عصابتكم . وأن اليد التى غالتة^(٢) هي نفس اليد التى غالت إخوانكم الأربعة !!

وحينئذ تعالت صيحات الغضب والسخط من كل جانب وصاح الرئيس مع الصالحين : أحقُّ ما أسمع ؟ إن هذا هو العجب العاجب !

قصَّ الكومى على الحاضرين جميع ما حدث فغلت صدورهم غليان الماء فى المراجل ، وصعد الجنون إلى رؤوسهم حتى كاد يفقدها صوابها وهرول كثير منهم فى جهات مختلفة يعضون الشفاه ويشمون ريح الآبق^(٣) اللامين . وصاح الرئيس : إن هذا لأعظم مما أحتمل . آه ما أعظم اليد

التي امتدت إليه ، ولكن ما أقواها وأبطشها أيضاً !!
جرى كل هذا أمام الأسير المغلوب على أمره ، وكان القمر قد غالب
السحب حتى غلبها ، وبدأ يحفُّه الجلال ، كأنه أبي إلا أن يكون شاهداً
على ما يهضمه الليل في جوفه ، وما يرتكب تحت جناحه . وانغمرت الأرض
مرة أخرى بردائها الأبيض ، وكشف ضوء البدر عن رجل جاثٍ على
ركبتيه تحت يد قوية تكاد تضغط الحياة منه ، وبين نفر من النور
الكاسرة تنتظر الإشارة لتزيقه إرباً إرباً . يطلب الرحمة ممن لم يتذوق
لها طعماً ، فكان كمن يبغي الماء من الصخر ، أو يستنطق أبا الهول في
ذلك المهمة القفر .

ازداد الضغط على كتفه فصاح : خذوا كل ماعى من نقود وملابس
خذوا جوادى الأصيل ، فكل ذلك لكم بل^(١) ولكن أبقوا على حياتي
فان ورأى أطفالا ليس لهم سوى عائل .

فتحركت شفتا الجبل الضاغط : هذا كله حسن ولكن الذى له قيمة
كبيرة عندي إنما هو الأوراق ، فأين هي ؟ وشفع لسانه بصفعة جعلت
أذن البائس تطن طنيناً . ومكث برهة لا يحير جواباً كما أصابته غشية
ثم نبس متصوراً : إنها مع الخادم فخذوها .

فأجاب الآخر : ولكن العبد قد فرّ بها . فصاح وقد انطفاً آخر
شعاع من أملة : إذن فأجهزوا على ولا تبقوني في هذا العذاب المبرح

والأمر لله الواحد المنتقم ! ثم أغض عينيه كمن لا يستطيع رؤية
الضربة القاضية .

ورثيت في تلك اللحظة سكينتان تهبطان نحو سحره^(١) ونَحْره^(٢) ،
ولم تكن إلا طرفة عين ويسبق السيف العذل لولا أن امتدت يمين
حالت دون وقوع الجريمة .

وما كانت تلك اليد غير يد الكومي الذي لم يشأ لأمر في نفسه أن
يراق دم رفيقه في السفر مكتفياً بتجربده من أربعائة من الأصفر الرنان .
لحق الكومي برئيسه الذي كان يذرْع^(٣) الشاطئ ذاهباً وآيياً
كرجل شه^(٤) الفكر العميق ، فلما كان لصيقه صاح الرئيس : لقد خسرنا
الصفقة ، ولا أدري من المسئول عن ضياعها ، وخسرنا فوق ذلك رجلاً هو
أعز على من نفسي ، ولا أدري هل نفس ذلك الدنيوى الربوى كافية
للتكفير عن كل هذه السيئات . وإذا لم نستطع الحصول على تلك الوثائق
قريباً فعلى سممتنا العفاء^(٥) وعلى مكافأتنا ألف سلام .

فزفر الكومي قائلاً : إن الأمر أهون مما تتصور ، ولولا أن القضاء
شا كسنا في هذه الليلة العائرة لكانت تلك الوثائق في حوزتنا الآن
ولو علمت أنها كانت في حيازة ذلك العبد الملعون لما ترددت في قتله ، فلقد
لاحت لي في الطريق عدة فرص للخلاص منه .

ولكني لم أشأ أن أقتنصها لاعتقادي أن ذلك لا يُجدينا كثيراً أما

(١) رثته (٢) منحره (٣) يقبس (٤) هزله (٥) التراب

وقد فرّ بها الآن ، وقارف^(١) ما قارف من آثام ، فذرنى وحدى أنصب
الشرك له ، وأدبر لنيل تلك الأوراق . وما دامت المصانعة لم تُنلنا ما نهوى .
فليس أمامنا إلا طريق الشدة والقتل . قسما لأخوضنّ المعركة وحدى ، فإن
انتصرت فقد كُفرت عن خطأ سابق ، وإن أخفق المسعى فليستُ جديراً
بأن أحمل لقب «الكومى» الذى حمله أعمامى ، والذى رنّ فى الآفاق رنيناً ،
وسبّر الرعب إلى الأبدان تسييراً .

فابتسم الرئيس عند ذلك ابتسام الفخور برجله ، ووضع يده على ذراع
محدثه قائلاً : إني لا أنكر بسالتك يا عيسى ، ولا أشك فى تغانيك فى خدمتك ،
وأربأ بنفسى أن نحمّلك وزراً ، أو تعزو إليك تقصيراً ، ولقد أصبحت
أعتمد عليك بعد فراق محبوبنا « بنخيت » فى البعد والقرب ، اعتماد الملاح
على نجم القطب ، وأثق بك ثقة الزيدى^(٢) بالصمصامة^(٣) ، والحارث
بالنعامة^(٤) .

والآن مارأيك فى ذلك اليهودى عباد الدينار ؟ فقال : رأيتُ أن تطلق
سراحه ، فإن ذلك خير وسيلة لتحقيق أربنا ، وإن قتله يفقدنا مساعدته لنا
ولبعض رجالنا ، فضلاً عن أنه يثير الظنون حولنا ، وحسبنا ما سلبناه إياه الليلة
وما إخاله إلا سيذوب حسرةً على فقدانه ، فإن هؤلاء المزيين حياتهم فى
مالهم ، ومثل الجنيه فى قبضة يدهم مثل العظم فى فم الكلب دون نيله
نهشُ الأعضاء .

(١) ارتكب (٢) عمرو بن معد يكرب الزيدى (٣) الصمصامة السيف

(٤) النعامة فرس للحارث بن عباد

فقال أسرع إليه إذن ، فاني أخشى أن تكون الأيدي قد اختطفت روحه
فقال مُهرعاً نحو الأسير : لقد أوصيتهم به خيراً .

وما وصل إلى مكان زملائه حتى رآهم قد أهدقوا بجسم مطروح
على الأرض يسيل الدم من شِدْقِيهِ ، فصاح : هل خالقمُ أمرى وقتلتموه ؟
فقال أحدهم بهدوء : إنا يامسيدي لم نعص لك أمراً ، وإنما استحسنّا ألا نترك
فاه مملوءاً ذهباً فاقتلعنا أسنانه ، ولو أتخفنا بها عن طيب خاطر لما امتدت
إلى فمه أصابعنا .

وبسط المتكلمُ كفه المقبوضة ، فأرى قطعاً ذهبية تتلألأ في ضوء
القمر . فلم يتمالك الكومي نفسه عندئذ من الضحك .

وكان الرئيس قد وصل ، فأخبر بالأمر ، ولكنه بدل أن يبتسم مال
نحو الطريق فجس نبضه ، ثم نهض قائلاً : لا يفوتكم قبل أن تغادروا هذا
المكان أن تواروا جثث زملائكم الذين ضحّوا بنفوسهم في سبيل الواجب .

الفصل الثامن

ميت غمر

كانت بلدة ميت غمر في الوقت الذي وقعت فيه حوادث روايتنا تختلف كل الاختلاف عن ميت غمر الحالية منظرًا وهندسة وطرقًا ومساحة وأحوالاً .

أزقةٌ طويلة ضيقة تلتوى هنا وتستقيم هناك ، وحارات ذات عِوَج وأمت^(١) تغوص القدم في أثر ربّتها وقمّاماتها^(٢) ، تَكْتِفُ^(٣) الغريب الغافل نواتي من حيطانها ونوافذها ، وبيوت عالية وأخرى غير عالية لم تعرف للاتساق معنى ولالقواعد الصحة أثراً . تنكش إلى الورااء تارة كأن بها ذعرا ، وتبرز إلى الأمام أخرى كأنها تستطلع خبراً ، وقامت معظم المباني متلاصقة على أرض ككُفّة الحابل^(٤) تعرف الآن « بوش البلد »

وما تجمعت وتلاصقت بهذا الشكل لضيق في الرقعة ، ولكن ليشدّ بعضها بعضاً حين يُدق ناقوس الخطر . وكأنما أرادت أن تتخذ من النهر جنة^(٥) لنفسها ، فارتدت حتى شغلت « قطاعاً » من الأرض قوسه ماء النهر ، وبذلك حمت مؤخرتها وجناحها الأيسر من هجمات العصابات الشقية إن عدّ ذلك حماية

(١) انخناض وارتفاع (٢) كناساتها (٣) تضرب الكتف

(٤) حباله الصائد (٥) وقاية

وقامت ترعة الصافورية ، على بعدها القليل مقام حامى الجناح الأيمن
وبقى الصدر وحده محتاجا للدفاع

هذه صورة تقريبية رسمناها للقارىء ليعرف مبلغ الذعر الذى كان
ينتاب السكان فى ذلك الحين . وفى يقينى أنها صورة معبرة عن حقيقة
الحال فى كثير من بلدان ذلك العهد المرعب

وكان يقوم على رأس كل حارة من تلك الحارات الطويلة ذات
المدخل الواحد بوابة ضخمة متينة تنبثق^(١) إلى الداخل عند كل صباح
ثم تعاود دورتها نحو الخارج بعيد حلول المساء ، درماً لكل طارق أن يلج
ومقاومة لما عسى أن يهدد السكان من خطر

ووراء ذلك الحصن كان يجلس خفير يشاركه أحياناً بعض المتطوعين
الشجعان من قاطنى الحارة . وكانت وظيفة ذلك البواب ألا يسمح لمخلوق
أيا كان أن يمر بعد الميقات المعلوم ولو كان مهدداً فى حياته أو فريسة
لمرض طارىء ، وأن ينذر السكان بنفخ بوق معلق إلى كتفه إذا ناب
خطب أو حُمّ قضاء .

كانت ميت غمر كغيرها عرضة لهجمات الأشقياء الفينة بعد الفينة^(٢)
نُبئ^(٣) للأحداث المروعة . فلقد تعالم^(٤) الكل ثروتها وطمع اللصوص
فيها فى أرضها من كنوز ، وفى جدرانها من مال مدفون .

(١) تفتح (٢) الحين بعد الحين (٣) غنيمه (٤) علم

يبد أن ماعرف عن أهلها من البسالة النادرة وحماية الدمار^(١) طالما
صد هجمات المعتدين ، ورد كيد الخائنين ، ودَسَر^(٢) أولئك السفاكين
دَسَر المسلح لقرنه الأعزل

ولكن هل آبوا من كل تلك الملاحم الدموية بدون أن يُتَلَّ^(٣)
واحد منهم للجبين ، أو يُقَطَّع من ثان الوتين^(٤) ، أو يتزائل عضو من
الأعضاء ، أو يُنْكَب برىء من الأبرياء ، أو تساق ماشيتهم إلى الفضاء ،
أو يسلب ثرىء من الأثرياء ؟

اللهم إن التاريخ والعدل يقضيان علينا أن نجيب « لا » فلكم أسفرت
المعارك عن هام^(٥) متطابرة ، وأجسام مُخْتَرَمَة^(٦) ، وأشلاء^(٧) مكْدَسَة
وأرواح سائلة ، ودماء متلاطمة

ولكن هل يغلو شىء في سبيل الذب عن الشرف أو يعزّ نفيس
دون صون مساقط الروس

إيه ميت غمر العزيزة ! كم لك في الماضي البعيد من يوم مشهود
تتشعر من هوله الجلود ، وكم لك إبّان النهضة الوطنية من موقف مجيد
سَطَّر لك في صحائف الخلود !

وأيّن كانت عيون رجال الشرطة فلم تبصر تلك الجرائم ترتكب

(١) ما يلزمك حمايت (٢) دفع (٣) بصرع (٤) عرق القلب
إذا انقطع مات صاحبه (٥) روس (٦) مقطعة (٧) جمع شلوة
وهو المضروب

ولم تحط الأمر قبل وقوعه ، بل تركت حظيرة الأمن تُعلَى ويعيث
بها العاثون ؟

وأين كانت أيدي القضاء ملاذ المستجير وقبلة المظلوم فلم تمتدّ للقبض
على العتاة الفجرة وتغذف بهم في أعماق السجون ؟
وأين كانت القوانين الصارمة فتثأراً لما أزهق من الأرواح وتأخذ
من الظالم للظلم ؟

إنا لانجشم مرقمنا^(١) . ثبوت الرد على تلك الأسئلة المخرجة ، فالجواب
عنها مفصل في صفحة التاريخ العادل الذي لا يحابي حاكماً ، ولا يرحم ظالماً
فليطالعها من شاء .

كانت ميت غمر كما سطرنا مطمح أنظار الصوص الذين ضاقت
في وجوههم سبل الكسب الحلال ، فعمدوا إلى نيل المال بالقوة من
طرقه المحرمة .

ولم انفردت دون غيرها بتوالي الغارات عليها ؟ لأن الطريق إلى
اختراقها أيسر ؟ أم لأن سكانها أقل وأجبن ؟ أم لأن السلاح فيها معدوم
أو مفلول^(٢) ؟

اللهم إن شيئاً من ذلك لم يكن ، وإنما المال هو الذي هدّها
بالدمار ، كقوة الأخرق قد تجره إلى الخسار .

ومن أين أتى لها ذلك المال الوفير ياترى وقد ضرب الفقر بجراحه على

(١) لا تكلف قلنا (٢) مكسور

كثير من البلدان ، ومشت المتربة^(١) في آلاف من الأزقة والشوارع
وطوق العوز أعناق الزارع والتاجر والصانع ؟

إن الجواب على ذلك هين ، على كل من ألمَّ بطرف من تاريخ
ذلك البلد العجيب ، وإن يَرَّاعتنا لا تتردد في تلخيصه في كلمتين :
« من الربا » !

حقا لقد ركب البلد متن الشطط في ذلك المضمار ، وتملك حبُّ
المال الكبير والصغير ، والحافى والناعل ، حتى خيف أن يعبدوه من دون
الله في ذلك الزمان .

ففي البيت والحانوت والشارع ، وفي اليقظة وعند الهجعة ، وفي كل
مناسبة وعند كل ملعة ، لا يستطيع السامع أن يحول دون سمعه وطرق هذه
الكلمات : لقد أخرجت المائة مائة وعشرين ، وقبضت المائة مائة وثلاثين
ورهنّت كذا على خمسين ، وتنازلت عن كذا رافة بالمساكين ، وأقرضت
الجنيه في نظير قرش في اليوم إلى غير ذلك مما ملئت به أفواههم ، وشغفنت
به قلوبهم !

كان مصدرُ ذلك الشر كله رجلا في سحنة^(٢) الشيطان ، وجسم
عجيب البنيان ، يسمى « الغريب » . وما أدري هل أسرة الغريب الحالية
تمتُ إليه بصلة . أطفاه الربا ، واستولى على لبه الشره والحرص ، فجمع
مالا طائلا ، وحصل دنيا عريضة

(١) الفقر (٢) هيئة

وسرت العدوى إلى الجنس الرقيق ، وإن كنت لا أوافق في إطلاق ذلك الوصف على من نحن بصدد الكتابة عنهم ، فقد كنّ خشنيات في ملابسهنّ ومعاملاتهنّ المالية ، وإن كنّ أكثر من الرجال على معاملتهن صبراً ، وأقلّ في الأرباح شططا .

وكأنه قد كُتب على كل السكان أن يعيشوا من ذلك الطريق غير المشروع اللهم إلا أفذاذاً ^(١) لا يخلو منهم زمان ولا مكان قد نفروا من كل محذور ، وتذمّموا ^(٢) من ربح غير مأجور . وما كانوا إلا نفوساً طاهرة رأوا الفتنة يندلع لسانها بين القوم اندلاع النار في يابس العرفج ^(٣) ، ولحوا آية الله توشك أن تظهر في عباده الفاسقين والعادلين — والفتنة إذا حلت لا تصيب الذين ظلّوها خاصّة — فرفعوا أكف الضراعة إلى المولى أن يمهّل العصاة لهم عن غيهم يرجعون ، وإلى منزل آياته يهتدون

وأجاب الله دعواتهم الخالصة ، وأخر عنهم العذاب إلى أمة ^(٤) معدودة فأملّى ^(٥) لهم عشر سنين ، ولكن لم يرتدعوا ، فسلط عليهم من المياه المحيطة بهم طوفانا كاد يجرّفهم هم وأموالهم . ثم ماداهم ^(٦) عشر سنين آخر ، فما انزجروا ومضوا في طغيانهم يعمهون ، فحقّت عليهم كلمة العذاب ، فرموا بالصواعق وأصلوا نيراناً حامية أكلت النسل والحرث ، وأتت على كل صدين وغث .

(١) أفراداً (٢) استكفروا (٣) نوع من الشوك (٤) حين
(٥) أمهلهم (٦) أملى لهم

وقع ذلك الانتقام الإلهي في يوم خميس من سنة عشرين وثلثمائة وألف من الهجرة ، أى بعد عشرين سنة من وقوع الحوادث التى نحاول وصفها للقارى الكريم . ولولا ما بين العصرين من الأسباب الوثيقة لما استطردنا إلى ذلك الحريق الهائل « حريق ميت غمر » فإنه بعيد عن غرضنا .

وكانت تلك الحادثة نعمة للبلد فى ثوب نقمة ، فقد أدرجت فى كفن من اللمب أفراداً تملك منهم الشيطان ، ويؤس من صلاحهم ، وطهرت نفوساً مما علق بها من الأرجاس ^(١) ، ونفرتهم من وساوس الخناس ^(٢) الذى يوسوس فى صدور الناس ، وقوضت أبنية هى أشبه بالقبور منها بالدور ، وخلقت من الأزقة والحارات طرقاً فساحاً ، وأوجدت ليد التنظيم مجالاً .

وقصارى القول أنها أنشأت البلد بإنشاء جديداً ، وجعلت له مستقبلاً بين المدن سعيداً .

الفصل التاسع

وصية المحتضرة

في حارة من تلك الحارات الملتوية التي ألهمتها النار بعد عشرين سنة فيما ألهمت تعرف بحارة « الشيخ مهني » ، وعند رأس أول عطفة على يمين الداخل قام بيت من ثلاث طبقات أحمر اللون قد أكلت عناصر الطبيعة من طلائه ، وعُيِّنت يد البلي بيمض حيطانه فتركت شقوقا هنا وهناك تحكي الثعابين ، وثقوبا كبيرة وصغيرة عشتت فيها العصافير .

يشعر الداخل بعد أن يجاوز عقبة الباب بأنه داخل في قبر مظلم لا بيت يسكن ، ويصعد إلى منخريه رائحة تشبه ما ينبعث من الاصطبلات . ويلاحظ على يساره حجرة صغيرة يلوح عليها أنها حجرة خادم بها مقعد خشبي طويل يصلح للنوم والجلوس عليه فروة خروف ، فرشت أرضها بالحصير ، وفي زاوية من زواياها كرسي أفقدته الأيام إحدى أرجله ، يحمل بعض فنجانات وأطباق ، وتحتة بلبلة^(١) صغيرة وأخرى كبيرة وغير ذلك .

يلمح عابر الداهليز أمامه قاعة مظلمة لا منفذ بها غير الباب لا يشك

(١) كوز فيه قناة إلى جنب رأسه (بكرج)

في أنها إصطبل للخيول ، وبين هذه وتلك صعد سلم خشبي ذو درجات ضيقة تحمل الصاعد إلى ممر صغير يصل بحجرتين كبيرتين نوعاً ما ، ثم يُرى به طبقة أخرى لا تختلف عن سابقتها كثيراً من نظراً وترتيباً . وأمام البيت شجرة توت ضخمة قد مدت أغصانها إلى نوافذ البيت .

ربّ هذا البيت رجل سألخ الحسنيين من عمره، ولكن لم ينل منه كثر القَرَتَيْنِ ^(١) كثيراً، أبدَحَ ^(٢) القامة، أُمْلَجَ ^(٣) البشرة، ليس بالبدن ولا الهزيل، مخروط الوجه واللحية ^(٤)، مقصوص الشارب، مقرون الحاجبين غزيرهما، جاحِظ العينين واسمعهما، عَبَثَ البلى بأسنانه فاستبدل بها أسناناً ذهبية .

وكان مُعَيَّلاً رزقه الله ستة من الذكور لا يزيد عمر أكبرهم على اثنتي عشرة سنة ، وبناتنا ناهزت الثامنة عشرة .

يلوح على محيّا أنه دائم التفتك كبير والحساب كثير الوسواس والبلايل، وهو على إمساك به وحرص على الدنيا كثير الحدب ^(٥) على أولاده عظيم المحبة لهم، وإن كان بالفتاة أكثر ولوعاً وعليها أكثر إشفاقاً .

كان هذا الرجل في أول أمره « خياطاً بلدياً » يأكل من عرق جبينه ، ويكدح لإمساك حوَّباته ^(٦) . تزوج بأُم فتاته وعاش معها عيشة

(١) الغداة والعشي (٢) طويل (٣) أسمر (٤) في وجهه طول وفي لحيته قلة (٥) العطف (٦) نفسه

ضَنَكاً ولكنها لا تعتبر غير سعيدة ، ثم فارقت تلك الزوجة الفراق الذى لا لقاء بعده بعد أسابيع قليلة من وضعها .

لما علمت المسكينة أنها قد أنافت على الرحيل من هذا الوجود دعت إلى جانبها وقالت : لم يبق يا محمد إلا دقائق وتصعد روحى إلى خالقها ، وإني أوصيك بوحيدتنا ، فلا تهملها بل اجتهد أن تكون حياتها أسعد من حياة أمها ، ثم أمسكت ذراعه بيدها اليسرى ومدت الأخرى تحت فراشها فانزعرت صُرَّة بيضاء ، ثم نهضت متحاملة على ذراع بعلمها وحدقت إليه ببصرها وقالت بصوت المحتضر « خذ يا محمد » ومدت إليه يداً ترتعش .

فمرا الرجل نوعٌ من الدهول وأبدى شيئاً من التردد . فقالت : خذها فهي نقود . . . ثلثمائة جنيه ورثتها عن أبى . . . ولم يعلم أحد بمخبئتها إلى الآن . . . ادّخرتها لوقت الحاجة . . . فسأخى يا محمد إذا كنت دَسَّيتك ^(١) أمرها . . . استعن ببعضها في قضاء لُبانتك ^(٢) . . . وجمل بنيتى المسكينة ببعضها . . .

ثم اعتبرتها قلة ^(٣) الموت فصاحت : طى بعزيرتى . . . لأتزوّد منها بنظرة . . . آه . . . ما أصعب الفراق ! . . .

فأسرع الزوج المصعوق إلى حيث الوليدة وكانت بمهدا تصيح

(١) كتمتك (٢) حاجتك (٤) رتشة

وتخبط يديها ورجليها ، فحملها ، وما وصل فراش المحتضرة حتى كانت قد فارقت الحياة .

مضت الدَّوْرَات تَتْرَى ، وأخذ شأن ذلك النَّاصِح ^(١) الحامل بِنْبِهِ فصافحه الجَدَّ ، وأقبلت الدنيا عليه ، وناهيكَ بها إذا أقبلت ، وغامر بما عنده في سوق القطن فخرج منها بصَفْقَةٍ رابحة . وكانت تلك المغامرة الأولى والآخرة من نوعها ، فانه لم يجرؤ أن يخاطر بمكسبه بل عضَّ عليه بالناجذ وعَبِدَ ^(٢) من مهنته فطلقها ، ورسم له طريقاً آخر في الحياة .

رأى أن يَبْنِي على أخت زوجته ففعل ، قافياً أثر حياته الأولى خطوة خطوة كأن الفقر لا يزال حليفه ، فلم يغير من مسكنه ولا من طرق معيشته بل بالعكس زاد شرههُ وَضَعَن ^(٣) إلى الدنيا كل الضَّغْن . ولم يبد في مظاهر حياته أثرٌ من نعم الله المَغْدَقَةِ اللهم إلا في شرائه قَيْنَا ^(٤) أخى الدهر على سيده فاضطرَّ إلى بيعه .

دخل عثمان وولده مرجان في خدمة مالكه الجديد فقام بواجبه خير قيام ، وأظهر من ضروب الاخلاص والأمانة والوفاء والجرأة ما حَبَّبَهُ إلى أفراد الأسرة جميعاً ، وجعل له منزلة خاصة لدى مولاه . ولم تشأ المقادير أن تمهله في حياته الجديدة أكثر من عشر سنين

(١) الحياط (٢) أنف (٣) مال (٤) عبدا

فساقت له من انزع حياته من بين جنبه لثأر قديم ودمن^(١) كين
فأكبر الكل ميثته الشفيعه ورقوا لحال ولده اللطيم^(٢) .
قام مرجان مقام أبيه ونجّلت فيه خلاله المحموده ، ولم تحن فرصة
لم يبرهن فيها على مقدار محبته لأولياء نعمته . فكان حقاً خير خلف
لخير صلف .

وقف عل قبر أبيه بعد أن وُورى التراب ، والدمع من عينيه ينهمل
أنهمال العارض السّجّم^(٣) ، وبكل عضو من أعضائه رعشة الحزن
والغضب صائحاً : أيها الوالد الكريم ! سمّ في أمان وراحة ، وتمتع برضوان
الله المقيم ، ولا تحسب أن دمك الطاهر طلّ هدّراً . فبحقّ الجَدَث^(٤)
الذي محتويك لا نتقمّن لك من القاتل الجرّيم^(٥) ، ولأشربنّ من دمه
حيّاً ، ولأرسلنه مثلاً يتجاو به الخاققان : لقد انتقم مرجان أثماناً !
ثم ارتنى على القبر بضع دقائق يبّله بالمبرّات ، ويمسحه بالقُبُلّات
ثم نهض فجأة ورفع كفيه إلى السماء وقال : لقد أقسمت . اللهم فاشهد !
وانصرف .

(١) حقد (٢) فاقد أبويه (٣) السحاب السائل (٤) القبر
(٥) المجرم

الفصل العاشر

خبرة الأثم

سُبت فاطمة فسُبت معها ثروة أبيها ، ولم تشارف الثامنة عشرة حتى نيفت تلك الثروة على عشرين ألف جنيه .

ثروة واسعة سريعة في ذلك الدهر الغابر لا يحلم بها إلا كل من واثته المقادير^(١) وابتسم له ثغر الزمان . وحسده عليها الكثيرون من معاصريه وذوى مهنته القديمة .

ولكن هل غبطه على ذلك الغنى الواسع نفس ورعة تقية قد عصمها الدين ، وآثرت ثواب الآجلة على زخرف العاجلة ؟

ولم ينفر أولئك القانعون من ذلك المال وهو زينة الحياة الدنيا ومفرج الكروب ، ومنبع السطوة والنفوذ ، وداعية الاحترام ؟

ولم يجانبون صاحبه مجانبة الإبل الجرباء ؟ أغيرة منه ومن ماله ؟ أم توقياً من بطشه وسلطانه ؟ إنهم لم يفعلوا ما فعلوا إلا احتقاراً لتلك الثروة وصاحبها ، تلك الثروة التي جمعت من اليأس والمحروم والمضطّر والمخرج ، ورَبَّتْ على عجل لامن طريقها المشروع بل من طريق الربا والسُّخْتِ^(٢) واستغلال مآزق الشدة ، وعوارض العوز .

إيه أيها الهم^(١) لقد ملكك الشيطان ، ولجّ بك الطغيان ،
وطوّحت بك المطامع في كل مكان ، فهل نبوء إلا بالوبال والخسران ؟
إيه أيتها الزوجة البالية ! هل بلغك وأنت في حفرتك كيف حال
حال زوجك من مَثرَبة إلى سعة ، ومن خمول إلى نباهة ، وكيف تبدّلت
خلاله من رضا وقناعة ، إلى حرص وشراسة ، ومن أمن ودعة ، إلى
خوف وقلق ، ومن راحة ضمير ، إلى حساب دائم عسير ؟
ألا فاعلمى إن لم تكونى علمت أن هذا شأن أهل هذه الدار ، فهل له
مثيل حيث تقيمين ؟

لا تجزعى أيتها الروح في مسبّحك فما أردت إلا الخير ، وما رميت
إذ رميت بتلك الصرة إلى أحضان زوجك ، ولكن الله رمى !
ولو كشف لك أن ما قدمته في ساعة حشرجتك ، عند آخر عهدك
بالدنيا وأول عهدك بالآخرة ، سيمحول دما وبوارا ، بعد أن كان ذهباً
نضارا ، لفضلت أن تحمله معك إلى مثواك^(٢) الأخير حيث لا تصل
إليه يد ، ولا يعرف ما آله إنسان ! !

لقد كانت الجنبيات التى قدمتها بذرّ السوء ، وخميرة الإثم ، وجُرثومة
العدوان ، وشجرة الطمع والشره ، ومبعث الخوف لابتلك وشقيقتك ،
ومدعاة الخطر على حليلك . فهل هذا ما كنت تتوقعين ، وإليه ترمين ؟

لا . لا . يا آمنة . لا يد لك في هذا الشأن : فإن ما قدر كان ،
فامرحي أنت في دار الخلد ، وري نتيجة أعمالك الصالحة . وقصوى ما يراد
منك أن تبتهلي إلى ربك أن يهدي زوجك سواء السبيل ، وأن يعمله
ربنا يكفر عن آثامه ويهود^(١) إليه . وحينئذ تخرق روحه الستار خالصة
صافية ، وتلحق بروحك النقية الطاهرة .

نال ذلك الأسمى الشهرة ولكن في أسواق المُرَبِّين ، وبُسِطت كفه
بالنقود لكل مُريد إلا ذوى المسغبة الطاوين^(٢) ، وفُتِّح بابُه لكل
طارق إلا الشحاذين والسائلين ، وازدادت خبرته رغم جهله بحساب
العشرات والمئين .

كنت لا ترى غنياً محرّجاً إلا وله عليه يد ، ولا تاجرأ هددته إلا بفلاس
إلا ستوسلا إليه أن يُقرضه ليدفع عن نفسه سوء الجد ، ولا صانعاً ولا فلاحاً
إلا ما مسحاً يده باللثَمَات رجاء أن يقبل رهينة من عُدَد أو أرضٍ على مبلغ
كذا من المال .

وكان الرجل ذا كف ندية ، ونفس سخية ، لا يرد محتاجاً ولا ينجيب
سؤل سائل على شريطة أن يخضع صاغراً لإرادته ، ويقبل عن طيب
خاطر باهظ نسبته .

وهكذا الدنيا تقبل لنطفي ، وتفرّ لتبغى ، وتعطى قوماً لتسلب
آخرين ، وتحلو في أفواه الطامعين تمرّ في أفواه اليائسين ؟

(١) يتوب (٢) المسغبة الجوع ، والطاوى الجائع

ولكن على هَيْدَتِكَ^(١) أيها الشاطِءُ في طلبه ؛ المستغلُّ ضعف غيره ،
فما أخذت على الدَّوَّارِ^(٢) عهداً ألا يجردك من غناك ، ولا على الغد
الحَوْلُ ألا يفجَمك في دنياك !

زادت ثروة الخياط فازداد على طول الأيام غُرماًؤه^(٣) ، وانتشرت
نقوده فانتشرت من أجلها أعداؤه ، وكثرت رَحْلانته وراء المال فبيَّتت
له الأسواء ، وعمَّت رفاثته^(٤) وقضاياه حتى نَقَمَ^(٥) منه الأقرباء والأصدقاء ،
وودَّ في بعض الأحياء لو يفتدى نفسه بما ملكت يداه ، ويشترى روحه
بماله عند سواه .

فلعنة الله على الطالب والطالب ، إن كان جمع المال يؤدي إلى
سوء القلب !!



(١) على رسلك (٢) الدهر (٣) مدينه (٤) جمع ربيعة
وهي الشكوى (٥) عاب وانكر

الفصل الحادي عشر

محاربة فرس

تبدى الفجر في جنبات الصبح، واستعرت^(١) الدبكة، وشنيفُ
البرد لم يزل كما كان عامة الليلة، والخفير منزوٍ في ركنه مستغشٍ^(٢) بثيابه
يبسخ^(٣) في نومه ويحلم في اللصوص وسطوهم ومحالمهم ومكرهم، وإذا
بحركة غير عادية بالقرب من الموابية، تلتها هزات شديدة سرت في كل
أجزائها أيقظت الحالم من حلمه المزعج .

هب الخفير مذعوراً، يفرُّك عينين قد أرثق النومُ فيهما^(٤) ويتلمس
عصاه وبوقه، وصاح : من الباب ؟

ولما لم يتلق جواباً ازداد ريبه ، وأضعف فرقه^(٥) ، وصاح مرة
أخرى : من هناك ؟ أجب ، وإلا فانطلق إلى حيث أتيت . إن الصبح
قريب ، ولا داعي لإقلاق الناس من مضاجعهم .

وما أتم كلمته حتى سمع الباب يُدفع بشدة عدة دفعات متتالية ، كأنما
أبى الهاجمون إلا تهشيم أضلاعه ، وميز وقع سنابك .

(١) صاحت في السحر (٢) منغط بها (٣) يغط (٤) خالطهما

(٥) ازداد خوفه

فرغ البوق إلى فيه ، فنفخ فيه نفخات طويلة اختلطت بصهيل
فرس قلبي .

هب السكان من فرشهم والذعر مطوقهم يستفهمون ما الخبر ، وقد
حمل كل منهم ما وصلت إليه يده من آلات الدفاع من ساطور وسكين
وغداة وسيف إلى أعواد حديدية وعصى غليظة النخ ، واندفعوا نحو
البوابة اندفاع السهم إلى الرمية صائحين : ماذا عرا يا حمودة ؟ فقال بصوت
يشف عما لم بصاحبه : لصوص خلف البوابة !

فصاحوا جميعاً بصوت المستنكر للخبر : لصوص في هذا الوقت ؟
ألم يخشوا أن يكشف ضوء الصبح عن سحتاتهم ومعارفهم ؟
وسمع صوت شاب متحمس يقول : هذا لا يعنيننا كثيراً فلنستعد
لملاقاة هؤلاء المهوسين على كل حال ، افتح البوابة يا حمودة !
وكان هذا الاقتراح لم يصادف رغبة في قلوب المختوشين (١) ،
فترددوا برهة فيما ينهجون .

ونظر البواب من وجه لوجه ، شأن المتحير فيما يفعل . فصاح الشاب
عندئذ بصوت المدفع « جبّاء » ... دعوني وحدي أقابل هؤلاء الهاجين .
وقرن عزيمته بحركة هامًا بفتح الحصن . ولكن السامعين المعجبين بشهامة
ذلك المتكلم لم يلقطوا منه توبيخه بل لفظوا حماسته فصاحوا في صوت
واحد : إنا معك فألى الأمام

(١) المجتمعين

شدَّ الجميعُ حذافيرَهم^(١) للنَّزالِ والطَّمانِ ، ودارت البوابة على عَقِبِها
مسمعةً أنينَ مريضٍ هزِيلٍ .

وقبل أن يتبينوا مريضَ أعدائهم وقوتهم فوجئوا بجسمٍ يثب في الهواء
فوق رؤوسهم ، طارحاً في وثبته خمسة من رجالهم إلى الأرض .

وما كان أشدَّ ذهولهم عند هذه المفاجأة غير المنتظرة فقد لبثوا برهة
فاغرى الأفواه وقد قيدهم الدهش في أمكنتهم

وسُمِعَ قائدهم يقهقه قهقهة عالية ، وسرعان مامرتْ عدواه إليهم
فتعالت الضحكات من كل جانب ، ثم تقدم الفتي الشجاع إلى الخفير
الذاهل ، وأمسك بذراعه الذي لم تفارقه الرَّعشة منذ يقظته وقال : كَفَيْكَ^(٢)
ياحمودة أن أيقظت الحارة بأجمعها هذه الليلة ، من حُلومنا مَها ، وعَجَّأت
السكان جميعاً لمحاربة فرس . فما أشجعك وأنفذ بصرك ، فكُن أكثر حزمًا
في أوقات أخرى ، ثم تركه .

همَّ المحاربون بالانحدار إلى منازلهم وإذا بواعيَّات^(٣) عالية تشق
أجواز الفضاء ، وترسل الرعب إلى الأبدان ، فهزول الكل نحو مبعتها .
وبنظرة واحدة إلى جواد واقف أمام بيت الفتي يضرب الباب برأسه
وينسكتُ الأرض بسنابكه ، وأخرى إلى نوافذ ذلك البيت حيث أطلت
امراتان تصرخان ، أدركوا أى خطب عرا . وكان حقا عليهم أن يدركوا
ذلك قبل هذه الآونة ، لولا ما أصابهم من الدهشة عند انفراج البوابة .

(١) تهيئوا (٢) حسبك (٣) صرخات

وكانت تلك الصيحات المتتابعة التي تخللها «ازوجى»... «أبى»...
كافية لا يقاط من لم توقفهم نفخات البوق وقهقهات الضاحكين ، فأمّ البعض
بيت الفقى ، وأطلّ البعض من النوافذ يستنشئون^(١) الأخبار
وإن هو إلا بعض ساعة حتى كانت الحارة وما جاورها فى هرج
ومرج . وانقسم الناس طوائف فكان منهم الشامت والمسرور والرأى
والحزين . هذا يقول : ذلك ذنب فلان ، وإنه لانتقام سريع . وذلك يصيح :
دع الأرض تطهر من عبدة الدراهم . وآخر يُحاج : وما ذنب أسرته الطيبة
القلوب وأولاده الصغار ؟

بينما السكان على هذه الحالة من أخذ ورد ، وإنكار وتصديق
وحدس وتسكن إذ أقبلت طائفة ممن كانوا نفروا خيفاً إلى البوابة ، ثم
تسلّوا إلى الطريق العام يتنحّسون^(٢) الخبر ، وفى وسطهم مرجان بحالة
مخيفة محزنة ، يحمل سيده على كاهله .

فصاح المستقبلون هل مات يامرجان ؟ ولكن مرجانا لم ينبس ببنت
شفة ، بل استمر فى سيره كئيباً حتى دخل الدّهايز ، حيث تلقفت حملاً
أذرع غضة ناعمة ولكن ليست بأكثر شفقة من ذراعى الخادم ، وتلقاه
صدران متلهفان لضمه هما صدرا الابنة والزوجة .

وكان الدهليز قد غصّ بكثير من ذوى النفوس الطامعة التي لا يهتمها
تقديم المعونة فى مثل هذه الأحوال ، بل الإيلام بحقيقة الأمر .

وما خَلَصَ مرجان من عبثه حتى دار على عقبه وخاطب المجتمعين
بصوت متعثر: أرجوكم أن تتركونا وحدنا قليلا ، فان سيدى أحوج ما يكون
للهدوء والراحة ، وليس عليه من خطر .

تسلَّل الناس من ذلك المأزق كما دخلوا ، وهم ما بين دهش لجراءة
الخدام ، ومعجب بحضور ذهنه وشفقته . ومتألم لحالة الأم وولدها ، تلك
الحالة التي تذيب القواد وتهز الجاد .

تسلَّل الناس إلا واحداً وقف برهة متردداً محدقاً في وجه الخادم كأنما
يريد أن يقرأ أمراً في تلك الصفحة السوداء ، ثم انسلَّ مع المسلمين ملقياً
وراءه بنظرة عجلَى نحو شجرة كبيرة متهدِّلة الأغصان .

وحدث من لم يشكَّ في روايته أنه رأى ذلك الغريب مرة أخرى
في أصيل ذلك اليوم يحدث طفلاً بجوار تلك الشجرة ، وأنه رأى
الطفل يهرول نحو بيته صارخاً وباكياً ، وأن الغريب حينئذ اختفى كما بدا
بسرعة البرق .

الفصل الثاني عشر

ملك الرحمة

انعد الآن إلى شاطئ، التربة حيث دارت المعركة الدموية بين
مرجان وأقرانه ، وحيث تركنا شيخنا بين ميت وحي
قبل أن تنال قدمُ مرجان ظهر الشاطئ، وجد نفسه كما ذكرنا في
أحضان ثلاثة أعداء الداء لا يقوى على مغالبتهم معا ، ولكنه مع ذلك
قاوم قليلا ، مبعدا المسافة بين اللصوص وأصدقائهم ، ورأى أن يلجأ إلى
عقله لالتماس طريق للخلاص . وقرّر فكره على أن يتظاهر بالضعف
والاستسلام ففعل ، وأظهر أنه تحت أوامر اللصوص .
غير أن رجال الليل لم يأمنوا خدعته ، فلم يُسلّسوا له القياد كله ، بل
اكتنفه اثنان منهم قابضين على ذراعيه يمدّين من صلب ، وسار الثالث
أمامهما على بعد خطوات .

لم يتوقع الأشقياء أن يجدوا فيه ضراً غاماً يتحفر للوثوب ، ولا خبئاً محتملاً
يوقد زنده ، ليخلص جلدّه ، بل اعتقدوا أن شصّهم^(١) قنص سمكة غير
مقاومة . ولكنهم كانوا في ذلك جد مخطئين ، إذ بدفعة خلفية شيطانية
تمسك الأسير من الألفلات من قبضة عدويه اللذين تعثرا في لباسهما ،
وكادا يهويان إلى الأرض .

(١) انشص حديدة عققاء يصاد بها السمك

و بسرعة عجيبة التقط عصا كانت بيد أحدهما ، وضربه بها ضربة مميتة
رمت به إلى أحضان المياه . وقبل أن يرفع العصا مرة أخرى هجم عليه الآخر
بسكين ذات حدين قاتلين ، وتبعه اللص الثالث ولكن بلا سلاح ظاهر
هنا حدثت مقاومة عنيفة من جانب مرجان الذي رأى حياته
في خطر أى خطر تمكن في أثنائها من تخلص السكين من يد خصمه
وإغمارها في كبده

وما سقط الجريح إلى الأرض حتى دبّ الذعر والذهول معاً إلى ثالث
الثلاثة ، ووجد مرجان حينئذ الإفلات سهلاً فأفلات . ولكن خصمه
اقتصره ^(١) صائحاً صيحة الليث الغضبان .

شعر مرجان بخطر ذلك الإنذار ، ففكر على قافيه كربة عنترية
مزقت أحشائه ، وعلت السكين من دمه ، ثم انساب بين المزارع
قضى مرجان المزيغ الأخير من الليل مُتَلَبِّدًا ^(٢) بغصن شجرة تلبد
الطير ، ومستتراً استتار القرد عن أعين الرقباء . ولطالما وضع كفه على
صدره حينما أحس باللصوص حول الشجرة

لم يجسر أن يغادر مخبأه حتى حَفَزَ ^(٣) النهارُ الليل ، وأطلت مقلة
المهابة ، وهب الزراع يقصدون مزارعهم ، ويتفقدون ما صنعتهم عوامل الطبيعة
الثائرة بشرات جهودهم ومحصول غرسهم

وقد كان مخبؤه على مرأى ومسمع من اللصوص ، ولولا أن أعمامهم

(١) تبعه (٢) جاثما عليه (٣) ساقه

القدر وأصمهم لاهتدوا إليه ، ولكانت روحه في عالم آخر ، فتمكن من سماع معظم ما دار بين الرئيس والوكيل بشأن الأسير ، ومُرَى ^(١) عنه بعض الهم حينما سمع أنهما عدلا عن قتله .

انحدر مرجان من عشه بحذر ، وأخذ بعض الخُطَى إلى طريق الترعَة وما هي إلا جولة نظري فيما يحيط به حتى وقف مأخوذاً مسحوراً .

هناك على بعد عشرين قدماً من موضعه ، وفي ظل دَوْحَة ، رأى صيده مطروحاً ، وفوق رأسه جسم امرأة منحنية ، وفي يدها خرقة مبللة تمسح بها وجه الطريح الملوث بالدم والصلصال ^(٢) .

وما شعرت تلك المنحنية بديبه حتى صاحت مذعورة ، وولت هاربة نحو الحقول ، مُرَبَّةً في نفس الوقت جسمها معروقاً ^(٣) ، ورأساً عارياً مشعث الشعر طويلاً ، وقدمين حافيتين

وما هو إلا أن توارت عن عيني الداهل حتى كان يلصق سيده يسحه ويسمفه ، ثم احتمله فوق كاهله ، وولّى وجهه نحو البلد متجنباً بكل ما يستطيع تعريض نفسه لعيون المارة الطُلعة ، ولالدموع على خده خدّ ، وفي نحره نحر ^(٤)

وحِدَ ^(٥) مرجان بسيده في حجرته ، وقام بكل ما وصلت إليه يده من طرق الإسماعف الوقتي ، وما أوحى إليه تجاربه الضيقة الدائرة ، وأرسل

(١) انكشف (٢) الطين (٣) قليل اللحم (٤) الخد والنحر الطريق (٥) انفرّد

في طلب الطبيب «حسن التركي» وكان طبيب البلدة الوحيد في ذلك العهد .
رأسٌ صغير ينبت فيه شعر أصفر مسترسل ، ويعلوه طربوش وطمى .
الجلدار ، ووجه مُخْتَلِجٌ ^(١) حليق مَسْنُونٌ ^(٢) ناصع البياض ، ركب فيه
عينان زرقاوان واسعتان يُظَاهِما حاجبان أبلجان ^(٣) أصفران رقيقان ،
وأنف صغير يُطل على مَبْنَمٍ ^(٤) ضيق يتفتح عن أسنان منضدة جميلة
تحكى اللآلى في نالها .

يحمل ذلك الرأس الصغير عنقٌ نحيف يكاد الناظر إليه بعد أوداجه ^(٥)
متصلٌ بجسم ضاويٍ ^(٦) هزيل

كان هذا الطبيب على إلمام كبير بطب الأسنان ، ولكنه أي كعض
أطباء اليوم إلا أن يكون طبيبا في كل شيء : في العين والسن والأنف والحنجرة
والأمراض الباطنية والجلدية إلى غير ذلك مما كان يدعى علمه لنفسه

ولم يثق أهل البلدة به ، ولذا لم يتركوا بابَه أو يستشيروا رأيَه إلا في
النُدرة ^(٧) . ومما زاد شكهم في خبرته أنه كان ضعيف البنية نحيل الجسم
كأنهم كانوا لا يفتظرون من طبيب أن يكون قليلا ^(٨) ، أو كأن الأطباء
على زعمهم أخذوا عهداً على نفوسهم ألا يمرّضوا

وكثيراً ما كنت أسمع شخصا يجيب آخر حين يسأله : لماذا لم تذهب

(١) قليل اللحم (٢) في وجهه وأنفه طول (٣) الساج نقاوة ما بين
الحاجبين (٤) ثغر (٥) عروقه (٦) نحيف (٧) قليلا
(٨) قصيرا نحيفاً

إلى الطبيب التركي ؟ « لِيُداوِي نفسه قبل أن يداوِي غيره » .
وكان ملجؤهم فيما يطرأ عليهم من أمراض تحاربهم في الحياة وحلاقيهم .
حضر الطبيب « حسن » وأظهر فنه وخبرته في فم الطريح ولكنه
أظهر عجزاً فيما دون ذلك ، فقد عزا ما في جنب المريض من جمود وعجز
عن الحركة إلى برد أصابه أو سقوط ناله ، كما نسب عجزه عن النطق إلى
قعدانه أسنانه وتمزيق لثته .

والحقيقة أن الطبيب كذب في تعليله ، ولم يهده علمه المهوش إلى
كشف باطن الأمر ، وأن الرجل على أثر ما حل به أصيب بشلل طمس
مركز النطق والسمع من مخه ، وأعجز جنبه الأيمن عن الحركة . كارثة
شديدة لم تنزل به إلا على أن ترحل معه إلى المشوى الأخير ^(١) !

أنهى ^(٢) أمر ذلك الحادث إلى رجال الأمن ، فاهتموا به أيما اهتمام
ولكنهم رجعوا — شأنهم في معظم الحوادث — بصفقة المغبون ، وأفلت
المجرمون دون أن تمسهم يد العدالة .

وشاء الله أن تطمس معالم الجريمة ، فطمس على عقل المرشد الوحيد
فلم يستطع أن يشير بكلمة إلى حقيقة رفيق سفره . وما ذا تجدى لفظة
« الكومي » وهي بين رجال الأمن نكوة من النكرات ، وإن كانت بين
رجال الليل أول أنواع المعارف ؟

ذهب « الشيخ الفقى » إلى الزقازيق ليحصل أموالاً ويُمضى عقوداً ويحضر جلسات له فى المحكمة ، وتبعه الكومى على أثر أوامر صدرت له من رئيسه ، فراقبه فى الخفاء حتى إذا علم أنه ينوى العودة إلى ميت غمر بدا أمامه فجأة ، كأنه ظهر من بطن الأرض .

« أنت هنا يا سيدى عيسى ؟ » سأل الفقى صديقه القديم وأحدَ مُعامليه الموفين . فأجابه الآخر : لا تدهش من رؤيتى هنا ، فلقد حضرت صباح اليوم لأمر ضرورى ، وقد قضيتها والحمد لله ، وإنى عازم على العودة الآن . فقال الآخر : وإنى على نية السفر أيضاً ، إذ حَتَمَ على أن أكون بميت غمر فى صباح الغد لحضور بعض قضايا هامة ، وإنى أعد نفسى كمجدوداً^(١) إذ عثرت بصديق قديم يرافقتى فى رحلتى . وإذ هما كذلك أقبل مرجان يقود جواداً فارهاً^(٢) فركب الفقى ، وانطلق مع رفيقه يتحدثان .

(١) محظوظاً (٢) مليحاً فتيماً

الفصل الثالث عشر

بنخيت

إني لا أحسب القارىء إلا متشوقا لمعرفة شيء من أخبار بنخيت الذى قتله مرجان فى تلك الليلة الليلية^(١). ولولا حرصنا على تلبية هذه الرغبة لمررنا بدون أن نفرد له فصلا ، لا لأنه ذو شخصية ضئيلة ، بل لأنه لن يظهر على مسرح روايتنا فى الفصول المقبلة .

كان بنخيت من العالقة الجبارين ، نيف على الخامسة والثلاثين ، طوَّالاً عبَّلَ الجسم^(٢) ، بُنى بِنَاءَ الضَّوَارَى . وركبت فيه غرائز السكواسر جمَدَ شعر الرأس ، متألق العينين فى غُور ، كبير الأنف ، متنفخ المنخرين مُطَهَّمُ الوجه^(٣) كالْحَمَلِ ، مُكَلَّمٌ^(٤) الوحشتين ، واسع الفم^(٥) . إذا ابتسم فعم أسنان كبيرة ناصعة البياض حادَّة كاللواشى . لم يشدَّب نبت وجهه على قصره ، بل تركه ينمو كما يشاء وفى أى رُقعة يريد ، مما زاد تشويه خلقه ، وأضاف إلى فظاعة منظره .

كان ثانى وكيلى العصابة ، وكان مع السكوى والرئيس رأسها المدبر وقلبها النابض ، وبدها الباطشة برَّ بقسمه وأخلص لمهنته .

(١) الطويلة الشديدة (٢) ضخمة (٣) مدور الوجه مجتمعه

(٤) مجتمع لهما (٥) الفم

كان على مضاء صريخته ، وصعوبة شكيمته ، وما وهبته الطبيعة من سلطان قاهر ، سلس الانقياد لغريزة واحدة تحدت إليه من قبيلته في جنوبي السودان ، تلك الغريزة الوحشية والشذشنة ^(١) البربرية هي امتصاص دم الأحياء .

كانت تلك النتيجة ^(٢) مأكله ومشربه ، ومنامه وراحته ، وسعادته وهنائه ، ومطمح آماله ، وجُماع مشتهياته . ولطالما آثر أن يستولى على قنينة حية ، وإن كان في ذلك رده ، على أن يترك الدماء تسيل على الأرض أو تفيض في الأجسام . وكثيراً ما رضى من الوفاء باللفاء ^(٣) ، أو تنازل عن بدته ^(٤) من الغنائم والأسلاب في نظير مرّة ^(٥) واحدة من عنق أسير دفعت به أيدي الأقدار ، إلى حيث لا فرار .

كان في أول أمره رئيس عصابة من الأشقياء قوية البطش كجثة الجرائر ^(٦) ، ورئيس المحكمة العليا التي كانت تعقد جلساتها بين المقابر المهجورة ، وفي ساحات الحقول المترامية الأطراف ، من قصب وذرة ولا يحسبن القاري ، أن ذلك كان قذاً في نوعه ، فقد كان لزمن قريب له شبيه في بعض مديريات الوجه القبلي ، ولعله قضى عليه الآن .

كانت تلك العصابة تسلب المارة نهاراً جهاراً ، أو تقودهم قصد التفكك والتبسط إلى منصة القضاء حيث القضاة والمخلفون ، والحجاب

(١) الطبيعة والعادة (٢) الشهوة (٣) من حقه الوافر بالقليل
(٤) نصيبه (٥) مصة (٦) الذنوب

والشاهدون . وإليك طرفا من عجائب تلك المحاكم الجوزية :

مر أحد الفلاحين في طريقه إلى ميت غمر برجل حاقف^(١) في ظل شجرة على حافة حقل ، وكان يقود ذوداً^(٢) من الجمال حاملاً قطناً ، فغياه تحية الاسلام . فرد الآخر بأحسن منها ، ناهضاً في نفس الوقت من محفة ولاحقا بالرجل بخطى هادئة

ولما كان بجانبه سأله عن وجهته ، فأخبره أنه يؤم ميت غمر لبيع محصول قطنه ، فأجاب الآخر إن ذلك من حسن جدتي ، فإني أقصد نفس المكان لقضاء أمر هام . ورب ريث^(٣) أعقب خيراً .

سار الرجلان يتحدثان فيما يتحدث فيه الفلاحون عادة نافضين جملة حاملما ، حتى وصلا البلدة . وحينئذ فصل^(٤) الرفيق عن مسيره معتذرا بأن مهمته تضطره إلى أخذ سمت آخر .

ذهب الأكار^(٥) وقضى مهمته ، وكان النهار لا يزال طويل العمر فاستوفى عمر ساعة في شراء بعض حاجه ، ثم قفل راجعا إلى مسقط رأسه « دنديط »

ولم تغب حذافير^(٦) ميت غمر في الأفق خلفه ، حتى سمع صوتا يناديه باسمه ، فنظر وإذا برفيقه في الذهاب 'يلوح له بمنديل أحمر أن

(١) منحني ومنثن في نومه (٢) الذود من الأبل ما بين الثلاث إلى العشر (٣) بطء (٤) تركه (٥) الفلاج (٦) أعالي

تريث . فهش القدم^(١) الساذج لذلك المنظر ، وأبطأ ريثما لحق به صاحبه
ثم استأنفا المسير .

وكان ربّ الأيبل أكثر شوقاً إلى الكلام من مرافقه الذي لزم
الصمت فقال : لقد كانت صفقة اليوم صفقة رابحة أكثر مما كنت أظن
فلقد بعث القنطار بثمن مرض . فهز الآخر رأسه وقال : يُجذِلُنِي أَنْ أَعْلَمَ
ذلك فأني أعرف مقدار ما يعانيه الواحد منا من المشاق الطويلة في مراعاة
أرضه وخدمتها ، غير أنه يبدو لي أنك كنت أعمد مني حظاً ، فلقد بعث
محصولي منذ ثلاثة أيام ، وقبضت في القنطار مائة وخمسين قرشاً .

ثم لوى برأسه نحوه قليلاً وقال : وبكم بعث أنت ؟ فأجاب الآخر
والسرور يطفح على محياه « بمائة وثمانين »

فصمت المستفهم برهة كأنما يستجمع شوارد فكره ، ثم عطف
قائلاً : « وكم قنطاراً كنت تحمل ؟ فأجابه خمسة عشر قنطاراً . وكأنه
أراد ألا يجشم سائله مئونة الحساب فصاح : وقبضت سبعة وعشرين
جنياً . فقال : خارك الله فيها^(٢) »

ولما كانا على مقربة من ملتقىهما الأول وقف اللص قابضاً على ذراع
محدثه الطيب السريرة ، وصاح في وجهه « هيا بنا »

فعلت وجهه الآخر سجابة من الغموض والحيرة ، وقال بصوت
المتعجب : وماذا تعني يا أخى بقولك : هيا بنا فزمر^(٣) الثاني في وجهه

(١) العبي عن الكلام في ثقل وقلة فهم (٢) جعل الخير لك فيرا

(٣) صاح في غضب

هيا بنا نقسم ثمن أنعامنا . ألسنتُ شريكك في الأرض حتى تستأثر بالثمن وحده ؟ ألم نستأجر الأرض معا من محمد بك شهاب ؟ وهل كان ما بذلته من الجهود في استثمارها دون ما بذلت ؟ إن العدل يحتم أن نشترك في اقتسام الثمرة كما اشتركنا في الأثمن والنصب . فَمَقْدُ لسان المسكين عن الكلام ، ووقف أحيـرَ من ضَبِّ

في هذه اللحظة انفرجت أشجار القصب عن رجل دميم^(١) الحلقة نأى الصورة^(٢) تقدم إلى حيث المتناظران ، وقال ماعسى أن يكون موضع اللجاج ؟ فقال اللص : هذا شريكى يريد أن يستبد بثمن ما بعنا من القطن اليوم دونى ، ويأبى على الشـرِكة . فقال ابن القصب : على رِسْلكَ أيها المغبون ولا تئس من نيل حصتك ، فليس بيننا وبين المحكمة إلا بضع خطوات .

وهنا وجد بعضُ الألفاظ الضالَّة سبيلَه إلى فم الفلاح ، فصاح والعجب يملأ جوانبه : المحكمة ؟ فضحك الآخـران ضحكة الاستهزاء ، ورمىاه بالجهل المُطْبِق حتى بما فى ريشته . وقيدَ صاحب الجنهات والـص إلى حيث الحكم العادل .

ساروا نحو خمس دقائق ، خارقين أعواد القصب المتلاصقة ، متيامنين مرة ومتياسرين أخرى ، ومنحنين طوراً ومنصبين آخر ، حتى وصلوا إلى عمرَ عرضه نحو متر وطوله نحو عشرة أمتار يحف جانبيه أشجارُ القصب

حملهم ذلك المرء إلى ساحة مربعة الشكل ، مساحتها نحو ستة عشر مترا . قام على رأسها حارس هو حاجب المحكمة . ورثى بعض أفراد منتشرين هنا وهناك ما بين واقف وجالس ومضطجع .

وما هو الا أن احتواهم المكان حتى صاح الحاجب من خلفهم « فتحت المحكمة » فقام الكل إجلالا وكونوا منهم صنفين .

أخذ القاضى المتنعم مكانه من منصة مصنوعة من الأعواد الجافة والقش ، ثم شرع يستفهم عن موضوع القضية ، ويسأل المتهم والمدعى عدة أسئلة .

وبعد محاورة قصيرة صدر الحكم ، وهو يقضى بتجريد المتهم الجشع من كل ما معه من النقود تأديبا له ، وبالإعدام إحراقا .

ووقتئذ صاح الفلاح المغلوب على أمره صيحة اليأس المسترحم ، وطرح نفسه عند قدمى القاضى يسأله الرحمة ، ويرجوه أن يتصور حالة أسرته المنكودة بعد موته .

ولكن القاضى لم ينطق بكلمة ، بل أشار إلى الحاجب أن يجر ذلك المجرم الطماع ، فأسرع وحمل الفلاح إلى ركن بعيد هامسا فى أذنه : قل استأنفت الحكم . فردد المسكين ما طلب منه ، كما تردد البعفاء ما تسمع دون أن تفقه له معنى .

وحينئذ أمر القاضى بأخذه إلى المحكمة العليا . وسيق المتهم إلى ساحة أخرى يصلها بالأولى ممر ضيق آخر . وهى فى شكلها ونظامها كالساحة

الأولى ، لولا اتساع قليل في جوانبها ، ولولا أن منصتها أقلت ثلاثة قضاة
لا واحدا . وكان الجالس في الوسط يفوق زميليه ضخامة وطولا ، أسود
الجسم ، مكتوف الوجه ، براق العينين .

وبعد نقاش قصير ، صاح ذو البشرة السوداء : الحكم بعد المداولة
فأخرج المتهم إلى المرء ، وبعد برهة عاد وسمع الرئيس يقول بصوت جلي :
حكمت المحكمة بتثبيت الحكم من حيث تجريد المتهم مما معه من النقود ،
وإلغاء الحكم بالأعدام . فصاح الفلاح على أثر ذلك بملء حنجرتة : ليحي
العدل ! وطار من مأزقه كمن به ربي^(١) من الجن ، أو خطرته من
الجنون ، يردد على طول الطريق : ليحي العدل ! ليحي العدل ! مغفلا
جماله ورائه . وما رد إليه عقله بعد هذه القارعة .

وهكذا صار الجور عدلا ، وانقلب السلب حقاً سائفاً !

الفصل الرابع عشر

صيدت بخيت

إليك قصة أخرى نسطرها كما رواها بخيت عن نفسه في بعض أحاديثه
التي تُشيب مفارق الطفل :

كان الوقت مَوْهِنًا ^(١) وكان بخيت يسيء للنوم في مأوى من مأويه
وسط الحقول - وما بات في أحدها أكثر من ليلة واحدة - وإذا به يسمع
طرقاً شديداً على الباب ووقع أقدام متعددة فصاح : من بالباب ؟ فأجابت
عدة أصوات معا : افتح يا بخيت . فقال وبده على البندقة وخنجره إلى
جانبه : ولكن من عسى أن تكونوا ؟ أخبروني بأسمائكم فإني لن أفتح
للمجهول الاسم . فماذا تخافون وأنا واحد وأنتم كما يظهر لي كثير ؟
وقبل أن يتم عبارته كان الباب الضعيف مفتوحاً ، وكان الضيوف
الثلاثة الملتصقون على عتبة

هم بخيت بتصويب البندقة في وجوههم ، ولكن إشارات منهم
تحمّل الأمان حالت دون ذلك ، فوقف حائراً بعض الحيرة . وقال واحد
منهم : لسنا هنا لنلحق بك أذى ، وحاشانا أن نجرؤ على ذلك مع زعيم
طائر الصيد مثلك يا بخيت ، ولكننا جئنا لنلمس يدك ، ونستنجد

(١) الموهن نحو من نصف الليل

برأيك ، فإن أجبت سُؤْلنا ^(١) كانت لك علينا يد لانسائها ، وإن أبيت
فما علينا إلا أن ننسحب

أعجبت هذه النعمة المتواضعة ، ولكن لم يكن الذى تخلُّبُه حلاوة
الالفاظ ، ولا الذى يحسن الظن بأحد ، فبقى حذراً فى مكانه قائلاً : إذا
كان هذا ما حدا بكم إلى بئى فى مثل هذه الساعة من الليل البهيم ^(٢) فقوتى
وتدبيرى تحت تصرفكم ، ولكن على شريطة أن تكشفوا لى عن
ذواتكم ، أو على الأقل عن أسمائكم

فقال المتكلم الأول : أظن أن هذا لا يهيك كثيراً ، وما دمنا كشفنا
لك عن نيتنا وعزيمتنا فلا مجال للشك فى أمرنا . فقال : فنأكل كِسرة
من الخبز والملح معاً - وهم باحظار ما اقترح

ولكن الضيوف أبوا عليه ذلك أيضاً ، فقال بصوت المتهجب المرتاب :
وإنكم تأبؤون أن تمسوا لى طعاماً كذلك ؟ فهل هذا مما يؤمن المرء كثيراً ؟
فهم الثلاثة مارمى إليه ، فرموا بأسلحتهم إلى ظهر الأرض ، ومدوا
أكفًا مبسوطة للتصافح ، فقبضها واحدة واحدة ثم قال : والآن ماذا
تريدون منى أن أفعل أيها الأخوان ؟

فقال الصوت الأول أيضاً : إنا نتمنى إلى إحدى المصائب القوية ،
وقد كنا على أن نهجم الليلة الناحِزة ^(٣) على بيت أحد الأغنياء ولكن
مرضا فجائيا طراً على رئيسنا فمنعه من قيادتنا ، وكل ما نبغيه الآن قائد نسير

تحت لوائه ، ونأتمر بأمره . وقد أطبقَ ^(١) أمرُنا على أن تكون أنت قائدنا فهل قبلت ؟

فقال نعم قبلت . فقالوا إذن ضع جُنَّتَكَ ^(٢) الكاملة وتدرّع بما ترى من أسلحتك . ففعل كما طلبوا .

وما جاوزوا ظِلَّ المسكن حتى سألوه أن يسير أمامهم ، وعلى قيد خطوات منهم ، فلم يجد بداً من الإذعان لإرادتهم ، وإن كان قائدهم المختار صار الكل حتى كانوا على مقربة من قرية « ميت يعيش » ثم وقفوا وبدءوا يتشاورون في خير الطرق وأسلمها لتنفيذ ما رآبتهم ، وقرّر رأيهم على أن يبتى أحدهم خارج بيت الغنى لينذرهم إذا دعا الحال ، وأن يقوم بنحيت مقام الديّبان أمام غرفة النوم ، وأن يتولى الاثنان الباقيان أمر السرقة . تم ذلك بالرغم من معارضة بنحيت كأنه لم يكن القائد المصطفى وبُدئ الهجوم ، وسرعان ما كان الشقيان في حجرة النائمين وكانوا زوجا وزوجة وطفلا .

صحا الزوج على إثر حركة في الحجرة ، فرأى خنجرا مشهورا في وجهه وسمع صوت ماردٍ يخاطبه : لاتفه بكلمة وإلا هلكت . أجب أين النقود ؟ فقال المستيقظ وقد صَحِلَ من الرعب صوته ^(٣) : هون عليك فستأخذ كل ما تريد . النقود في صندوق صغير في هذه الغرفة - وأوما إلى غرفة متصلة بغرفة النوم .

(١) أجمع (٢) سترتك (٣) بج

وبينما كان أحد اللصين يبحث عن الصندوق وما حواه ، استيقظت
الزوجة مذعورة ، وهمت بالصياح عند ما وقعت عينها على اللص .
ولكن الشقي كان أسرع من صوتها الحبيس فأغمد نصله في قلبها
فصاح الزوج قهراً : لِمَ تَقْتُلُهَا أَيُّهَا الْعَمِين وقد دلتك على

ولم يتم كلامه حتى كان يتخبط في سريره بجوار زوجته !!
رأى بخيت ذلك المنظر البشع فقال منه على غلظ كبده ونضوب معين
الرحمة من قلبه وألفته لمثل تلك المشاهد الدموية ، ورقّ لحال القتيلين
لأنهما لم يستحقا في اعتقاده الموت بعد أن قدم الغنى ما تملك يداه
ولا تعجب أيها القارىء لرقته وراثته فأن في الحياة مواطن تنفذ إلى
قلب العاني . بل تستنفذ الدمع من شؤونه ^(١) المتعجزة . ولولا موقفه
الزاق للبي نداء ضميره وقضى على ذلك الجبار الأثيم . ومع هذا فقد حلت
يده دون التضحية بالطفلة الصارخة المأمة في الدماء .

أسرع اللصوص بعد أن حملوا كل ما وصلت إليه أيديهم من نقود
ومصوغات وغيرها ، ورجعوا كما أتوا قبل أن يرفع صوت الإنذار ، وقبل
أن يحقق بهم جزاء ما ارتكبوا من الأوزار

رجعوا بنفس النظام ولكن من طريق آخر ، ينقدهمهم بخيت كأنهم
لا يزالون يخشون بأسه إذا تأخر منهم أو سار بجانبهم . وبعد مرحلة طويلة
جلسوا تحت شجرة يقتسمون . فقال قاتل الاثنين : لنقسم هذه الغنيمة

(١) جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين

خمسة أقسام . فقال واحد من صاحبيه . ولم ونحن أربعة ؟ فقال الآخر لأن القسم الخامس أصيب زعيمنا المريض . فرد الآخر بشيء من الغضب إنه لم يكن معنا وقت الحرب فلم تذكره وقت السلم ؟ فعدّ الثاني ذلك ضرباً من الوقاحة لا يشفع له إلا الدم ، وطعنه طعنة كان فيها القضاء .

فصاح زميله الآخر : ما هذا يا صابر ؟ أغدر هو أم ما ذا ؟ فقال بل غدر ، وثني عليه ، كأن رؤية الدماء أثارت في نفسه اشتهاء الدماء ثم التفت إلى بخيت الذي رأى ما رأى وسمع ما سمع بدون أن يلفظ لفظة وقال : نحن الآن اثنان . فالتكن القسمة مناصفة

فابتسم بخيت وقال : حسبى أن تأخذ ما تشاء ، وفي رأى أن صاحب الغُرم أولى بالغُرم فقاطعه الآخر : لا . لا . لقد استحققت النصف فقولك

وبدأ يعد الجنيهات : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسون

ثم سمع حركة يد بخيت إلى جنبه ، فداخله شيء من الرّيب وقال : ما وراء حركتك يا بخيت ؟ فقال : لا شيء . لقد اتفقتنا فاستمر .

وامتأنف العداد يقول : واحد وخمسون . . تسعة وخمسون ، فصاح العبد : ستون — وأفرغ غدارته في وجهه فخرّ صريعاً لثانيته بجوار صديقيه وجمع الغنيمة كلها ومضى .

طار صيت بخيت في عالم الإجرام ، وتناقلت العصابات أخباره الجريئة

ومخاطراته القضيعة ، فلم يجد الكومى ورئيسه بدءاً من مسالمته ثم التعرف به والتزلف منه ، وما زال به حتى أقنعاء بضرورة الانضمام إليهما هو وعصابته ، على أن يكون الوكيل الثانى للعصابة العظيمة فقبل على أن يمنح بعض الامتيازات ، كأنه ينتمى إلى دولة من الدول ذوات هذا الحق فى مصر

ومنها كان السماح له بأن يتصرف فى بعض الأسرى بما يشاء ويهوى . هذا بعض ما ورد إلى سمعنا من تاريخ ذلك التيم^(١) المتوحش الذى لبث سنين طويلاً رعب الناس فى الإقامة والظعنة ، واليقظة والنومة وحسبه أن كانت خاتمته كجلده سوداء ، امتصّ دماء الناس فامتصّت منه الدماء .

الفصل الخامس عشر

بين جدران المقابر

كانت الليلة حالكة الجلباب ، غداقية الإهَاب ^(١) ، عاصفة الرياح قويتها ، ولم يبق من هدئها إلا شَفَا ، ^(٢) وإذا بأشباح تترامى من بطن الأرض وظلها وقصبتها ودينها ، مشتملة بأردية سوداء ، كأنها أبت إلا أن تحاكي الليلة في حدادها . وكانت مثابة تلك الأشباح المتحركة واحدة ... هي مقابر ميت غمر

وطِئَت الأقدام أخيرا أديم تلك المقابر ، وعلت جدرانها ، ووثبت من سطوحها إلى أشجارها ، ثم هبطت من أشجارها إلى سطوحها . كأن ليس لتلك القبور من حرمة مقدسة . أو هيبة مرجفة ، أو كأنه ليس بين تلك الأرواح السابحة في سماء تلك الرموس الصامتة روحٌ شرير تنذرهم وتزجرهم . أو روح وليّ توبخهم وتعنفهم

وكيف ينتظر من أبناء الليل أن يرعوا حرمة الموتى وهم لم يرعوا حرّمات الأحياء ؟ أو يتذمّموا من إتيان منكر وقد ولّغت نفوسهم في الدماء ؟ أو يُرْجى منهم ترددٌ ما وهم الجراء على كل شروإهم ؟
اجتمع شملهم أخيرا وكانوا يفوقون المائتين عدا . وبَسَطَهُمْ ^(٣) مدفن

(١) غداقية نسبة إلى الغداف وهو الغراب (٢) لم يبق من ثلثها إلا قليل (٣) وسعهم

«عِزِيزَة» على كثرة عددهم ، وأظلمهم دَفَواؤه الممتدة الأغصان ، فاشتمل عليهم الحالـكان من ظلّ وظلام . وكوّنت من الحاضرين حلقات ، ورثيت هنا وهناك محتضرات الشمعات ، وتهامس القوم لحظة ، ثم حاكوا الأحداث في صموتها . ولكن الرياح لم يرقها ذلك الهدوء فاستمرت في خفيقتها^(١)

بدا شخصان يزحفان من جوف قبر مفتوح ، كأنهما شيطانان رجيان أوروخان شرّيران . ولما كانا وسط الحلقات نطق البارز الأول بصوت خافت ولكن يحمل في موجاته ريح السيطرة والنفوذ : هل تكامل العدد ؟ فأنفض^(٢) الجمع رءوسهم بالإيحاب ، وحركت الريح لهب الساهرات^(٣) فهزت رءوسها أيضاً كأنها أبت إلا رد الجواب . فقال حسن - ومد يده إلى رفيق القبر فأخذ منه أ كياساً ففك رباطها قائلاً :

لقد مضت مدة طويلة على آخر جلسة عقدناها ، وكنا ننتظر أن تزداد أرباحنا ، كما ازدادت أيماننا ، ولكن قامت في سبيل بعض رجالنا عقبات حالت دون أمانتنا ، وطرأت حوادث كما تعلمون لم تدر بخلدنا استنفدت شيئاً مما حصلنا .

ولقد كنت قائماً بالحساب مع وكيلكم حينما حضرتم ، فوصل بنا التقدير إلى أن ما يَحْصَى^(٤) كل يد من أيدي العصابة شاملاً نفسي والكومي مائتان وخمسة وسبعون جنيهاً .

(١) دوى جريها (٢) حركوا (٣) الشمعات (٤) حصه كذا صار حصته .

فصاح الكل في نفس واحد : هذا أكثر مما توقعنا !
واستمر الرئيس يقول : وفاتني أن أذكركم بأننا لم نحرم شهداءنا
الشجيمان من نصيبهم ، ولا أخرجناهم من قائمة حسابنا ، فقد خصصنا لأسرة
كل واحد منهم ما كان يستحقه فقيدها .

فصاح الكل صيحة الإعجاب بتصرف رئيسهم الشهم الحكيم .
وسُمع صوت من ركن بعيد يقول : ولكن الرئيس والوكيل قد سويتا
نفسيهما بباقي أفراد العصابة ، وخالفاً بذلك نص القانون القائل : « للرئيس
مما يُنظم نصيبان والوكيل نصيب ونصف » وإني عن نفسي لا أرضى عن
هذه المساواة ولا إخال أحداً من زملائي يرضاها . . .

وفي الحق أن زملاءه جميعاً لم يقرّوها ، ولولا أن أخذتهم حلاوة
الكسبة^(١) غير المنتظرة لاحتجوا من أول الأمر كما احتج رفيقهم القانوني .
والآن وقد نبّهوا إلى ما فاتهم أخذوا يبدون عجبهم ، ويطالبون بمراعاة
مواد القانون العصابي ، ويبدون أنهم لا يحدون عن تطبيقه التطبيق العادل
واضطّرّ الرئيس أن يتكلم وسط هذا الاستياء وذلك الاحتجاج معللاً
تصرفه فقال : قبل أن أبين لكم أسباب نهجى هذا المنهج الذي لم يوافق
أهواءكم ، والذي اعتبرتموه انتهاكاً لحرمة قانون وضعناه بأنفسنا واتفقنا على
صوغ مواده ، وأقسمنا أن نراعيه — أقول قبل أن أبين ذلك : أشكر لكم
من أعماق قلبي عاطفتكم الشريفة نحوي ونحو وكيلي كما أكبر فيكم تمسككم
بحق غيركم قبل حقكم . وإن عصابة تضم تحت جناحها رجالاً أشداء في

الحق مثلكم خالق بها أن تكون سيده العصابات طرّاً ، ولقمن أن تملأ
أكف أفرادها تبراً !

أيها الاخوان ! إني في الواقع لم أتمدّ على قدس العدالة العصابية كما
خيل إليكم لأنني أحفظ الناس له وأحرصهم على رعايته . وكل ما فعلت
أنى تبرعت بنصيبي كما فعل الكومى بنصف سهمه إلى أهل من سقطوا
من إخوانكم في ساحة القيام بالواجب . . .

وهنا لم يملك السامعون شعورهم ، ولا استطاعوا كم أفواههم ، فصاحو
صيحة الإعجاب والإكبار مصفقين وصافرين ، ناسين أنهم في موطن
الصمت لا التهليل ، وأنهم بعملهم هذا قد يجرون على أنفسهم خطراً
لا قبل لهم برده

وضاعفت الرياح في نفس البرهة من بأسها كأنما أرادت ألا يسمع
صوت غير صوتها .

وقف الرئيس الرزين مبهوراً إذ قد لمست يدُ الأعجاب بمرءوسيه
موضع الإحساس من نفسه ، وقرأ آية أخرى من آيات إخلاصهم له
وتفانيهم في إرضائه .

ولا عجب فإن هؤلاء الذين أنظّم المجتمع ، وعادتهم الأفراد
وطاردتهم القوانين ، وملكتهم القسوة ، لم يجردوا من كل العواطف
البشرية كما نزعهم ، ولا حرموا من كل مظاهر الإنسانية ، بل يبدو منهم
أحياناً - وإن كان ذلك جديداً نادر - شيء من تلك العواطف والمظاهر كما
يبدو النجم المبهيب في الأفق البعيد لحظة ثم يأفل :

الفصل السادس عشر

توزيع الغنائم

سكنت عاصفة التصدية^(١) والتهليل فجأة كما بدأت ، ورن مرة أخرى ذلك الصوت من الركن البعيد قائلا : إنا اقتفينا آثار رئيسينا في كل خطوة من خطواتهما ، فلم لا نقتفى آثارهما أيضاً فيما اتخذنا من تلك الخطوة السيدة خطة المساعدة الأخوية ؟ أليس كل واحد منا عرضة لما ناب أخاه من قبل ؟

فتمالت صيحة الإعجاب والقبول مرة أخرى ، وطلب من الرئيس أن يحفظ جزءاً من الأنصباء يحمل إلى أمر القتلى من زملائهم ، ولكن الرئيس بعد أن أثنى عليهم كرتة ثانية ولى تعاضدهم في سبيل الخير أخبرهم أن وقت اجتماعهم قد طال ، وأنه خير لهم أن يمهّدوا بجمع تلك الإعانات إلى واحد منهم يختارونه فيما بعد ، ولما لم يلق معارضة أخذ في توزيع الغنائم .

وفي أثناء ذلك التوزيع سمعت ضجة عظيمة بالقرب منهم ، ثار على أثرها زوبعة من التراب وأوراق الأشجار التي أخذت تتساقط على

الصوص ، كما سمعت وثبتت بين المقابر المجاورة

علق الجميع أنفاسهم إلا الرئيس فقد استمرّ في عمله متبسمًا قائلاً :
لقد عصفت الرياح بشجرة ضعيفة فكسرتها ، واضطّرت بعض الكلاب
الآوية إلى الفرار .

وأكد الكومي قول الرئيس بعد أن استطلع الخبر فوجده كما وصف
حرفًا بحرف

لما انتهى السبع من إبداد ^(١) النقود بين تابعيه على ما يرام ، بسط
كفه قائلاً : لم يبق مما جمعنا من غير توزيع إلا هذه الأسنان الذهبية
فمن ذا الذي يرغب فيها منكم ؟

فصاح أحدهم : علىّ بها فان أمي دَرَدَاء (٢) ولا أحسبها إلا تُسرَّ
باستخدامها . وصاح آخر : ان أحق الناس بها من انزعها من فم صاحبها
وقرّ رأي الأغلبية على أن تُضمّ إلى تبرعات المتبرعين ونفذ القرار
انفضّ الجمع المحتشد قاصدين وجوههم المختلفة إلا الكومي والرئيس ،
فقد لبثا مدة في مكانهما يتحادثان ويتشاوران . فقال الزعيم : إني لازلت
مأخوذًا بما أبصرت وسمعت هذه الليلة ، لا لأنني أيقنت كامل إخلاصهم
لي ولك ، ولكن لما فيهم من الثقة العمياء بنا . زد على ذلك ما أظهره
من العواطف الشريفة نحو فاقدتهم . . . فقاطعه الآخر ولم لا يمنحونا هذه

(١) إعطاء كل نصيبه (٢) ذاهبة الأسنان

الثقة وقد جربونا في مواقف عدة ، فما وجدوا منا إلا طهارة في الذمة ، وعزة في النفس ، وعدلاً لا يشوبه مَوَجٌ^(١) .

فقال الرئيس : حقاً حقاً ! والآن يا كومي هل من جديد بشأن صاحبنا ؟ فأجابه : لم يجد شيئاً يذكرك ، وهو كما رأيته في أول الصدمة يتجاذبه الموت والحياة ، ولا أحسب أولهما إلا وَازِرًا^(٢) ، ولقد زرت الحارة عدة مرات وتفقدت المنزل وحجره وطرق اقتحامه فوجدتها أسهل مما يتصور ، إذ أمام البيت شجرة ضخمة تصل أغصانها بكل زواقد البيت تقريباً وتصلح لأن تكون مبدأ الهجوم . فقال الرئيس ولكنك نسيت البوابة وخفيها السلاح وشدة يقظة سكان ذلك الحى ، كما نسيت الخادم الباسل .

فقال الكومي : إنك ياسيدي لم تذكر منى ناسيا ، فلقد احتطت لكل ما ذكرت . أما الخفير فمن السهل التخلص منه مادام تساق البوابة ميسوراً ، وأما السكان فسوف لا يحسبون من أمرى شيئاً ، أو يسمعون لى رِكْزاً^(٣) وأما مرجان فأنا أعرف كيف أنقم منه إذا تدخل فقال الرئيس بصوت يقطرُ شفقة على وكيله : كأنك لا تزال مُصِرّاً على الاضطلاع بهذا العمل وحدك ؟ فقال نعم . ولقد أقسمت

فأجابه لا . لا . يا عيسى إن مثل هذا الإصرار كثيراً ما يكون معناه إبراد النفس موارد المطب والهلكة ، وإن مثل هذه الهجمة

(١) ميل عن الحق (٢) غالباً (٣) صوتاً خفياً

تحتاج إلى أيدي متعددة يعتمد عليها ، فلا تُرهق نفسك ، فلست بمفتقر
إلى إقامة الدليل على شهادتك المعهودة ، وإني لا أحتمل أن أقف موقف
المشاهد بينما أعز أفرادي مكتنف بالذيران من كل جانب . ولن أغفر هذه
الزلة لنفسي إذا أصابك - لا قدر الله - ما يعكر الصفو - لا . لا .
ما أكون معك لأتولى أمر ذلك الفتى مرجان بنفسى ، وسيكون معنا
أيضا بضعة أفراد نصطفهم ، وليكن منهم ذلك الشاب القانوني
فإنه مثال الشهامة الحقة

فقال : تعنى أبا عيشه . فقال هو ذاك

وبعد لأي ما خضع الكومي لإرادة رئيسه ، ورُسمت الخطة

واختير الرُّفقة .



الفصل السابع عشر

زعيم الأزهر

كان الشيخ إبراهيم السبع من الأفاضل الذين يلد لهم الزمان بين جيل وجيل ليسيطروا على الرقاب ، ويتحكموا في العباد ، ويُلْثَمُوا الرعب في البلاد . كان حاكماً لا عن طريق شرعى ، بل عن طريق القوة الجثمانية ، والفتانة الفطرية

كان متوسط القامة ، عريض المنكبين ، صليب البناء ، أبيض اللون في حمرة ، جميل المحيا حليقه ، واسع العينين أزرقهما ، شَاهِي^(١) البصر ، مقرون الحاجبين في كثافة ، عريض الجبين ، كبير الرأس ، أصفر الشعر في استرسال . وبين وجنتيه الميسوطتين امتد أنف روماني جميل ، يُشرف على شاربين مفتولين ، تحتهما فم واسع في غير إفراط . ولقد جمع إلى نظافة الزينة^(٢) والعناية بالهندام مظاهر الهيبة والوقار والسيطرة .

كان ممن لا تَمِيلُ عليهم المِرْبَعة^(٣) ، ذا إرادة تذوب أمامها إرادة

(١) حديدته (٢) الهيئة (٣) العصا يأخذ رجلان بطرفيها ليحملا الحمل على الدابة

الجبارة ، وذا قلب لا يعرف الهلع ، ونفس تحتقر اليأس والجزع ، وكان جماله في حزمه ورزاقته ، وسرعة بديهته وصفاء قريحته . وهو وإن وهبته الطبيعة قوة في الجسم وصلابة البنيان دون وكيله بل بمض تابعيه في هذا المضمار . وكأنه خلق ليسيطر إذا ما دنا منه فرد إلا اعترف في الحال بقوته السحرية ، وسلطانته النفسية ، ولم يندمج في سلك عصابته شقى جديد إلا كان أطوع له من ظله ، وأسرع في تنفيذ رغبته من الشهاب الثاقب . واكتسب كل من دأناه أو عاشره من تلك القوة الهاروتية ، والعزمات الحديدية ، ما كان له نعم العون في اللزبات ^(١) وعند الملمات .

كان لا يؤلمه في حياته أكثر من رؤية إمعة ^(٢) رعيديد ^(٣) ، أو مذكأوج الفؤاد ^(٤) عند الشد بليد . وسرعان ما كان يصب عليه جام ^(٥) غضبه ويستوفضه ^(٦) من حماء شراستيفاض . ولذا أتى وقت حلى عصابته لم تضم فيه تحت لوائها إلا كل صنديد ، فسكانت كما قال هو في بعض خطبه سيدة عصابات ذلك العصر .

لم يصادف في جولاته شاباً أيّداً ، ولا سمع برجل قزاق ^(٧) إلا جده في أن يجذبه إليه ، وكان سميّه دائماً متوجاً بالنجاح ، وكلما يعرف كيف

(١) الشدائد (٢) الرجل يتابع كل أحد على رأيه (٣) جبان

(٤) بليد (٥) الجام أناء من فضة (٦) يطارده

(٧) شجاع لا يقلب

تمكن من أن يروض بجنتنا على جموح فيه ويسلكه في سلكه لما
أذن^(١) من بطشه .

كان شر أنواع الجرائم عنده أن يكشف سر من أسرار عصابته
بكلمة أو عمل . فويل للمذآبيع^(٢) الغرايل^(٣) من يده التي لا ترحم ،
والتي لا ترضى بغير حز الرقاب جزاء . وكان لا يشفى غلته إلا توليه إيقاع
ذلك العقاب بنفسه .

ومن جلال^(٤) ذلك كانت عصابته بحق وعن جدارة فوق كل
العصابات عددا وعددا وأوفرها هيبة ، وأكثرها نجاحا ، وأملأها يدا .

ولد « السبع » بطل هذه الرواية « بكفر الجهنمي » من أر باض^(٥)
ميت غمر ، وشب وترعرع في حضن والده الكريم « السيد السبع »
وبين طلال نعمة وفيره كما يشب الولد الوحيد العجبي^(٦) . ولاقى من
حنن والده الجم ما أسرع في نموه ، وأظهره فوق سنه ، وكان سببا في
ظهوره بين أترابه بمظهر الصلف والمعرفة إن عد ذلك بين الأطفال .
فكانوا يلقبونه أحيانا بالملك الصغير ، وأحيانا بالشيطان الكبير ، حسب
ما يصل إليهم من أعماله ، واطلما اضطر والده الرحيم أن يأسو^(٧) بماله

(١) علم (٢) مفضي الأسرار (٣) النمامين (٤) أجل

(٥) ضواحي (٦) من فقد أمه (٧) يداوى

آثار يده السريعة الضرب والتخريب مما يُعال^(١) به صبرُ أكثر
الآباء احتمالاً

كان هذا الطفل القروى المتمرد مصدر كثير من القلق بل الخوف
لمعلمه فقيه « المكتب الجهنمي » الذي كان يهش أغيبته ، ويمتعض لحضراته
على عكس مربى اليوم

وقصارى القول أنه كان الحاكم بأمره على تلك الشرذمة من الأطفال
التي أظلمها سقف المكتب .

ولم يأس ذلك الوالد من صلاح وحيدة يوماً ما ، ولم تُعش^(٢) أعمال
الطفل الشريرة عينه عن ملاحظة ذكائه المفرط ونشاطه المتدفق

لم يكن ذلك الأب الأمي عالماً من علماء النفس فيستفيد من ذلك
النشاط الفياض ، ولا ذاك الفقيه مربياً خبيراً فيستخدم هبات الطبيعة
السخية التي تجلت أمامه في صور الصبية الطاهرة فيوجهها إلى مجراها
المفيد . فترك المربان حبل الطفل الذمى على غاربه^(٣) ، فكان كالغزال
الشارد لا يُلَوَّى على شيء ، أو الكوسى^(٤) الجوح لا يرؤضه راض .

وكاد بفيض معين ذلك الذكاء بالإهمال ، ولكن الطبيعة لم تشأ أن
ترى ذلك النشاط المستمر يفيض كما كان يفيض ماء النيل العذب على
جوانبه ، ويضيع جوهرة في ذلك المايح^(٥) لأجاج ، فأوجدت له منفذاً وفتحت

(١) يغلب (٢) تعم (٣) الغارب ما بين السنام إلى العنق

(٤) الكوسى من الخيل القصير الدوارج

متنفساً . وما منفذها إلا العبث والتخريب ، وما متنفساً إلا الاقتنان
في الألاعيب

ايه يا ذات الكف النديّة ! لقد وضعت جميلاً عند من لا يعرف
قدره ، وسُقتِ جواهر لغير نقاد !

سلخ الطفل الرابعة عشرة ولم يُحَظَّ له طريق في الحياة ، ولا حدّد له
مستقبل ، بل ترك ينمو ويكبر كأبناء الأغنياء الذين معتمدون في الغد
ثروات أهلهم ، والذين يتمنون يوم التُّراث ^(١) .

وأخيراً رُئي أن يُرسل الشاب إلى الأزهر الشريف على أثر نصيحة
خالصة من أحد زوار البلدة العلماء . أمّح ما في معارف الولد من استعداد ،
وما في بدنه من قوّة ونشاط ، فأبدى أسفه لتركه على حاله من الإهمال .
وما زال بالولد ووالده حتى أذعنا لمشيئته على كره منهما لأن الثاني لم يشأ
أن ينفصل عن فليذة كبده ، ولأن الأول لم يتذوق طعماً للعالم فيرغب
فيه ، ولا تصوّر القاهرة وجمالها فيصبو إليها .

قُضِيَ الأمر وانتزع الشّبل من عرين الأسد ، وسافر بصحبة ذلك
العالم الجليل ، وليس وراء ما به من الغم والحزن غاية ، كأنه مسوق إلى
السجن لا إلى دار علم تثقف فيها العقول ، وتُشجّد الأذهان ويدرس الدين
ابتداءً للدراسة ومضت عليه مَلَاوَةٌ ^(٢) من الدهر تنقل في أثنائها من
شيخ إلى شيخ ، ومن عمود إلى عمود ، يحضّر ما يروق له ، ويقرأ ما يلدّ

لهواه . ومرت عليه عشر سنين كان خلالها موضع عناية أبيه الشيخ ومهبط حياته^(١) ، ولكن ذلك الغمر^(٢) لم يزد المجاور إلا نبذيراً ، وذلك الإحسان المتصل لم يشمر فيه إلا شراً .

إني لا أعذللك أيها الأب على شفقتك بولدك ، ولا على إمداده بسببك^(٣) لأنك قصدت الخير والتشجيع ، وأبى القدر إلا أن يعقب إحسانك شراً ، وأن تثمر شجرتك صاباً مُراً

وعزاؤك أيها الطيب السريرة أن لك في ميدان الحياة مثلاً ، وأن البحار يكتفِظ جوفها جوهراً وصدفاً . وكم تأنى الخافقات^(٤) بما لا يشتهى الركاب ، وينفرد النفاع بالضرر دون الصحاب

وحقيقة الأمر أن الفتى السبع لم يصادف العلم منه هوًى في الفؤاد ، ولم تنل منه أسرار الشريعة ولا قواعد النحو والصرف والبلاغة إلا كما ينال الحيا^(٥) صادف جذباً ، ولا حاكت^(٦) فيه إلا كما يحوك المول في الصفا الصلْد .

إنما لا ننكر أنه كان على جانب من الذكاء عظيم ، ولكن الذكاء شىء والولوع بالدرس والتحصيل شىء آخر . انصرف عن الدرس إلى المشاغبة مع الطلبة والأساتذة ، كأنه أبى إلا أن يستعيد عصره الأول أيام كان يلعب بأطفال قرينته وفتيها لعب النسكباء^(٧) بالعود ، وجرب معهم

(١) عطائه (٢) الكثير (٣) يعطائك (٤) الرياح (٥) المطر (٦) أثرت (٧) ريح انحرفت ووقعت بين ريحين

ما جرب يوم كان ناعم الأظفار فأصاب كراهيةً من بعض إخوانه ، وسخطا من جُلّ شيوخه .

وحدثت عدة مواقع بين المجاورين خَبَ فيها ووضع^(١) ، وسالت فيها دماء ، ورُصّت أعضاء ، وشُجّت رؤوس ، واستعملت الأسلحة الحمراء .

وما كان المدبر لها غير رأسه الكبير ، وما كان الحامل له على إيقاد تلك النيران إلا ضغائن كان يحملها للصَّعِيدِينَ . كأنهم ليسوا له إخوانا في العلم والدين ، وتنابت تلك الغارات على ذلك الفريق من الطلبة حتى ضجَّ الأزهر وشيوخه ، وحتى رُمى ذلك المعهد الكبير بالفوضى والخلل .

ولا عجب فقد كنا لعهد قريب جداً نسمع بأمثال تلك الحوادث بل أعظم منها .

خرج ذلك الثورى من كل تلك الملاحم بفضل دهائه وفطنته وبتهديده مرة وبسط كفه أخرى ، كأن لم يكن مثير تلك الأحقاد ، ولا مُورى تلك الزناد^(٢) . دخلها وهو مجهول القوة والتأثير من كثير من إخوانه ، وخرج منها وقد نبه شأنه ، وزادت صولته ، وكمل نفوذه وكثر تابعوه ، وهادنه شائثوه^(٣) وإن كانت هُدنة على دَخَن^(٤)

هكذا كانت حياته بين جدران ذلك المعهد حياة ثورة وهياج وطمان وصيال ، لأحياء طالب علم وديم حريص على الاستفادة مطيع لأوامر رؤسائه .

(١) خب ووضع أسرع في السير (٢) الزند العود الذى يقدح به

النار والسفلى زنده والجمع زناد (٣) مبعضوه

(٤) سكوت لعلّة

الفصل الثامن عشر

بين « الفتوات »

أما حياته خارج المعهد فكانت لا تقل عنها داخله شغباً واضطراباً. اتصل ذلك الزعيم الفتي بطائفة من « فتوات » القاهرة . وكان سبب هذا التآلف الغريب حادثة صغيرة ندونها كما رويت لنا .

كان شيخنا جالساً مساءً يوم عند أحد الوراقين المنتشرين حول الجامع يتمنى^(١) كتاباً به بعض أخبار « عمر بن معدٍ يكرِب الزُّبَيْدِي » ذلك المضروب به المثل في الإقدام ، وإذا ببعض أفراد تلوح عليهم مخايل القوة يتقدمون نحوه ، حتى إذا ما أظلمت جسومهم - وكان مُقَيَّدَ النظر في الكتاب - انظر إليهم نظرة الاستفهام وقال : هل لكم حاجة ؟ فقال أضخمهم جثة : نعم . فقال : على بها . فقال : إنا نريد امتحان قوتك فلقد سمعنا عنك كثيراً من إخوانك وعارفيك أنك « فتوة » الأزهر . وإنا نحن « الفتوات » نُجِلُّ كل من أحرز هذا اللقب عن جدارة . فهل لك أن تبرهن لنا عن صدق ما سمعنا ؟

فهاها الشيخ عند سماع هذه الخطابة هاهأةً أدهشت « الفتوات »

ولنبهت إليه عيون الغافلين من الواقين والملازمين . وحَفَّ^(١) الكلُّ حول كرميه يستنبثون عن الخطب .

فنهض الشيخ أخيراً من مقعده ، وقال مخاطباً ممتحنه : خير لكم أن تنصرفوا ، فلقد جمعتم الناس حولنا بلا سبب . وشق الطريقَ لنفسه وأوشك أن يغادر المكان ، لولا أن طرق صَماخَ أذنه لفظ « جبان » .

فعلت تلك اللفظة فعلاً فيه ، وإن لم يظهر لها أثر على صفحة وجهه النقية ، فدار على عقبه ، وتقدم خطوتين رزيتين قائلاً : من ربُّ تلك الكلمة التي سمعتها الآن ؟ فصاح لافظها « أنا »

وهنا شعر الحضور بقرب إهواء^(٢) العاصفة ، واشتاقت نفوسهم أن يعرف من سيكون الظافر من القرَّنين ، غير أن وثبة سريمة من أحد « الفتوات » الآخرين حالت دون نشوب المعركة ، ففُتَّت نفوس وُسُرت أخرى .

وقف الوسيط بين العدوين صائحاً : لا يا شيخ مبع . إن صديقي لم يرد إهانتك ، وإني أعتذر عن هفوته ، ولم يسقنا جميعاً إلى مكانك إلا إعجابنا بياسك ، وما تعالنا من شهرتك ، واقد أردنا منك أن تروى نفوسنا المتعطشة لعجم عودك ، وغمر قناتك^(٣) ؛ فأبيت أن تجيب سؤلنا . وأنت حرٌّ فيما تفعل ، ولنا بعد ذلك رأينا فيك

(١) اجتمع (٢) هبوب (٣) اختبارك

نالت هذه الكلمة استحسان الجميع ، وإن لم يرق عجزُها ^(١) في نظر
الموجهة اليه . واستمر المتكلم يقول « وأنا لم أَدْخُلَ بينك وبين دُودِ
« الفتوة » الشهير دفاعاً عنه فهو خير من يحمى نفسه ، ولا جبناً مني
فإني ما عرفت للجبن معنى ، ولكن لأحقين . فما ليس هذا مجالَ هَذَرِهِ »
وَأَزَرَّتْ ^(٢) ضربةُ رجله للأرض ما برز على لسانه

« وإن أبيت إلا العدا والمقاتلة فأنا حُدَيَّاك ^(٣) ، وإن شئت فابرز
إلى أى واحد من أصدقائي تحت سفح الجبل »

فدوى المكان بالتصفيق ، وتعال صيحات الاستحسان والاستمجان ،
وأحس السبع بحرج موقفه ، وإن لم تعلُ جبينه غمامةُ خوف أو دهش
وظهرت على شفته ابتسامة من ابتساماته الغريبة التي لا يعرف بالدقة ما تحمل
من المعاني وقال : إنك أخطأت التقدير يا صاح ، فأنا طالب لا محارب ،
وليس هناك ما يدعوني لأن أحمل لكم ضعفاً ^(٤) ، أو أبيت لكم غدراً .
على أنكم كما قلتم تنتمون لطبقة « الفتوات » . وأما أنا فبعيد عنها
بعد السموات .

لم تعجب هذه اللامعة الوديمة بعض السامعين ، وعدوها ضرباً من
التقهقر المعيب . ثم عطف يقول : وهَبْنِي خضعت لمشيتكم ، فإذا تريدون
منى أن أفعل ؟

فقال « الفتوات » في صوت واحد : تعجبنا هذه النعمة . والآن
قد بدأنا نتفاهم .

(١) مؤخرها (٢) أبيت (٣) فابرز لي وحدك (٤) حقداً

ثم أبرز أحدهم من بين طيات ثوبه عصاً قصيرة صليبة ^(١) ، ودفعها إلى الشيخ قائلاً : نريد منك أن تكسر هذه العصا على ذراعك ، ولك خمسة جنينيات إن فعلت .

فأخذ السبع العصا في يده ، وهزها كأنه يزنها ويختبر صلابتها ، ثم دفع بها إلى معطيها قائلاً : اكسرها أنت ولك منى عشرة جنينيات فصاح الآخر : إني جئت ممتحناً ، وإني أعرفُ بقوتي ، ولكننا مشتاقون لمعرفة قوتك أنت .

وفي هذه اللحظة فقط ظهر على وجه الشيخ علامة الغضب . وقبل أن يتهمن النظارة ^(٢) بما سيحدث كانت العصا تهبط من فوق رؤوسهم على ذراع الشيخ الأيسر ناشرة شظاياها في وجوههم .

« برافو ! » « برافو ! » . كلمتا استحسان شقتا عنان السماء مشفوعتين بالتصفيق والتهليل . وترامى « الفتوات » المعجبون على صاحبهم بمسحونه وبقبلونه وبعناقونه صائحين : أنت « السَّجِيع » أنت رئيسنا ! فليحي « فتوة » الأزهر !

أبشوا كذلك بضع دقائق يفصلون عن الشيخ ثم يتشبهون به حتى ضاق المكرم ذرعاً بهم وبترحيبهم ، ورجاهم أن يخلوا سبيله . وقد كانوا على بَتَاتٍ ^(٣) أن يحملوه فوق أعناقهم ، فلبّوا رجاءه ، وحيائهم بسط أحدهم كفا مملوءة فضة وقال : هذا هو الرهان فخذ

(١) متينة (٢) الناظرون (٣) وشك

حلّالا . فنظر الشيخ في وجوههم وقال : أظن أنكم أحوج إليه مني ، فخذوه
أنتم هبةً مني

وتوقع الناس أن يَرَوْا أثرًا لتلك اللطمة ، ولكن الشجيمان لم يُحِسُّوا
ما في كلامه من وخز ، واعتبروه قطعة من شهامته وكرم نفسه يشكر عليها
بدل أن يوبَّخ

ولما رأى شدة إصرارهم ، وأنَّ لا مَنَاصَ من قبول الرّهان ، مد يده
لأخذه قائلاً : إذا كانت هذه إرادتكم فدعوني أتصرف في هذه القطع
كما أشاء .

وما احتوت كفه تلك البَدْرَةُ حتى أخذ ينثرها فوق رؤوس
المُحْتَرِشِينَ . وسرعان ما تنقفتها الأبصار قبل الأحجار ، والتقطتها الأيدي
من مواقع الأقدام وشقوق الأحجار . وكانت وهي تنثر ، كأنها فلذ
أكبادهم تتساقط وتتطاير .

وما أقشعَ مطر الشيخ حتى اختفى شخصه . وانطلق الناس وهم ما بين
معجب بما رأى من قوة وسخاء ، ومسرور بما التقطه من القطع البيضاء .

الفصل التاسع عشر

حفلة حميدو

لما اختفى السبع عن أعين « الفتوات » والنظارة أخذ سمته إلى منزله ، وما وصل هناك حتى كان ذراعاه قد نفر^(١) ، وأخذت عروقه تدبض نبضاً قوياً وسريعاً ، وشعر بالألم يسرى إلى كل أعضائه فلم يجد بداً من الاستعانة بأحد الأطباء ففعل

لم تكن عيشة السبع كعيشة غيره من المجاورين التربين^(٢) خالية من ضروب الراحة وعلام السرور ، بل كانت عيشة رجل ميسور الحال ، هادى البال . فلم يتخذ مسكناً بالجامع كبعض إخوانه ، ولم يشارك عشرة في قاعة أو قاعتين كما كان حال غيره ، وإنما شغل شقاً جميلاً نظيفاً من بيت فى « باب الخلق »

كان ذلك الحادث حادث العصا كما سطرنا سبباً للتعارف بين بطلنا وجماعة « الفتوات » من دؤدؤ المصرى ، وحميدو الإسكندرى ، وشديد الجزار ، وشاهين البب وغيرهم .

وجذبه إلى الدخول فى غمارهم ، والانخراط فى سلكهم ، ما لاقى منهم من إكرام وتَجَلَّة وحفاوة وبشاشة ، وما لاحظ فيهم من آيات

أولى الناس ، وما قرأ على صفحات وجوههم من علامات الإخلاص
والوفاء والتضحية

وكان إعجابه بهم وبمزاياهم لا يقل عن إعجابهم به وإكبارهم لصفاته
والأرواح جنود مجنّدة . ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .
وسرعان ما حالّ هذا التعارف إلى صداقة ، وذلك الإعجاب إلى حب
متين ، فسأيرهم وداخلهم ، وآكلهم وشاربهم ، وقضى معهم الساعات
الطوال طوراً في محالّ شغلهم أو فيما يرتادون من القهوات ، وطوراً بالأزهر
ولشدّ ما كان يأخذك العجب حين ترى بعضهم متزيناً بأحسن لباسه
وجالسا بجواره في حلقة الدروس يسمع لأحد المدرسين مُنْفِضاً رأسه كأنه
فاعم لما يسمع

وحكمادى المقال أن هذا الزميل الجديد أصبح عماد معادتهم ، فلا
يتم سرورهم إلا به ، ولا يهنأ لهم طعام أو شراب لم يشاطرهم إياه ، ولا
تزدان حفلاتهم التي كانوا يقيمونها بين وقت وآخر إلا بحضوره ، فالتسوه وقت
فراغه -- وما أكثر أوقات فراغه -- وأطلقوا عليه وقت الدرس ، وماشوّهُ
في رحلاته القصيره المتعددة . ولم يألوا جهداً في تعريفه بكل من جمعهم
وإياهم جامعة القوه

وكان الشيخ كما علمنا ندى الكف سبط البنان ^(١) جمّ المروءة .
فغمرهم بجوده على تمنعهم ، وواسى فقيرهم بما سمحت به جدته

وبتطايير صيته في عالم « الفتوات » القاهرية خشيته جميع الازهرين
وتجنبوا إحفاظه ^(١) أو إيغار صدره ، إلا قنوبياً واحداً أبى أن يقر ساطانه
ويخضع لأمره ، وأنف أن ينافسه منافس في زعامته لحزب الصعديين
ولسكن سرعان ما اعترف على ملا من إخوانه بزعامه السبع التامة وأنفه
في الرغام . (٢)

كانت الليلة ليلة حفلة « لحيدو » . أقامها إخوانه احتفاءً بنجاته من
موت ورده على أثر اصطدام حصل في الموسيقى . وشارفت الساعة الثامنة
ولم يحضر مدعوهم . فخف دؤدؤ للبحث عن الشيخ والتسه فيما يتردد عليه
عادة من الأمكنة فلم يجده ، فأوفض ^(٣) إلى الازهر . وهناك على مقربة
من الباب الغربي وجد ضالته المنشودة

وجده يتعادث في شيء من الغضب مع أحد الطلبة ، فوضع كفه على
كتفه ، وقال إن أصحابك قد نفد صبرهم من انتظارك ، وقد تركتهم على
أحر من الجمر ؛ فهباً نذهب إليهم على عجل

ولكن المتكلم لم يحظ منه بغير ابتسامة متكلفة ، فقد استمر
الشيخ في حديثه مع محاوره قائلاً : ولا تزال مصرًا على متابعة الشكاوى
ضدى ؟ فأجاب الآخر بكل ما فيه من عزم : نعم . ولن أقلع عن ذلك ،
مالم تقلع أنت عن تحريض مأجوريك ضدنا

فهم الشيخ بصنع المتحدثي لمقام الزعامة ، ولكن دؤدؤا حال دون ذلك ، مقنعاً صديقه بضرورة التحول عن مكانه واللاحاق بمنتظريه ففعل بعد أن رمى وجه خصمه بهذه الكلمات : لك أن تنبج كما تشاء فما كان الكلب ضائراً الكواكب بنباحه ، ولك أن تنطح واسكن ماعسى أن ينال الوعل^(١) من الحفاة^(٢) بنطاحه ؟

ولم يرَ الشيخ سعيد الحملاوي في حلقات الدروس مدة ثلاثة أيام من مساء تلك المقابلة ، ثم ظهر غداة^(٣) اليوم الرابع في حلقة الشيخ « الأشموني » بعين سوداء ، وأنف مخدوش ، وجبين أشج وذراع معلق إلى صدره - ظهر كاظم الألم ، بين الانقباض والاستسلام .

ولم يعد جوابه لكل سائليه الذين شذَّهوا^(٤) لمراه الغريب ، والذين ذهب بهم الظنون في أمره كل مذهب هذه الكلمات : إن ما أصابني إحدى مشيئات القدر .

هكذا كانت إجابته المهمة التي لم تشف غليلاً أو تقنع مستفسراً . ولم يفتن السبب الحقيقي من تلك الجوع غير شخص واحد هو الشيخ السبع .

جاءه بعد انتهاء درس التفسير وقال مبتسماً وأمام جمع محتشد من الطلبة : إني أرثي لحالك ياشيخ سعيد ، وإنه ليعز علي أن أراك مشوّه الوجه مهيبض^(٥) الذراع

(١) التيس الجلي (٢) الصخرة الملساء (٣) بكرة
(٤) دهشوا (٥) مكسور

فأجابه الآخر - بعد أن شكره - جوابه المكرّر : إن ما أصابني إحدى مشيئات القدر . ولقي الفرصة سانحة للكلام فقال : بلغني أنك أصبحت الزعيم المختار لجميع الطلبة ، وإني لا أودُّ أن أحيّد^(١) بالشذوذ عنهم ، ولذا فقد صمّمت من الآن أن أنضوي تحت رايّتك ، وأكون طوع أمرك ، بل أستعديك^(٢) على درء ما عسى أن يهددني من ضرر . فلتكن حامينا كما أنت زعيمنا !

لم تَبْرَحْ^(٣) لهجته هذه بعض إخوانه ، إذ رأوا فيها لونا من الاستكانة والتذلل لا يليق بشخص عدّ نفسه زعيما ركّاحا من الزمن ، وعزّوا ذلك التقهقر السريع إلى ما حلّ به من يد السبع الشديد .

فقال الآخر : يسُرّني أن أسمع منك ذلك ، وليكني أتمنى أن يكون ما بدا على شفّتك مطابقاً لما يضمه صدرك ، وألا تكون كمن يُسرُّ حسواً في ارتغاء^(٤) .

ولقد أخطأ الطلبة في عزّوهم ما ناب زميلهم إلى يد الزعيم فانه برآه مما نسب إليه ، وإن كان هو سببه .

وحقيقة الأمر أن دؤدوا لم يعجبه تحدّي الحلاوي لصديقه الأعزّ ، فتربّص له في اليوم الثاني من غير أن يشعر صديقه ، وأنزل به ماشاهدناه ، وهدده بالقتل إن هو حمل على السبع أو وقف حجرة عثرة في سبيله بعد ذلك .

(١) أنفرد (٢) استعين بك (٣) تعجب (٤) يظهر خلاف ما يظن والارتغاء شرب الرغوة

كانت الحفلة على تواضعها مظهراً من مظاهر الولاء وتوثق عرا الصداقة بينهم استعملت فيها الدُّفُوفُ والمزامير ، وتخللها أكواب حللو الشراب . لا كؤوس الحَبَاب (١) . وكان أصحابنا جميعاً لا يَحْتَسُونُ العُقَار (٢) لا اعتقادهم بما فيها من مضار ، وكانوا ضد كل تلك السموم التي تهدم المُنَّة (٣) البدنية ، وتعبث بالقوى العقلية ، لحافظوا بذلك على سمعتهم ، وكانوا خير نموذج لمن يريد أن يندمج في مصافهم

خرج السبع من الاجتماع وهو أثلجُ ما يكون نفسا وأروح بالاً . وأضافت تلك الحفلة إلى دائرة معارفه شخصاً كان له اتصال كبير بحياته المستقبلية ، وأثر فعّال في الحوادث التي أخذت مكانها ، وفيما قُورِفَ من جرائم ضجت لها الأرض والسماء .

ذلك الشخص الجديد هو صاحب « القهوة الحسينية » بالقرب من مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه . نجم الدين سالم ولم يكن « نجم الدين سالم » هذا غير عيسى السكومي وكيل العصابة وذراع الرئيس الأيمن .

وشاءت الأقدار بعد أن رمت بأحدهما في حضن الآخر أن تقرَّب من هذين الرجلين السبع والسكومي ، وتربط حبال حياتهما ، وتذسج خيوط أملهما ، لتجرُفهما فيما تجرُف سيولها ، ولتخطمهما فيما بعد شر تحطيم .

(١) الخمر (٢) لا يشربون الخمر (٣) القوة

الفصل العشرون

المكاشفة

كان هذا الصديق الجديد أكبر سناً من السبع بقليل . أرَبَى (١) على الخامسة والعشرين ، أقرب إلى الطَّوَال وأبعد من المُبَدَّنين (٢) ، حديد العصب ، قوى العضل ، مستطيل الوجه ممتلئه ، بارز الحاجبين في غَاظ ، أَكْجَلَ العينين في اتساع ، أَشَمَّ الأنف ، عظيم الوحنتين ، عريض الدِّيَاجَتَيْنِ (٣) منتشر الأذنين ، طويل العنق في اكتناز ، يغطي شارباه المهذلان الكثيفان فماً متوسط السمة ، وينبت في وجهه لحية خفيفة حالكة السواد . أما لباسه فجلباب قُضْفُاض (٤) وشبه عمامة .

مضت سنتان على هذا التعارف سكنت فيهما نفس أحدهما إلى نفس الآخر ، وحلَّ كل محلَّ الثقة من أخيه .

كان الوقت مَوْهِناً حين جلس الصديقان يَصْطَلِمَانِ (٥) بنار القهوة ويخوضان في الحديث ، والحديث ذو شجون . وكان المكان خالياً إلا منهما ومن صبيٍّ منزوٍ وراءِ حِوَانٍ مستغشٍ بثيابه ، قد أخذ الكرى (٦) بمعاقد جفنيه

(١) زاد (٢) السَّمان (٣) الحدين (٤) واسع

(٥) يستدفنان (٦) النوم

وبعد التحدث قليلا في الأحوال العامة استطرد السبع إلى مفاتحة صديقه في أمر شغل باله منذ أيام قلائل فقال :

إنك يا نجم الدين تعتبرني صديقا مخلصا لك ؟ فقال الآخر : من غير ما شك ، وإني لى أعظم الشرف أن يكون مثلك في عدد أصدقائي فقال : ولماذا إذن وكأنت ^(١) عني بعض أسرارك ؟ لقد لاحظتُ منذ أربعة أيام أنك غير من عهديتُ منذ شهر . لاحظت قلة ابتساماتك وقهقهاتك السارة لزئربك وعارفيك ، وانقباضك وانزواءك على غير عادتك ، ولحت على محبتك آيات الهم المقلق والتفكير الشاف ^(٢) فهل عراك خطب لاتود وقوفنا عليه ، أو كظنتك ^(٣) ضائقة تذكره أن نساعدك على الخلاص منها ؟ خبرني يا نجم الدين عن سر هذا التطور السريع ، والتغير العجيب ، فإنني حق معرفته . وإذا ساء لك أن تغفر ^(٤) أمرك عن بقية أحمالك فلا يسوغ لك مطلقا بعد أن علمت من أمرى ما علمت أن تعاملني تلك المعاملة . على أنى ضربت للأمر جبروته ^(٥) أن أكشفك عن الحقيقة تكشيفا ^(٦) ، إذ ليس من مذهبي ولا ديني أن أروح وأغدو قريالين ، ثالج الفؤاد ^(٧) ، وأحد أصدقائي كاسف البال ظاهر البلبال . ولقد كان يمكنني أن أستطلع الخبر من دؤدؤ وحميدو أو غيرها ، ولكنني لم أرد ذلك ، وآثرت أن أقف على جانب الحقيقة من فلك أنت .

(١) حبست (٢) الهازل (٣) بهظك وكربتك (٤) تسر
(٥) وطننت عليه النفس (٦) أكرمك على اظهارها (٧) مطامنا

أثرت هذه الكلمات المجسمة للإخلاص والمعبرة عن عناية صاحبها
وألمه في نفس السامع أيما تأثير فجاشت (١) نفسه إلى صديقه . ورثيت
دمعتان حارَتان في عينيهِ لم تُتَمَّا (٢) أن تحدثتا إلى خديه وقال :
لله ما أكره إخلاصك يا سيدي الشيخ ، وما أعمر قلبك من
المروءة ! وإن ما سمعته أذناي الليلة ليفوق كل منظر ، وليدُلُّ على
ماللاطف من كرم الأرومة (٣) وعظيم الخطر (٤) ، ويبرهن على أن فراستي
فيك كانت صداقة ، وأنى رميت عن قوس الحقيقة حين كوّنت رأبي
فيك منذ سنتين .

ثم خانه صوته فتعثرت الكلمات على لسانه برهة ، ثم ارتدت
إلى مستقرها .

فقال السبع مداغياً ومتبسماً : لله أبوك يا نجم الدين ! ما ظننت قبل
الآن أنك خطيب مفوّه ، وما حسبت أنك تستطيع أن تحمل لسانك
ما يجول بنفسك ، وإن كنت كبعض البلغاء يرتج عليه حين تُنشر
الأذان ، وتفرغ الأذهان . والآن يحسن أن نتناول القهوة فلقد بردت ،
ولعلها تطلق لسانك فنلتقط الحقيقة من طرفه .

ثم هاهاهاة متصنّمة ، وأفرغَ فنجانة القهوة في فيه . وحاكاه
صديقه .

بعد ذلك شرع الكومي بسرّ قصة غمه ، ويوضح سرّ همّه فقال :

(١) أقبلت (٢) تلبّثا (٣) الأصل (٤) القدر والمنزلة

قبل أن أظلمك على خبيثة أمرى أسألك الصفح عن تذمى من مناداتك^(١) بالحقيقة قبل الآن ، فإن الحوادث علمتى كيف آخذ بالحيلة وأثر سوء الظن بالناس ، وما سوء الظن إلا عصمة . وربما يسرك أن تعلم أنك أول فرد اخترته ليكون موضع سرى السكاتم ، ورائى رعى الأليم . فمع ما بينى وبين أصحابنا من تبادل الثقة وعظيم المحبة لم أفكر دقيقة ما فى أن أصطفى واحدا منهم ليكون وعاء مكنونى ، أو صخرة دخيلتى . . . ولولا ما عهدت وأعهده فيك من الأمانة والشهامة لترددت كثيرا قبل أن أفقى إليك بحكايتى

فقال الآخر : عفوا يا نجم الدين فما أردت من طلب الأمر أن أثير شجنا دفيناً ، أو أنبش أسى لاذعاً . وإذا كان ما ستقصه على يضاعف من ألمك ، بدل أن يضاعف منه كما أملت ، فأنى متنازل من الآن عن هذا الطاب . وحسبى أن أشاطرك حزنك من بعد حتى تمسكنى المقادير من إزالته .

فابتسم نجم الدين لأول مرة منذ ليال وقال : وكيف يمكنك يا صديق أن تزبل بمبعث بئى^(٢) إذا كنت تجهله ؟ لا . لا . يا سيدى . إن تنازلك عن سؤالك لا يجذبنى فتىلا ، بل إن إصرارك بالعكس قد يكون فيه شىء من المنفعة لى . على أن فكرة إخبارك بحالى كانت إلى الليلة فى حيز الإمكان ، وغاية ما فى الأمر أن استفسارك عجل تنفيذها . ورب

تعبيل أجل^(١) نفعا . وهانذا واقفك على كل ما تشاق إليه :

إن بلدى الذى ولدت فيه وقضيت بين جوانبه شرح^(٢) شبابى هو « كوم النور » . واقد نشأتى والداى تذبذبة طيبة وأحاطنى بكل ضروب الرعاية ، وإن لم يُعَنِّيا العناية التامة بأمر تعليمى ، بل كان جُلُّ مهمما أن يريانى فى صحة جيدة وبذينة سليمة .

رأى والدى أن يُشركنى معه فى زراعة أرضه ففعل . وأظهرت من الجِد والنشاط فى خدمة أرضنا ما أعجِب به أبى وأخى الأكبر ، وما زلت أفلح الأرض وأزرعها حتى كَوَيْت^(٣) . وحينئذ رأى والدى أن يزوجنى من ابنة عمى التى كانت تعيش معنا لأنها يتيمة ، فأيت معللا إبائى بأنى أعتبرها أختا ، وأن المرء لا يحق له أن يتزوج من أخته ، فلم يرق هذا فى عين أبى سببا ، وألح علىّ كما ألحت أمى ولكن بلا جدوى .

ولما وجد والدى إصرارى الشديد على الامتناع لجأ إلى سلاح آخر حسب أنه يَفُكُّ من غَرَب عزيمتى ، ويضطرى للاقلاع عن فكرتى . فهددنى أن يتبرأ منى هو وبقية الأسرة إن أنا ألحمت فى عنادى ، وركبت متن المعارضة .

ولكن ذلك لم يثُن من عزمى وظهرت حقيقة بمظهر الولد العاق لأبيه الشفيق ، ثم فاض شَجْوَى ، ولم أتماسك أن أطلعه على سر امتناعى الحقيقى . أخبرته أبى أحب فتاة معينة ، وأنى مصمم على الاقتران بها

ورغم خَطْبَتِها لشخص أعرفه إمّا باللين ، وإمّا بالقوة .
وما سمع أبى هذه المفاجأة حتى كاد يطير لبّه ، وتقف نبّضات قلبه ،
وصاح : لست بولدى ، ولا أعرفك بعد هذه اللحظة ! وافضيحتاه ! !
أغرب عن وجهى ! وإن هذا البيت الذى أظلك عشرين سنة لن يظلك
دقيقة أكثر ! !

طُرِدْتُ من حضن أهلى طرد الكلب الأجرى ، وجانبى كل من
عرف قصتى بجانبه المجرى ، فهِمْتُ على وجهى فى الحقول ثلاثة أيام
لا أعرف لى مُرَاغَمًا^(١) ، وتحول عشق تلك الفتاة القروية إلى جنون مُطَبَّق
تذكرت أن يوم زفافها قد حان فعدت إلى القرية — ولا أعرف
كيف عدت — فى مساء اليوم الثالث من شرودى . وقضى الله أن يكون
أول من يلاقينى فى طريقى العدوئى الألد ، ومنافسى فى حبيبتى . وكان
على نَجَز^(٢) أن يعود من عمله إلى بيته .

ذكرنى مرآه بمن أهوى ، وعجبت كيف يحظى بها وأنا حى . وقبل
أن يأخذ الحيطة لنفسه ، التقطت حجراً من الأرض وهشمت به رأسه
فخرّ صريعاً .

(١) مذهبا ومهربا (٢) شرف وقرب

الفصل الحادى والعشرون

السجن

لم أشعر بعظم الجريمة إلا بعد وقوعها . فقد وقفت أمام ذلك القتل مقيّد الرجلين مدة ظننت أنها ساعات ، ثم فررت من هول ذلك المنظر . . . وهنا سكت لحظة كأنه لا يود أن يعيد إلى خياله تلك الصورة المؤلمة . ثم أردف يقول : فررت ولكن من الموت إلى الموت !

فقال له صديقه وماذا تعني بقولك هذا ؟ فقال : أخذت أجرى فراراً بحياتى وأبوقاً^(١) من ذلك المنظر الفظيع ولكن أين الفرار وقد رنّ الأفق حولى : اقبضوا على القاتل ! اقبضوا على القاتل !

خيل إلى أن الناس وقفوا فى كل مكان يترصدون ظهورى ويتهبثون للأخذ بتلابيبى ، وأن الفضاء حولى وفوقى يَمْوجُ بالأشباح صارخةً لاغيةً^(٢) . آه ما كان أصعبها ساعة أغشى القدرُ فيها عيني وأصمّ أذنى ، وطاح بصوابى ! وما زلت أجرى كالمأموم^(٣) حتى وجدت نفسى فى أحضان جماعة أعرفهم من أهل بلدتنا وأمام بيت العمدة .

فصاح الكل : ما الخطب ؟ وما الذى أشخّصك^(٤) هذا الإشتخاص ؟ فقلت بصوت مختنق : لا شىء . لا شىء . فقالوا لا شىء ، وأنت بهذه

(١) هروباً (٢) متكلمة (٣) المجنون (٤) أزعجك

الحالة المُرِية ؟ ألم تنظر إلى ملابسك ويديك ؟ ألم تسفك دم إنسان في طريقك ؟ ألم تقتل السيد بن شعبان ؟ فقلت . بلى قد قتلته .

نظرت ولم أكن قد لاحظت شيئاً مما لحظوا فإذا آثار الجريمة الرائعة عالقة بملابسي ، وإذا بقع الدم الحار تسطع على كفي وذراعي وقدمي . وسمعت طنين آلاف من الأصوات البعيدة يرن في أذني الدم ! . . . الدم ! . . .

تمنيت أن تغوص بي الأرض غَوْصاً لا رجعة منه ، ولو استطعت الانتحار لما ترددت لحظة في إنفاذه . وظهر أمامي وجه أبي العزيز وقد علتة سحابة دُكْناء^(١) لم أر في حياتي مثلاً ، وانهمل دمه على خديه مِدراراً

قلت : ارحمني يا أبي ! اغفر لي زاتي ! فقال : أطلب الرحمة من القضاء ، والغفران من الله . أما أبوت فلا رحمة لديه لمثلك ، ولا غفران عنده لعقوقك وقتلك !

وفي هذا الوقت تعالت الأصوات من كل جانب نادية القتل ولاعنة القاتل . وأقبل الخفراء والعمدة فكبلوني بالحديد ، ثم ساقوني في نفس الليلة إلى ميت غمر ، فقضيت ليلة سوداء بين جدران سجنها وفي اليوم الثاني أخذ التحقيق مجراه واعترفت بالجريمة

ولما خلّوت إلى نفسي ، أخذت أفكر في حالتي التاعسة ، وفي طريق

(١) ضاربة إلى السواد

الخلاص من ذلك الموت الأحمر ، الذي ينتظرني كل دقيقة . وتمثلت لي
الدنيا بجمالها وزخرفها ، وعزّ على أن أفارق الحياة ولم أتملّها (١)
وأخيراً قرّ رأيت على الحرب ، وبدّ إلى الأمر مستحيلاً لأول وهلة ،
ولكنني وجدته بعد ذلك ممكناً .

لجأت إلى قوتي وكانت عظيمة في ذلك العهد فاستخدمتها في ليّ
قضيبين من قضبان النافذة الوحيدة لفرقتي ليّة سمحت لي بالمرور ، وتمكنت
من الفرار

لبثت ردّحاً من الزمن متفكراً ، تترا ما في البلاد ، وتتهاداني الخطوب
مشرّد الفكر ، مروّع القلب ، مسهّد الجفن ، حتى رسّاني التسيار على
القاهرة فولّجتها .

ولجّحتُ ذلك الصدر الرحيب الذي يسع البارّ والفاجر ، والبريء
والوازر (٢) ، ولوفى والغادر . لذتُ بذلك الملهجاً علّني أصيب فيه خلاصاً
من بلّالي ، وهذأةً لنفسى ، ولكن أنى للمجرم أن يقرّ له قرار ، أو
تفارقة الوسوس والأفكار ؟ أنى له أن يلتقي أزواجه (٣) في حىّ والمشقة
تناديه ، أو يثق بنجاته والجواسيس تعاديه ؟

ولكن القاهرة كالبحر الواسع تمخّر فيه السفن ولا تصطدم . وكذلك
كنت كسفينة البحر أسير هنا وهناك بدون أن أعبر طريق مطاردي
إلا خطرة (٤)

(١) استمتع منها (٢) الآثم (٣) يفيم مطمئناً (٤) أحيانا

اصطدمت مرتين فقط منذ وطئت قدمي أرض القاهرة بأولئك
المتبهمين لخطاي . كانت إحداهما أيام كنت أشتغل بحانوت جزار بالسيدة
زينب ، واقدرت من قافي قبل انقضاذه على زمن قصير . وكانت
الثانية أيام كانت مهنتي مساعدة تجار الفخار من القلل والأزيار بساحل
« روض الفرج » .

لا تعجب يا سيدي الشيخ من تنقلي من حرفة إلى أخرى لا مناسبة
بينهما فقد علمتني الحاجة أن أميل مع الرياح الهابة ، وأن أصطنع كل مهنة
مؤمنة ، ودفعني حب الحياة إلى التذكر والظهور بمظاهر مختلفة .

كرّ أربع سنين متتالية ولم يزعجني مزعج أو يطرأ طاري حتى أيقنت
أن عصر الإرهاب قد زال ، ومدة المطاردة والمراقبة قد دثرت . وشعرت
أنى طليق ، وأخذت أننسم نسيم الحرية ، وتدب روح الحياة إلى بعد أن
كادت تطير مني .

والكنني كنت مخطئا في هذا الزعم ، فمذ أربعة أيام فقط لحت
شبح الماضي يظهر في أفقي ، ولحظت أحد الجواسيس يراقبني بعناية وعن
كذب . رأيت ثلاث مرات في أوقات مختلفة خلال الأربعة الأيام
الأخيرة ، وسمعته يتساءل عني وعن اسمي وحرفتي من بعض جيرانني ،
ويتسقط أخباري من بعض زائري ، ولكنه لم يواجهني بسؤال ما ، ولعله
لما يكون رأيه في .

غير أن ضميرى يوحى إلى الآن أن النامورة ^(١) قد نصبت ، وأن القنينة لا محالة متردبة ^(٢) فيها ، ما لم يتخذ احتياط سريع .

فسأله صاحبه المشدوه : وهل أخذت الحبيطة التى تشير اليها ؟ فقال نعم . فسأله ما هى ؟ فقال أن أغادر هذا الحىّ حالا وبلا تردد وأعمد إلى التسكر كما كنت أفعل منذ زمن .

فقال ولكن هل تعتقد أن هذا سلاح ينجيك من ذلك الخطر ؟ فقال إني لا أعتقد أنه السفينة الوحيدة الموصلة إلى بر السلام ، ولكنى جربتة فى العهد الغابر فأخرجنى من مأزق ، فلم لا يساعدنى هذه المرة ؟ فقال : إذا كان عندى حل لمعضلتك خير من حلك فهل تقبله ؟ .

فقال ونعمى عين ^(٣) ولكن ما عسى أن يكون هذا الحل ؟ على به فانى أشعر بالحاجة إلى من يفكر لى .

فأجابه صاحبه : الذى أرنتيه للخلاص من هذه الورطة أن تطير من القاهرة كلها ، وتختفى نفسك فى مكان أمين ، حتى تنقشع تلك السحابة السوداء . وإن ذلك المكان الذى سيظلك ويحميك هو قريتى « كفر الجهنمى » . فهل تقبل أن تذهب اليها وفى صحبتي ؟ .

فأصاب الآخر ذهول لم يُجر معه جواباً لأنه لم يتوقع مثل هذه المفاجأة .

(١) الشرك (٢) ساقطة (٣) أفهل ذلك إنعاماً عليك وإكراماً

فردد السبع : هل قبلت أن تسافر يا نجم الدين معي ؟ يظهر أنك
فقدت لسانك أو عقلك ، ولذلك فأنا أجيب عنك بالقبول .
ثم أدنى فمه من أذنه كمن يُسرُّ أمراً هاماً هامساً : اصغِ إلى . غداً
في الساعة العاشرة صباحاً سأحضر في عربة لحملك إلى المحطة . فلتكن
على أتم الاستعداد ، وحذار أن تتأخر فليس في أمرك فُسْحَةٌ للتباطؤ .
ثم سلم وانصرف .

وفي طريقه إلى منزله خيَّلَ إليه أنه يسمع أقداماً تتبعه ، فرمى بنظرة
وراءه ثم بثانية ، ولما لم يجد شيئاً غريباً يَمُّ نحو مسكنه . ومكث في فراشه
بعض ساعة تنأى به الأفكار وتقرب ، وتطفو وترسب . ثم حاق طائر
الكري فوق جبينه ففرق في نومه .

الفصل الثاني والعشرون

الفرار

استنَرَ الصباح يُزجى ^(١) السحاب ، وأطلَّت مُقَلَّة المَهَاة ^(٢) على الناس
فهبوا للأطلاب ، والشيخ السبع لا يزال يَفِط في نومه ، ويسبح في أحلامه .
وكان سلطان النوم أبي أن يَفُتته من قبضته ، حتى يستوفي حق
التأخير لساعته .

(١) يسوقه سوقاً رفيقاً (٢) الشمس

ولم توقظه إلا نقرة الخادم على باب غرفته ففتح عينيه مذعوراً .
وتذكر الميعاد فهب من فراشه ، وأسرع في إعداد ما عزم على أخذه معه
وحوالى منتصف الساعة العاشرة كانت عربة تُقلّه من ميدان باب
الخاق إلى شارع الحسين . وعلى مقربة من القهوة الحسينية وقفت العربة ،
وأطلّ الراكب لينظر هل صاحبه على استعداد للرحيل . ولكن بدل أن
يجد صاحبه وجد ثلّة من رجال الشرطة يحيطون بالقهوة ، ولاحظ عمّاع^(١)
من الناس يتهايمسون ويتغامزون ففطن بنظرة واحدة إلى ما حدث .
همّ بالترجّل ليستوثق مما جرى ، ولكن جسماً عظيماً دفعه إلى مقعده
من العربة هامساً في نفس اللحظة : خير لك أن ترحل من هنا .
وقفز ذلك الجسم العظيم إلى جانب الراكب آمراً الحوذي بالعودة
وبسرعة السير .

« الحمد لله على أنك هنا وبجانبي ، وعلى أن صديقنا قد أفلت قبل
حلول الصاعقة » .

انبعثت هذه الكلمات من فم الراكب الجديد بعد أن استقر في
مكانه .

فقال الآخر : إني أشاطرك الحمد على افلات صديقنا العزيز ، ولكن
لا أفهم حمدك على أنى بجوارك ، فهل من خطري يهددنى أيضاً ؟
فقال دودو : نعم يا صاحبي . لقد أرادت قبضة الجاسوس أن تحتويك

ولكن الله سلم فأفلت منها . واليك الخبر كما شاهدت وسمعت :
كنت في حانوتي الساعة الثامنة أعد ما يحتاج معاملة من اللحم
وإذا « بهشام » صبي نجم الدين يهرول في طلبي ويخبرني أن « عمه »
يلح في أن يراني حالا . فظننت أن المسكين أصيب بعارض فجائي لأني
لاحظت أخيراً أن حالته غير عادية ، وربما لم يفتك ملاحظة ذلك
فقال الآخر : نعم لاحظت شيئاً من ذلك ، ولكن استمر في الحديث .
فقال : ولكن الولد طمأنني من هذه الجهة ، وأنبأني أن عمه على نية السفر
اليوم معك . ولم أكن أعلم بعزمكما هذا الفجائي . فذهبت بي الرّيب
مذهبة في شأن هذا السفر ، وأخيراً صحت الصبي إلى القهوة .
وهناك وجدت نجم الدين يستعد حقيقة للسفر . فلما رأي
هشّ في وجهي ، ثم جذبني من ذراعي إلى ركن بعيد من القهوة وقال :
أظن أنك دهش مما ترى ، ولكنها إرادة صديقنا الشيخ . رأى بعض
الضعف في صحتي ، وأن تغيير المناظر ربما يفيدني فتفضل بأخذني معه إلى
بلدته بضمة أسابع ، ولما كان الولد لا يعتمد عليه وحده في إدارة القهوة فإني
أرجو منك ومن إخواني أن تشملوه بشيء من رعايتكم حتى أعود . ولكم
الشكر أولاً وآخرًا .

ولم يرني شيء من أمره إلا كثرة تلفته وإطالاه كثيراً خارج
الباب ، وحملت ذلك على أنه يتربّأ أو يترك . وحوالي الساعة التاسعة
تركني أشرب الشاي ، وأخذ مكانه عند الباب متلفتاً يميناً وشمالاً كأنما

كان يحسّ بدنوّ الخطر . وقبل أن أعرف سبب وثبته رأيته يقفز تَجَاةَ الباب البحرى صائحا في وجهى : لقد جاء الجاسوس . . . فإلى اللقاء الليلة عند سفح الجبل .

وفى دقيقة لم يُرَ له أثر فى الحى الحسى .

طار وتركنى فى جو كله إبهام وأنغاز ، ولم أُحِطْ إلى هذه الدقيقة بسر هذا الهروب والاختفاء . فقال صاحبه : لا تمعّب فالناس أصرار غامضة قد يوضّحها مرّ الحديد بن^(١) . وماذا فعلت بعد هذه المفاجأة ؟ فأجاب : نهضت إلى الباب لأستطلع مبعث الذعر وداعية الفرار فإذا أمامى رجل هزيل البدن ، طويل القامة ، مقتول الشاربين ، عليه لباس من صوف يعلوه معطف أسود ، وعلى منكبيه وحول رقبته برّد صوفى ، ويده خيزرانة ينكت بها الأرض . فلما رآنى حيأنى بلطف قائلا : لا أحسب أنك صاحب القهوة ، فأين هو ؟ فأجبت بهدوء وتجاهل : سيحضر بعد قليل فتفضل بالجلوس . فصاح مدعورا : سيحضر ؟ ولكنى رأيته منذ برهة واقفا مكانك ، فأين قرّ ؟ فقلت : لا أعتقد أن هناك ما يدعوه للفرار من وجه معامليه ، وما أحسبه إلا ذهب لبعض شأنه وإلا عائدا بعد قليل

ولكن الجاسوس لم يُعِرْ كلامى أدنى انتباه ، بل اندفع إلى داخل القهوة يفتش أركانها ويقاب أثاثها مزججرا لاعنا . ولما لم يجد ضالته ضرب كفا بكف وصاح : أنا طفل مغفل ! لقد أفلت الشيطان هذه المرة كما

أقلت منى منذ سنتين فى الوقت الذى اعتقدت فيه أنى قانصه لا محالة . آه
ماذا يقول الرؤساء عنى ؟ وكيف ينظرون إلىّ بعد هذه الغلطة الفاحشة ؟
واستمر يندب حظه ، ويلعن غفلته وإهماله ، ناسيا مركزه ومسقطا
نفسه فى أعين سامعيه حتى كدت أرثى لحاله . وسألت : هل أتى نجم الدين
أمرا إذا ^(١) يستحق القبض عليه ؟ فصاح ومن هو نجم الدين ؟ قلت
صاحب القهوة . فقال يظهر أنك صاحبه ولكنه خدعك أيضا فليس اسمه
نجم الدين بل ولكن هذا لا يعنيك ، فلسنا هنا لنصحح الأسماء
ثم تذكر مهمته التى أتى من أجلها وخيبته المضاعفة ، فصاح بملء
حنجرته : لقد فرّ هذا اليوم ، ولكن لا يأتى الغد حتى يكون فى قبضتى
الحديدية !

وكان رجال الشرطة قد وصلوا ، فأخذوا فى التفتيش أيضا ، وانبدشوا
فى الطرقات المجاورة يستقصون أخبار الفار ، ويتعمقون آثاره ، سالكين
الطريق الذى سلكه على زعمهم

كل هذا الجحش واقف بالباب يكاد يتميز من الغيظ ، ويتمزق من
الألم والحسرة . ثم مال نحو الضابط قائلا : إني لم أتوقع . طلقاً أن يُحقق
مسمائى هذا الإخفاق الشنيع ، وإلا لما أزعجتكم من مكانكم هذا الإزعاج
على أنى أعرف شريكاً لهذا الفارّ رأيت به يتأمر معه فى ساعة متأخرة من
الليلة البارحة ، وقفوت أثره حتى عرفت منزله بباب الخاق . وهو شيخ شاب

(١) منكراً فظيماً

يرتدى جبة وقططاً ، يلوح عليه أنه من الموسرين ، فهل ترى مهاجرة
بيته لعلنا نعتز على شيء ، يدلنا على مقر هذا الاعمين ؟ ...
وهنا لمحتُ شخصك نُطِلَ من العربية ؛ فأسرعت إليك لأحذرك .
هذا كل ماجرى فما رأيك ؟

فأجاب : رأيي أن أخلص صديقي مما هو فيه ، ولو أدى ذلك إلى حتفي
فصاح الآخر : وهذا هو رأيي أيضاً ، ولو أنه أخبرني بشيء عن هذا
الجناسوس لأزهقت روحه من زمن ، ولكن كيف نصل إلى مبتغانا ؟
فأجاب : هذا ميسور جداً على شريطة أن نعتز بصديقنا اليوم أو الليلة .
فعليك إبصالي إليه ، وعلى التدبير للنجاة بعد ذلك ولكن إلى أين
تذهب بنا العربية الآن ؟

فقال دؤدؤ : إلى منزلي بالسيدة ، فأني لا آمن أن يمسك سؤؤ إذا
ذهبت إلى منزلك وقد سمعت ما قصصت عليك .

الفصل الثالث والعشرون

عند سفح الجبل

لم تتبدد ألوان الشفق في المغرب مساء تلك الليلة حتى كان السبع ودودؤ وخمسة آخرون من أصحابهما يتفقدون أثر صاحبهم القار ويَبْكُون ^(١) مُكاء متتقا عليه .

ولطالما كانت البقعة التي يضربون فيها الآن — وهي بالقرب من جبل الجبوشى — مسرحاً لنزال وطمعان ، بعيداً عن العيون والآذان . ولطالما تجلّت عليها قوى « الفتوات » وقيس ما منحهم الله من هبات ورددت جوارنها صيحات التشجيع للظافرين ، ورنات الأسف والحزن من أنصار المقهورين .

حضر أولئك « الفتوات » مسلّحين بقبضاتهم الحديدية وسكاكينهم البتارة لا ليحسموا نزاعاً أو ينفذوا رهاناً ، ولكن ليبعثوا عن صديق لاذ بالجبل ، ويحموا مطارداً هدّد منه الأجل .

بحشوا وصفروا حتى أخذ اليأس من لقائه يدبّ إلى قلوبهم ديباً العقار في الأعضاء . وأخيراً لمحا شبحاً يتقدم لا من الجبل ولكن إلى الجبل فما شكّوا في أنه شبح صاحبهم المطلوب . فأسرعوا إليه وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم .

حَسَرَ الْفَارَّ عِبَانَهُ عَنْ رَأْسِهِ فَأَبَانَ وَجْهَهَا طَرَعَهُ الْبَاسُ بِطَابَعِهِ وَسَرَى
التَّسْلِيمُ إِلَى مَخَافَتِهِ ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ : أَشْكُرْكُمْ عَلَى أَنْ عُنَيْتُمْ جَمِيعًا
بَأَمْرِي . وَهَذَا مَا يَتَوَقَّعُهُ الصَّدِيقُ مِنْ أَصْدِقَائِهِ إِذَا جَدَّ الْجِدُّ وَعَزَّ الْمَهْرَبُ .
ثُمَّ مَالَ نَحْوَ السَّبْعِ قَائِلًا : آمَلُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ صَبِيتَ لَكَ تَعَبًا أَوْ قَلْبَتَ
تَرْتِيبًا ، فَمَا دَارَ بِخَلْدِي أَنْ ذَلِكَ الشَّرْطِيُّ السَّرْتِيُّ سَيَنْسِفُ أَمَلَنَا فِي السَّفَرِ
عِنْدَ آخِرِ لَحْظَةٍ ، وَلَكِنْ هِيَ الْمَقَادِيرُ تَتَصَرَّفُ فِينَا كَيْفَ تَشَاءُ . إِنْ أَقَلَّتْ
الْمَرَّةُ مِنْهَا الْيَوْمَ فَسَتَبْطِشُ بِهِ فِي الْغَدِ ، وَلَخِيرٌ لِي أَنْ أَسْلِمَ نَفْسِي لِلْقَضَاءِ لِيَنْفُذَ
حُكْمَ الْإِعْدَامِ فِيَّ ، وَأَكْفِيهِمْ بِذَلِكَ مَثْوَنَةً مَطَارِدَتِي وَتَصِيدَتِي ، وَأُرْتَاحَ أَنَا
أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ الْغَرَامِ ^(١) الدَّائِمِ وَالتَّخَوُّفِ الْمَمِيتِ . إِنْ الْمَرَّةُ يَمُوتُ مَرَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا مِتُّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ مِثْلَ ذَلِكَ الْجُرْمِ الْفَظِيعِ . لَقَدْ قَتَلْتُ ذَلِكَ
الْقُرُوءِيَّ انْتِقَامًا لِحَبِي ، وَخُلْتُ بِذَلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالذَّائِدِ الْحَيَاةِ .
فَلَمْ لَا يُدِيلُ لَهُ الْقَضَاءُ مَنِيَّ وَيَحْرَمُنِي الرَّاحَةَ وَلَذَّةَ الْعَيْشِ أَيْضًا ؟ لَقَدْ جَلَبَتْ
فِيَّ مَضَى بَعْضِ الشَّرِّ الْمُنْ آوَوْتَنِي وَرَثَوْنَا لِحَالِي لِأَنَّهُمْ أَظَلُّوا قَائِلًا ، وَحَامَتْ
حَوْلَهُمُ الشُّبُهَاتُ لِأَنَّهُمْ عَاشَرُوا أَثِمًا . فَلَمْ أَجُلْ ^(٢) عَلَى أَعَزِّ إِخْوَانِ عِرْقَتِهِمْ
فِي حَيَاتِي شَرًّا لَيْسُوا جُنَاتِهِ ، وَأَقْلَقَ بَالَهُمْ مِنْ أَجْلِ هَفْوَةٍ ارْتَكَبَهَا غَرًّا
جَاهِلٌ ؟ لَا . لَا . يَا إِخْوَانِي . لَقَدْ صَمَّمْتُ كُلَّ التَّصَمُّيمِ عَلَى أَنْ أُرِيحَ
نَفْسِي وَأُرِيحَكُمْ ، وَمَا أَتَيْتُ إِلَى هُنَا إِلَّا لِأُودِعَكُمْ الْوَدَاعَ الْآخِرَ ، وَلِأُطْلِعَ
بَعْضَكُمْ عَلَى مَا كَتَمْتُهُمْ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَعْتَبَرُهُ غَشَا وَخَدِيعَةً . وَالْآنَ فَإِلَى الْلِقَاءِ

في دار غير هذه الدار التي لم أذق فيها للسعادة طعماً ، ولم أعرف للسلام
لونا اللهم إلا أيام كنت طفلاً !

أُقيتُ هذه الخطابة تصحب كل كلمة منها رنة اليأس من الحياة
وتنمُّ مقاطعها على ما أخذ الرجلُ به نفسه من التسليم لقضاء الله والتدم
على ما فات أُمَامَ جمع دَهِشٍ مما سمِعَ ، متألماً لحال صاحبها .
أُقيت فلم تحرك منهم لساناً ، ولكنها حركت منهم عواطف وقلوباً
ولم تُثر منهم حماسة ، ولكنها أثارت منهم زفَرَات ودموعاً .

إيه الرجال ! عهدي بكم شجعاناً ، فلم ظهرتم بمظهر الضعف ؟
وعهدي بكم صاخبين ^(١) متحمسين ، فلم هذا الوجوم ^(٢) والصمت ؟
وأنت أيها الخطيب ! لقد كنت بالأمس القريب ثابت الجأش فهل
ننقَّتْ ^(٣) عاصفة واحدة جيلَ ثباتك ؟ ماضى العزم فهل فُلَّتْ حادثة
واحدة غرَّبَ عزَماتك ؟ كبير الرجاء فهل قطع الجاسوس آخر خيط من
خيوط رجائك ؟ إنك لم تنزل بعيداً عن يد القصاص فلماذا هذا اليأس
والاستسلام ؟ إنك فرت في الصباح حرصاً على حيائك فلم ترم بها
طائفاً بين فككى الحمام ؟

حقاً إن الحوادث لتحوّل الشجاع جباناً ، وتخلق من الحيوان إنساناً .
وحقاً إن المقادير لتعبثُ بأمل الآملين ، عبثها بمخاوف اليائسين ! !

وليت شعري هل نالت تلك الحكامات المؤسّسة من قلب السبع

(١) كثيرى الجلبة (٢) العبوس والامطراق (٣) زعزعت

مثل ما نالت من قلوب السامعين ؟ وهل نفذت إلى مواطن الإحساس منه نفوذها إلى الآخرين ؟ وإن فعلت فلم لَمْ يبدُ لها أثر في كنجريته ، أو تردد لها زفرة بين جانبيه ؟

الحق أن ذلك الزعيم لم يكن أقل تأثراً بما رأى وسمع من إخوانه ولكنها الطبيعة حبه^(١) ما لم تحب كثيراً من الناس . حبه الرزانة الخارقة ، وقوة السيطرة على مشاعره ، والتشبث بالأمل لآخر برهة . ولطالما هزأ في نفسه بما يبدو على الناس من مظاهر الضعف والاستسلام البشري والعواطف الجياشة وعد ذلك نسوياً .

لما انتهى نجم الدين من حديثه هم بترك أصحابه لينفذ ما اعتزمه ولكن يد السبع قبضت على ذراعه ، وتحرك فيه بالكلام قائلاً : إنك لن تفعل هذا أخرى الليالي^(٢) . وإن فيما انتابك خلال كل هذه السنين الطويلة لتكفيرا عن إثمك . فلا تضح بنفسك ، ولا تحملها مالا تُعيد^(٣) . وهأنذا أتولى أمرك ، وأخط لك طريقاً آخر في الحياة يبدى

ثم التفت إلى إخوانه وقال : لقد طال مكثنا فلننطلق انطلق الجماعة متفرقين ، وتخلف السبع والكومي في مكانهما قليلاً ، ثم سارا ميممين نحو باب الخلق .

ولما كانا على مقربة من بيت أبيض اللون همس السبع في أذن صاحبه

(١) منحه (٢) أبداً (٣) تطيق

ببعض كلمات، فتقهقر إلى ركن مظلم. وهروول هو نحو منزله ، فكث دقائق قليلة ، ثم عاد

أخذا ستمتهما إلى قليب ، وهناك قضيا الليلة في ضيافة كريم من معارف السبع . وفي اليوم الثاني كان القطار يحملهما إلى « زقى »
وصلنا زقى مؤصلين^(١) ، وارتأيا أن يمضيا عمر الليل في ميت غمر ففعلا . وفي صبيحة اليوم التالي أقلتهما عربة إلى « كفر الجهنمي »

الفصل الرابع والعشرون

موت السبع الكبير

قضى القضاء الغالب أن يقابل المسافرين بوجوه منقبضة ، وأن ترحب
بهما صدور كريمة ^(١) وعيون مغرورة .

وقبل أن ينبس أحد بكلمة ألم السبع بسبب هذا الحزن العميق
البادي على وجوه مستقبله . فمال نحو زميله وقال : البقاء لله وحده لقد
مات أبي العزيز ، وبدأت دمعتان في عينيه ترددا برهة بين الفيض والغيض
ثم دفعهما الشجوالسكين إلى الأمام ، ففاضتا مبهرتين مرة عن ألم صاحبهما .
أقبل المعزّون والمؤاسون يحيطون بالقادمين ، ويتألمون لفقدان رجل
عظيم وقلب رحيم . وجلس السبع في فكر بعيد الغور .

ولو أتيح لامرئ أن يسبر غور نفسه في تلك الساعة لللاحظ عاملين
يتنازعانه : عامل الندم على تقصيره في حق أبيه في آخر أيامه ، وعامل
الارتياح إلى تخليص صديق من هوة مماته .

كرت الأيام ومرت الشهر ، طاوية حوادث في جوفها ، ومبرزة
أخرى من طياتها ، وورث السبع تركة مثقلة بالديون ، مهددة بالضياح
أعقت ^(٢) ربها الأول حزنا وغما ذهبا بحياته .

كان السبع الكبير مسرفاً في حياته ، ولطالما كان لموالد « السيد البدوي » حظاً أى حظ من ماله . فكانت تُضرب الخيام في طنطا كل سنة وتمدّ الموائد وتذبح الذبائح . كل ذلك من جيوب السبع .

ولم يكن تضاؤل ثروته يوماً عن يوم ثانياً له عزماً ، أو مثيراً منه حزماً بل أسلم نفسه للفقر كما يُسلم السابح نفسه للتيار الجارف لأنه لا يستطيع غير ذلك .

وأخيراً وصلت تلك التركة إلى السبع الشاب على أن تطير منه بعد شهور قلائل ، فقد غلِقَ رهنُ الأرض ^(١) منذ حين ، واستولى الدائن على الثمانين فدانا من غير شفقة أو رثاء لحال ، تاركا الوارث الجديد خالي الوفاض بادىء الإنفاض ^(٢) ، لا يدري كيف يعيش ولا أى طريق يسلك لاكتساب الكفية ^(٣) .

أصبح السبع بفضل إسرافه وإسراف والده صِفراً يدين من كل شيء . اللهم إلا من دار صغيرة ومن قوة الشباب والأمل . ولكن لم تضق الدنيا أماءه ولا أظلم المستقبل ، وإن كان في الحقيقة مظالم .

كرَّ الغتيان ^(٤) والصديقان ياهوَّان ببعض دريهمات وصلت إلى نجم الدين من دؤدؤ نظير ابتياعه للقهوة وأثاثها .

وفي مساء ليلة جاء السبع وعلى وجهه ابتسامة مُشرِّقة ، وجلس إلى صاحبه يحاوره قائلاً : إني أدعوك يا نجم الدين لحضور حفلة قرأني غداً .

(١) استحقاقه المرتب (٢) الفقر (٣) القوت (٤) الليل والنهار

فصاح الآخر ولم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة : حفلة قرانك ؟ هل أنت
عازم على الزواج ؟ فقال السبع مبتسما : نعم ، وهل زواج شاب مثلى يدعو
للمعجب ؟ وهل كنت تعتقد أنى سأعيش عزبا للأبد . . ؟

قطاعه الآخر لا لا . إني لا أعجب لعزمك على الزواج فإن هذا
طبعى ، ولا ينكر أحد أن التماسل ضرورى للعمران ، ولكننى أعجب
لهذا العزم الفجائى إذ لم أكن أتوقع ذلك ، وإنك لم تلمح لى بشىء عن
نيتك ، فهل هو عشق لأول نظرة لم تستطع معه صبرا أو تسويفا ؟

هنا طارت الابتسامة عن شفئى السبع وصمت برهة ثم قال : لا يا صديقى
إنه ليس بعشق طريف ولا نالذ^(١) ، ولكنها الضرورة القاسية دفعتنى
لهذه الخطوة الجريئة ، وما إخالك إلا مائما بقصدى . إنك تعلم علم اليقين
أنى أصبحت أنقى من الراحة ، وأعزى من صفحة الوليد^(٢) . وأنا
مهتدون أن نبیت القواء^(٣) إن لم نتخذ قرارا حاسما وسريعا .

ولقد فكرت طويلا فى مآلى ، فتمثل لى المستقبل حفرة قمييرة^(٤) ،
ورأيت نفسى واقفا على حفاف^(٥) تلك الحفرة . فهل تنتظر منى أن
أستمر واقفا هناك حتى تهوى بى قدمى فى ذلك القرار البعيد ، أو أعمل
على توقي ذلك الخطر الداهم ؟ العقل يقضى أن أنهيج الخطوة الأخيرة وهكذا
فعلت . نظرت حولى فلم أجد إلا وسيلة فذة للخلاص من هذا المأزق
الخرج وهى الزواج .

(١) حديث ولاقديم (٢) كنايةتان عن الفقر (٣) جائعين
(٤) عميقة (٥) جانب

فقال الآخر ولسكن الزواج يزيد في تبعة الفرد ، و يثقل الحُمْل على كَتفه ، وأنت . . .

فقاطعه الآخر مقهقها وصاح : إني لم أعهد فيك البلادة يا نجم الدين فهل تظن أني تزوجت لأزيد مشاغلي ، أو طمعا في أن أتمتع بالسعادة الزوجية ؟ إنك إذن لفائرل الرأي ^(١) . إني لم أتزوج إلا لأزيج الشواغل وأنعم بثروة الزوجة المفتونة

فقال الآخر : ولسكن ألا تحبها ؟ فأجابه : إني لم أسبرُ غور قلبي في هذا الشأن ، وكل ما أعرفه أنها تحبني حبا يدعو إلى الشفقة عليها ، ولو أني نظرت حين عزمت على الاقتران بها إلى جمالها ورشاقة قدّها لسكان لي رأي غير رأيي الآن ، ولصح أن أطارحها كرة الغرام ، وأجاذبها بحبل الهَيَام

نظرت إلى ثروتها وماعسى أن تُدرّ على من خير وفير . وعين المال حولاء ، وأهوية الأغراض هَوَاجاء .

فقال الآخر مازحا : إني لا أحب رأيك في الحب ، ولا أشاطرك حُساباتك النساءِ سِلْهًا تباع وتشتري . ومن يضمن أنك لا تقع في المستقبل في شَرَك حبا كما وقعت في أسر مالها ؟ إن المرء لا هَيَمَنة له على القلوب ولا يستطيع أن يكشف ما تَضَمَّتته الغيوب . وإني لأودُّ لك من أعماق

نفسى كل توفيق فى أعمالك ، وبجاح فى معقود آمالك . جعل الله عصرك
الجديد عصر يسر ورخاء ، ويمن وإسعاد !
فقال صاحبه آمين !

شاء الله أن يبسم الزمان للسبع بعد عبوسه ، وأن تتدفق النقود إلى
جيوبه بعد صفرها . وأخلصت الزوجة كل الإخلاص لزوجها ولم تدع
فرصة تمر بدون إظهار حبها وإعجابها بشجاعته ، وعدت عطفه عليها حبا
وحلت لها الأحلام ، ولجأت بها الأوهام ، فوضعت فى يده كل ما تملك
من فؤاد ومال ، ووهبتهما إياه خالصين . فتناول الأول بحذر لا ولم
ومال إلى الثانى بجشع وطمع .

وأصبح لنجم الدين حال غير حاله ، وبال غير باله ، وعاش فى سعادة
صديقه كما يعيش النبات فى ضوء الشمس ، ولقى من عطفه الجرم وكبير
عنايته ما أطلق لسانه بالشكر وحبب إليه الحياة .

غير أنه لم يرتح إلى بقائه إلى الأبد كلاً^(١) على كاهل صاحبه
كبعض النبات يعلق بالشجر ويشاطره غذاءه لا سيما بعد أن أيقن أن
ثروة الزوجة دون ما قدره صديقه بكثير .

لاحظ السبع شيئاً من الانقباض على صديقه ففأتمه يوماً فى أمره وسأله

هل هو سعيد معه ؟ فقال الآخر وهل هناك سعادة أكثر من أمن
الخاوف وراحة البال ، أولذة أوفى من اللذة التي يجدها المرء في معاشرته
الأوفياء من الأصحاب ؟

لقد طوّقتَ عُنُقِي بِمِنْكَ ، وأعجزتَ مِقُولِي ^(١) عن شكرك . وحسبي
أنك منقذ حياتي وعائلتي نفسك تلك المدة الطويلة ، وإني لأتمنى أن
أستطيع يوماً أن أقوم لك بخدمة تطيق رِقِّي وتخفف حُملي .

فقال صاحبه : إن أعظم خدمة تستطيع أن تُسديها إليّ أن تبقى
بجانبي تُشاطرني نعيمي وبؤسي حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

فقال الآخر : إني لا أفكر في تركك أيها الشهم الناجل ^(٢) ولكنني
أبغى مفارقتك بعض أيام تلبيةً لهوِّي في نفسي .

فضحك السبع قائلاً : وماذا عسى أن يكون ذلك الهوى ؟ هل هو
هوِّي لأول نظرة ؟ فلم يمالك نجم الدين نفسه من الضحك . وسأله السبع
وأين تريد أن تذهب ؟ فأجابه الآخر . إني أريد أن أذهب إلى
« كوم النور » فصاح السبع كوم النور ؟ وهل أنت مجنون حتى ترمى
نفسك في حوض موت محقق ألم تحسب ؟

فقاطعه الآخر : لا تشغل بالك من هذه الوجهة فإني أعرف ما يحفُّ ^(٣)
سَفَرَتِي من الخطر ولكن ليس لي عنها مُلْتَمَذٌ ^(٤) ، وسأخذ الحيلة
ما أستطيع .

(١) لسانى (٢) الكريم (٣) يحيط (٤) بدء

فقال صاحبه : إن هذا مستحيل ، ولن أسمع لك قط بهذه المغامرة .
المجهولة العاقبة . وإني لا أرى سبباً يدعوك إلى سلوك هذا الطريق الشائك .
فإذا كنت في حاجة إلى شيء فأخبرني . ولا مرّت بي ساعة إذا لم
أقم بها !

فقال الآخر : أشكرك . لست في حاجة إلى شيء ، ولكنه حتمٌ
عليّ أن أسافر لأرى أخى . إن أبى لم يستطع تحمل الصدمة التي سببتها له
بطيشى ففضى سبيله ^(١) بعد بضعة أسابيع كما أخبرت . وعبرت ^(٢) أمي
على أثره ، بعد أن تملّسها الحزن ، وطحنها الغم بكلكله ^(٣) . ولم يبقَ
من أسرتنا إلا أخى الأكبر ، أفلا تدعوني حرمة الأخوة إلى زيارته مرة
واحدة قبل أن تضرب بيننا يدُ النوى الأبدية ؟

فقال الآخر : هذا حسن ، ولكن فانتك أن رعاية الحياة فوق رعاية
المحرمات ، وأن واجبات النفس تفوق معظم الواجبات
ولكن هذا الإقناع لم يحلّ محلّ القبول من قلب نجم الدين .
ولما عجز عن أن يهوره ^(٤) عن السفر عرض عليه أن يشركه في
رحلته ، ولكنه أبى أيضاً . واضطُرَّ السبع أخيراً إلى الإذعان مزوداً له بد
رأى من النصائح

الفصل الخامس والعشرون

العصابة

في اليوم التالي بعد تناول وَجَبَةِ الظهر اختلى نجم الدين بنفسه في حجرته بعض ساعة ، ثم خرج بشكل غير شكله وزى غير زيه وما رآه صديقه في تنكره حتى استأق على ظهره من كثرة الضحك وقال : ما أعظم مهارتك ! ولكن فأنك أن منظرك هذا سيروء أقاربك ويشير فيهم الرّيب بشأنك ، وربما أنكروك . فقال إني سأتجرد من تنكري عند ما أصير على مقربة من منزلنا ، وبذلك يرون صورتي الحقيقية وفي مساء ذلك اليوم ، ونحت جناح الغسق ^(١) ، رثى شبح يتسأل في ظل الجدران والنخيل ، قاصداً جهة معينة حتى إذا كان على كئيب من بيت مروّق ^(٢) منعزل عن البيوت المجاورة ، يحيط به أشجار النخيل ويخترق سقفه شجرة سامقة ، وقف برهة ويده إلى وجهه ، ثم حفّز ^(٣) نحو ذلك البيت ، وعند أسكفّته ^(٤) وقف برهة أخرى ، ثم احتواه صحن النار ، وشفق الباب وراءه .

(١) أول ظلمة الليل (٢) الرّواق سقف في مقدم البيت ومروّق

له رواق (٣) أسرع (٤) عتبته

لما وصل نجم الدين بيت أبيه وجدّه ألفى زوجة أخيه مشغولة بحلب
الجاموسة ، ولمح أخاه جالسا بالقرب منها يداعب أولاده .

وما ارتقى ظله في صحن الدار حتى هب الجالس من مقعده بحالة
من يشعر بخطر يهدّده . وما هو إلا أن تراءت الوجوه والتقت العيون
حتى كان الأخوان في عناق ، وحتى هتفت الدموع هتونا . وصاح كل
منهما : أخى ! أخى !

وتنهدت المشغولة من عملها لما جرى ، فاندفعت أولا إلى الباب
فأحكمت إقفاله ، ثم مدت يداً ملوثة تصافح صهرها ، ثم صعد كعبا القدر
إلى عينيها الباكيتين

وكان ضمّ وتقبيل ، وبكاء ونحيب ، وكانت ذكريات ماضيات
مبهحات ومُشجيات وكان شكر لله وثناء .

وبعد العشاء أخذ كلا الأخوين ينفّض جملة حاله ، ويسرد تاريخ
حياته منذ الفراق . وأخيراً سأل رب البيت أخاه هل أتى ليربّع^(١) بينهم
غيرَ كاتم ما تسرّب إليه من المخاوف على حياة أخيه

وأجاب الآخر على الفور : إني لم آت هنا لأعدن^(٢) ، ولن يخطر
لى ذلك ببال ، فإن فعلتى الشنعاء فرقت بينى وبين مسقط رأسى إلى
الأبد ، بل ربما ضئت هذه الأرض أيضاً أن تضمّ رُفأتى من بعدى .

فزفر الآخر زفزة مرّة ، وتحلّبت^(٣) دمعان إلى خديه . واستمر

أخوه يقول : ولكنني أتيت لأمتع نفسي برؤيتكم جميعاً ، ولا أنزود
منكم بآخر نظرة ولا أستعين بكم أيضاً على دفع مُلهمات
الحياة فإذا كان لديكم فضلٌ من مال تدفعونه إليّ كنت لكم
شاكرًا ، وليدركم ذاكرًا

فصاح الأخ الأكبر : كفى كفى يا أخي ! فإنك تمزق قلبي بكلماتك ،
وتطير لي بتضرعك . ولماذا كل هذا التذلل وأنت صاحب حق مثلي ؟
وهل أنا إلا شريك لك قصر في تأدية حق شريكه ؟ ووالذي نفسي بيده
لو علمت ما واک لوصلك نصيبك من ميراث أبويك منذ سنين . ولكن
الجهل بمصيرك أحوجك لأن تجلس مني مجلس الضارع المتوسل . وما أنا
إلا أخ منكود قضى عليه أن يفارق والديه ، وأكره على أن ينسلخ من أخيه
الوحيد . اللهم إن هذا قضاؤك ، ولا راد لما قضيت !

مرت أيام ثلاثة قضاها نجم الدين بين ظهرائي أسرته في راحة وعزلة
عن أهل القرية تأمتين . وفي اليوم الرابع نسل من منبج حره متنكرًا
ومُغتَمِدًا الظلام ، ومزودًا بما استطاع أخوه جمعه من مال ، تشييعه نظرات
مملوءة عطفًا ، وقلوب تخفق حنانًا . نسل قاصدا ميت غمر ومنها ذهب إلى
« كفر الجهنمي » حيث صديقه الوحيد . ولم يكن لقاء السبع له دون لقاء
أهله له بشرًا وترحيبًا .

كرت الأهلة ، وتماقبت الدورات ، والسبع لا يبعثه بحياته الجديدة
السهلة ، تبدد يساره ما يصل إلى يمينه ، وتحمله قدماء إلى القاهرة المرة

بعد الأخرى غيرَ حاسب للمستقبل حساباً ، أو مراعى لزوجهِ ومالها حرمة
وما زال به سَفَههُ وقصر نظره حتى أتى على آخر نُقْد من نقود الزوجة
البائسة السيئة الحظ . وحينئذ فقط شعر بعظم جُرْمه و بِمَغْبَةِ عمله الطائش ،
فأحس بالحياة تظلم في وجهه مرة أخرى وبضرورة الاحتياج على العيش من
جديد . ولم تُفْقده تلك الصدمة المتوقعة صوابه أو تُدَوِي شجرة أمله ، بل
بالعكس شَحَذَتْ من صَرِيْمته ^(١) وأوقدت جذوة المخاطرة فيه ، ودفعته
إلى الوثوب في بحر عميق مظلم فيه الدر والجوهر ، وفيه الموت الأحمر ا

ولم يلبجأ إلى هذه الوثبة في الظلام ، وأمامه النور في كل مكان ؟
ولم يقدم على ذلك المشروع الدَّمَوِي الخطير ، وحواليه مشروعات مأمونة
حسان ؟ بهذا جرى القلم ، وشاءت الأقدار . وهكذا أراد عشق المجازفة وحب
الأخطار . ولا معقَّب لحكم الله ولا راد ، ومن يضلل الله فما له من هاد ا

جلس السبع ذات يوم إلى جانب صديقه يحادثه فقال : لقد عَزَفَتْ ^(٢)
نفسى عن هذه الحياة السَّاكِرة ^(٣) ، ولم أعدُ أحتمل فكرة العيش من مورد
امرأة ، وإني أشعر بالشَّنَار كلما ذكرت أبى قضيت هذه السنين الست
راتعاً في أرض غبرى ، وآكلاً من مال سواى . وقد آن لنا أن نفكر في
خط طريق جديد لنا بدل أن نُثِلَّ ^(٤) بأرض مَعْجِزَةٍ كاللُّبَد ^(٥) ، وأننا
نخرج من هذا العالم الضيق الساكن ، إلى العالم الواسع الهائج المملوء
بالمزاح والجِدِّ .

(١) عزيمته (٢) زهدت (٣) الساكنة (٤) نقيم يلد
فأجز فيه عن الا كتنساب والتعيش (٥) الفسر

فقال الآخر : إني لا أفهم ما تريد ، فأفصح قليلا لأشاركك البحث
فقال : أعنى أن هذه الحياة المحتجبة أصبحت لا تصلح لى لأنى لم أنشأ لمثل
هذه المعيشة ، وأنى اعتزمت على مغامرة خطيرة لا أدرى أنكون نَحْنَح
النفيس عنها ^(١) .

فقال الآخر وقد سرت إليه حماسة صديقه : وما هى هذه المغامرة
يا ترى ؟ فقال أن نخرج من جلدنا ، ونقمص لباس رجال الليل فنصيب
لهوا ومالا . إن الطبيعة قد سخت علينا بقوة جنانية عظيمة وبقلبين
لا يهابان المنايا ، وسنحتنا بشيء من الذكاء والحيلة ، وهذا كل ما تتطلبه
الحياة الجديدة . وإني لا ألوى ^(٢) عنك أن الطريق شائك مخوف
بالمكاره . ولكن متى خلت الحياة من أكدار وهموم ؟ وأين تجد
الكأس الصافية من كل شائبة ؟ إنك لا تجدما حتى فى صوامع الرهبان
ومحارب المتبتلين ، وأديار النساك الزاهدين !

فقال : وهل نسبت أن هذا المشروع يستدعى سفك دماء وإزهاق
أرواح ؟ فقال الآخر : إني لم أنس ذلك . وإذا جلسنا نفكر فى العواقب
فلن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام . فلنبدا العمل ، ولنترك الأقدار تجري على
أذلايها ^(٣) . إن كثيراً من الناس معهم فوق ما يحتاجون فلم لا ننتفع بالفضل ^(٤)
إن أبينا مشاركتهم فى الأصل ؟ أليس لنا حق المعيشة فى الحياة كما لهم ؟

(١) طيب النفس عنها (٢) أطوى وأخفى (٣) مجاريها جمع ذل

(٤) الزائد

فضحك نجم الدين قائلا : ولكنهم تعبوا فيما حصلوا . فقال ونحن أيضاً سنكابد المشاق الطويلة في تحصيل ما نريد . وإذا كنت تحكم على الأعمال بما يُبذل في سبيلها من المجهود فسلم معي بأن أكثر الناس نصيباً أحقهم بالثروة

فقال الآخر : ولكنك نسيت الجدود ودورها في الحياة . . . وعلى كل حال فإني لا أرى استمرار المناقشة مادمْتُ أوانيك على هواك ، وأميل إلى أن أفعل شرواك^(١) غير أني أرجوك أن تتريث حتى ندرس المشروع من كل وجوهه ، ونجد الرجال الصالحين لهذا العمل الفظيع فإن اليد وحدها لا تنصفق

وبعد فحص وتفكير ومفاوضة وتدير مدة شهرين أمكن السبع أن يكون عصابة من الأقوياء تحت رياسته لاتنّيف على أصابع اليدين عدداً . بدأت تعيش في الأرض فساداً .

وبتوالي الأيام ازداد عددها ، وسُمِعَ صوتها ، وأُحِسَّ ضفطها وتكاثر مغائرها ، وانقلبت دُعابتها جِداً ، وتهديدها سفكاً ، وحال نُعاسها^(٢) لَهَباً ، وقطرها وَبَلا^(٣)

وما استوفتْ عمر السنة الرابعة حتى استقرت في الذروة من عالم الإجرام ، ومُحَى من قاموسها كلمة المحظور والحرام ، وبعثت الرعب إلى القلوب والأجسام .

(١) مثلك (٣) النحاس دخان لاله فيه (٤) مطرا شديداً

انضم إليها من مختلف العصابات شياطين لا يُصْطَلَى بنارهم مُزَاة^(١)
طُغَاة ، وهابها العتاريس^(٢) من اللصوص ، وتحاشوا الاصطدام بأفرادها .
وسُنَّ لها قانون صارم ، وصار لها رئيس ووكيلان ، ردّد صدّي نفوذهم
وبأسهم الخافقن !

وهكذا لمع كوكب السبع في سماء الشرور ، وأضحى لفظ « الكومى »
لقب نجم الدين الجديد رمز الويل والثبور !

تَنَكَّر الأشرار دفعاً للريب ، وتظاهروا بمظهر التقوى والورع ومدّوا
أيديهم بالإحسان ، وانتَمَوْا إلى طوائف البيومية والرفاعية والكيلانية ،
وبدت على رؤوسهم عمام حمراء وسوداء وخضراء وبيضاء ، وأكثروا من
الصلاة نهاراً والتهجد ليلاً

وجملة المقال أنهم لم يتركوا وسيلة من وسائل الخدعة إلا استعملوها
إذا طلع النهار حسبتهم ملائكة رحماء ، وإذا جَنَّ الليل عليهم^(٣) رأيتهم
أبالسة لعناء !

إيه يا أهل الحب والخديعة ! بالغوا في التفكير ماشتم ، واهزموا بالخلق
كما أردتم ، وانجروا بالدين فليستهم أول من خدع ، واطهروا بظهر الصوامين
القوامين ، وضللّوا رجال الشرطة والقضاء ، وغالطوا ضماثركم إن كان لكم

(١) جبابرة (٢) الجبابرة الغضاب (٣) سترهم

ضمائر ، و امحوا آثار جرائمكم ، وأرسلوا ذقونكم وأطيلوا سُبُحَكُمْ ، وتكتموا
سُبُحات تهاركم وهجمات ليلكم ، فقد يجوز هذا التمكنر على كثير من الناس
فتصيبن غرضكم . ولكن أيقنوا أن هناك عينا مطلعة على أعمالكم ، وبدأ
ستبش يوماً بأرواحكم .

تلك عين الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وهذه يد
القادر ذي الكَيد المتين !
فهل أنتم مُفَلِّتُونَ ؟

الفصل السادس والعشرون

في حجرة الأشل

الليلة سرّار (١) منشورة الذوائب سابعة الطيّمّلان (٢) ، والسكون على حارة الشيخ « مهى » ضاربٌ بكلّ كلّ وجران (٣) ، لا يعكره الا بمخبضة (٤) الخفير خلف البوابة . والفقى جالس في فراشه بادی القلق والتّمكّل (٥) وبلّصقه زوجته ترفّوه (٦) وتأوى إليه ، وتنظر في صفحة وجهه آنا بعد أن لتقرأ فيها ما يجول بخاطره ، وما عسى أن يريد .

غداً الرجل أصبح بكياً بعد تلك القارعة التي قرعته ، وضاعت دائرة لغته إلى حد مؤلم ، فلم تعد هذه الحروف « آمناً »

أصبحت « آمناً » المعبرة عن كل ما ينبغي من أكل أو شراب ، أو ما يشعر به من راحة أو عذاب ، أو يفكر فيه من خطأ أو صواب ، ووجد كلُّ مجالسيه صعوبة كبيرة في تفهم ما يريد إلا مرجانا وفاطمة ، فقد كان الأمر عليهما أيسر ، وذهنهما لالتقاط المراد أحضر

« آمناً » « آمناً » صاح الأشل في وجهه جليسته ، ناظراً إلى باب مخدع ابنته . فهزولت المسكينة إلى منضدة عليها ماء ، ظانّة أنه يريد أن يشرب . فصاح من ورائها « آمناً آمناً » بنفس الصوت ولكن ببعض

(١) آخر ليلة في الشهر (٢) مظلمة (٣) مخيم (٤) غطيط

(٥) عدم الاستقرار من الوجد (٦) تسكنه

ضغط على « نا » . فوقفت الزوجة حَيْرَى لا تدري ما تفعل ، ثم حَسِبَتْ أنه يريد الدواء فهَمَّت بإحضاره ، ولكن الصوت قَيَّدَهَا في مكانها مرة أخرى .

وبينما هي في ذهولها انفرج الباب المسَامَت ^(١) عن الفتاة تطرد طائر النوم المخلَّق فوق جبينها ، وصاحت هَانْدَى مقبلة يا أبت . ثم نظرت إلى أمها قائلة : اذهبي أنت إلى فراشك فَإِنَّكَ مُتَعَبَةٌ ، وإن حضوري ربما يخفف من لوعة أبي المسكين وألمه . وإني لم أره قبل الليلة أكثر اضطراباً وتألماً

فأجابتها الأخرى : ولكنك يا بنيتي لم يرتو جفئك بالكرى ، وإنك أحق بالراحة مني ، على أن نوبة المراقبة نوبتي الآن . ولكن فاطمة بدل أن نجيب رغبة أمها خطت إلى جانب والدها الذي سكن قليلاً عند مرآها ولم يفارقها نظره ، وأظهر سروره لمجيئها بتكرار « آمناً » ثلاث مرات بدلاً من مرتين

جلست الفتاة بالقرب من أبيها تمسحه ^(٢) ، ووجهها إلى نافذة تُشْرِف على الحارة ، ووقفت أمها عند رأس السرير وظهرها إلى نفس النافذة وإذ هما على هذه الحال خِيلَ إليهما أنهما تسمعان همساً فنصبتا آذانهما برهة سرت إلى جسميهما خلالها قُشْمَرِيْرَةٌ غريبة . وأحستا كأن شبحاً من الخطريهدَّدهما ، ولكنهما لم تتبيناً شيئاً .

(١) المقابل (٢) تمرّ يدها عليه

وأخيراً صاحت الأم : إني لا أدري ما ناب أعصابي هذه الليلة .
وإني لأوجس خيفة لا أعلم ما تأتاها . فقالت الفتاة : وإن حالى لا يقل
عن حالك اضطراباً يا أمى ، لاسيما وقد رأيت رؤيا مفزعة أثناء إغفائي^(١)
القصيرة : رأيت كأننا جميعاً مكتنفون بنيران ملتهبة من كل جانب وأن
يد اللهب امتدت إلى حجرة أبى فالتهمتها التهاما !

فقالت الأم : إن أحسن طريق لتخفيف ما يساورنا من المخاوف أن
ندعو مرجانا ليكون قريباً منا .

ودأبَت^(٢) إلى الباب ففتحته ، وما إن جاوزت عتبة حتى جمدت^٣
في مكانها جمود الصنم ، شاجرة الفم^(٤) ، مشدودة الأهداب إلى شخص
مُلتفم مائل أمامها ، ويده سكين كبيرة مصوَّبة إلى وجهها . فنصَّت
بريقها ، وخانها الصوت فلم تستطع أن تقذف بكلمة أو تُعوِّث^(٥) وهمت
بالعودة إلى حجرتها ، ولكن يداً قوية قبضت على مِصْصِها وسُمَرِها
حيث كانت .

همس صاحب تلك اليد فى أذنها : خيرٌ لكِ ألا تقاومى أو تصرخى
فإن فعلت فأنت حائنة^(٦) لا محالة . وإنا لا ننوى أن نسفك دماً بغير
حاجة . ثم دفعها إلى الحجرة بيمض الرِّفق مُطلقاً سراح يدها .
وقفت الزوجة مأخوذةً مُسْكِرَةً البصر^(٧) ، وقد تملكها رعشة

(١) نومتى (٢) مشيت مشى المقيد (٣) فاتحة (٤) تستغيث
(٥) هالكة (٦) محيرة البصر

مبرحة من فرعها ^(١) إلى أخص قدمها ، ولم تستطع لأول وهلة أن تلم بما يجري حولها في غرفة المريض . ثم نظرت فإذا فاطمة مطروحة إلى الأرض لا حراك بها ، وإذا شقيان آخران يكتنفان سرير زوجها . فجئن جنونهما ، وكادت تقف نبضات قلبها ، وانبعثت من فمها على غير إرادتها صيحة بحاء لم يجاوز صداها مدى الحجرة قطع اتصالها ضربة كمت فاهها صاحب الضربة : تذكرى ما أنذرتك به وإلا فنحن في حل من هتر دمك ودم كل من في هذا البيت . إن فتانك لم يمسها سوء ، وإنما غين على قلبها ^(٢) عند رؤيتنا ، ولا تلبث أن تنيق إلى رُشدها . فهدئي روعك ، واجمعي شتات فكرك ، وأجيبيني عن أسئلتى لك بدون موارد أو مراوغة ، واقطعي كل أمل في النجاة من شركنا قبل أن تلبي سؤلنا . هل فهمت ؟ ولو أن حال زوجك تمكنه من القيام بهذه المهمة لكفيناك مثونة هذا الأمر العسير ، أما وأنت الشخص الوحيد الذي نستطيع مخاطبته في هذا البيت فاستعدي لإجابتنا .

فصاح الطريح « أَمِنًا . أَمِنًا . أَمِنًا » وتحولت إليه أنظار الحضور لحظة ، ثم استقرت ثانية على الزوجة

وأخيرا وجد بعض الكلمات طريقه إلى فيها قفات . ولكن بالميت رجلا يستطيع أن يقوم مقامى في إخباركم عن كل ما تريدون وهو

فقاطعها السبع : مرجان . أليس كذلك ؟ فقالت : بلى . إنه خادمنا الأمين ، ولا أحسبه يمتنع عن إجابتك ما دامت حياتنا رهينة بها . فصمت السبع قليلا ، ثم دنا منها خطوة وقال : لا تفكرى في ذلك الخادم فهو في عالم غير هذا العالم . لقد قُتِلَ لأنه حاول الوقوف في طريقنا ، فإن أُبَيِّتَ إلا اللحاق به فامتنع عن تنفيذ رغباتى !

نَسِيتُ المرأةَ عندئذ ما يمدق بحياتها وحياة أعزائها من خطر وتراعى لها وجه ذلك المأهِن^(١) المخلص مخضبا بالدماء ، فغطت وجهها من هول ما تصورت ، ثم تشجعت قليلا وقالت : والآن ماذا تريدون بعد أن ارتكبتم جريمة القتل ؟

فقال السبع بهدوء : إنا هنا وراء بعض أوراق خاصة فى حَوْزَةِ زوجك ، فأعطينا هذه الأوراق ، ولك ألا تُزجرك دققة أكثر وكانت الفتاة قد رجعت إلى عقلها فوقفت متحاملة وقد امتنع لونها وقالت : أعطيهم يا أمى كل ما يرغبون .

وصاح الشيخ قَلِقًا « آمنا . آمنا . آمنا » فتقدمت الأم إلى صندوق تحت سرير النائم فجذبتة إليها ، ومدت يدها إلى ضفائرها فانتزعت من بينها مفتاحا صغيرا معلقا بها ، وفتحت الصندوق وأخرجت منه عدة حُرُم من الأوراق المختلفة الحجم وقدمتها إلى السبع قائلة : لعل بينها ضالَّتكَ . أخذ السبع الأوراق ، وقلب وجوها ، ثم حفظ بعضها ورد الباقي

متنفسا الصعداء، وقائلا : والآن أين رقبة الجمل ؟

فصاحت المرأتان في نفس واحد : رقبة الجمل ! فقال نعم إنهم يشيعون
أن عندكم رقبة جمل مملوءة ذهاباً .

فالت الكبرى : إنا ياسيدي أسرة فقيرة لا تملك إلا قوتها ، فاكثفوا
بما أخذتم من الأوراق ، ودعونا وحدنا .

فقال السبع : سواء أ كان ما يشيعه الناس صحيحاً أم خطأ فأناعلى يقين
من أن عندكم ثروة طائلة . ثم نظر إلى المريض قائلاً : أليست الحقيقة
كذلك أيها الشيخ المُرَبَّى الطَّمَاع ؟ فصاح المسكين « آمنا . آمنا »

وأردف السبع يقول : وإنا مصممون ألا نبرح هذه الحجرة أو نؤوب
ببعض هذا المال الدفين . فأرونا محله نرحم من حُشبان (١) أليم . .
فتناظرت المرأتان كأنما تستطلع كل منهما رأى الأخرى ، ثم أظهرتا
بعض التردد .

وحينئذ رئيت سكاكين ثلاث تقرب شيئاً فشيئاً من قلوب الشيخ
والمرأتين مُهددةً بانزاع الحياة

الفصل السابع والعشرون

الضربة القاضية

فعل التهديد فمَلَهَ في المرأتين ، فتقهقرتا إلى الورا . بقدر ما سمحت الحجرة ، وصاحت الفتاة بصوت المسترحم وقد انقطع سَخَرُها من النجاة^(١) خذوا كل ماملك ، ولكن بربكم لا تقتلونا ، ثم تقدمت إلى حيث وقفت أمها ترتعد وقالت : دعيني بأُمِّي أكشف لهم عن مخبأ النقود مبعث الشؤم ، وأصل البلاء ، ورأس كل بلية .

تحركت أمها من مكانها إلى جانب سرير زوجها ، وأهوت الفتاة بيدها إلى طَرَفٍ بساطٍ بالِ فرفعتهُ مُظهرةً بلاط الأرض الكبير الحجم ، ثم نظرت إلى من ظنَّته رئيس الاصوص وقالت : أعطنى هذا السكين . فخنَّقت ابتسامة ذات مغزى على شَفَتَي المخاطب ، وتقدم منها قائلاً : فى شىء من اللين : ولكن ألا تخبرنى سيدتى ماذا تريد أن تفعل بسكينى ؟ إلى مستعد لأن أقوم بما تريد إذا أمكنتنى من ذلك .

فأشارت الفتاة إلى بلاطة كبيرة مربعة وقالت : انتزع هذه . فقال السبع نحو الأرض وبسنّ سكينه خلّص البلاطة من مستقرّها كاشفاً عن صينية مغطاة بغطاء من الخشب ومزّق من الثياب ومملوءة بالذهب الوهاج .

(١) يئست منها

وتقدم أحد الواقفين بِمِخْلَاةٍ فأفرغ فيها ذلك السكندر الدفين .
وعلى أثر ذلك وقف السبع وقال للفتاة : إنك تعلمين كما أعلم أن
ماظهر قل من كُثر ، وقطرة من بحر ، فأين بقية الدفائن ؟
فلم تجب . فزأر : أسرع بالإخبار ، فقد طال بنا الانتظار ، والويل
لك إن لم تفعل . . .

لم تملك الفتاة حينئذ نفسها من الدموع ، وتوسلت إلى الأمر أن
يُشفق على أبيها ، وأن يكتفى بما أخذ ، ولسكنها كانت كالصارخ في واد
إذ لم ينل ذلك التوصل من اللص شيئاً ، ولا لوى له عزماً .
فنطق بشيء من الحشونة : إن أباك لم يشفق على الناس حين جرّدهم
من ميراثهم ولارثي الحالم ، وهأنذا الليلة أقتص منه بنفسى وأذيقه نفس
الكأس التي جرّعها غيره ، فعلى بالمال وإلا فإلى جهنم جميعاً . . . وأزّرت
يده وعيد لسانه .

كانت القارعة فوق ما تَحْتَمِلُ الفتاة . فخارت قواها ، واصطكت ركبتيها
وكادت تسقط على الأرض ، لولا أن امتدّ لمساعدتها ذراع أحد الأئمة
فطرحها بلطف إلى جانب الحائط وفوق موضع البلاطة المستخرجة .

نقل السبع نظره من الفتاة إلى الزوجة وقال : والآن هل تُصرين أنت
أيضاً على الإنكار ؟ ثم أدنى سلاحه من عنقها حتى أحست المسكينة
بالنصل يلمس جلدّها . وأحاط بها الآخران بحالة تطير الفؤاد ، ويدوب
أمامها الوخّاح^(١)

(١) الحديد النفس

وعند هذه اللحظة سُمِعَ صوت طفل منبعثٌ من الحجرة المجاورة
يقول : أمى ! أين أنت ؟ تعالى . . . ثم انقطع الصوت
لم تجد الزوجة البائسة بدءاً من التسليم ، فاستجمعت قواها ودفعت
الأيدى الممتدة اغوّها قائلة : إذا كان هذا قضاءكم الظالم وإرادتكم
الأيّمة فاتبعوني إذن .

فسح الرجال لها في الطريق وسارت وهم في أثرها حتى وصلت
إلى غرفة نومها . وهناك لاحظت لصاً آخر واقفاً على رأس السرير
الكبير الذى يَظُمُ أولادها الستة ، فخشيت أن يكونوا أصابهم ما أصاب
مرجانا . ولكن اللص الحارس أخبرها أنهم غارقون فى نومهم ، وأنه لم
يمسّهم بسوء . ولا يعلم إلا الله وحده بما كان فى سُبْحَانِهَا^(٢) حين ذاك
أشارت إلى صوّان يستر جزءاً كبيراً من الجدار قائلة : إن كل
ما تبغونه خلف هذا

وما سمع للصّوص ذلك حتى أزعجوا ذلك الصّوان من مكانه
متشوّقين لرؤية الغنيمة . ولكن ما كان أعظم دهشتهم حين لم يروا
شيئاً إلا الحائط

فَطِنَتْ المرأة إلى سرّ استغرابهم ، ولم ترد أن يُساء بها الظن .
فأومأت إلى بقعة خاصة وقلت : انقروا هنا . وهمّ اللصوص بالعمل .
ولكن إشارة من السبع وقفت زملاءه . فنظروا إليه ، ونظر هو

إلى وجه المرأة مُتَمَرِّمًا^(١) ، وقد تقطب جبينه لأول مرة وقال : إنك تريدن خدعتنا أيتها الماكرة .

فقلت عفواً يا سيدي فما أفكرتُ ولا أفكر في خدعتكم ولكني أنفذ مشيئتيكم

فقال : وهل معنى هذا النقر الذي تشيرين به إلا إيقاظُ الجيران ورفعُ الإلذار ؟ إن كان هذا ما تبغين فلن تبلغيه إلا في ظلمة القبر ! وقبض على عنقها حتى كاد يعصر الحياة منها . . .

ولكن السكومي حارس الغرفة نظر إلى رئيسه نظرة أطلقت المختنقة من قبضته . فوقفت مدة تترنح كالشمل^(٢) ، تنبض المروق في وجهها كالطارق ، ثم استردت بعض قوتها وقالت بصوت متاعم : إنك يا سيدي وعدت ألا تقتل أحداً إذا دلتك على بغييتك ، فلماذا إذن تحاول خنقي وأنا على نَجْزٍ حاجتك ؟ إني يا سيدي ناصحة الجيب^(٣) وحسبي دليلاً على ذلك أن هذا الحائط لا يتصل بجدار مطلقاً على أنك لا تحتاج إلا إلى بضع نقرات خفاف ثم ينكشف لك الخبأ واضحاً . وإذا سمعت لي فإني أ كفيكم مشونة العمل ، وأبرهن على أنه لا سبيل إلى التخوف وسوء الظن

تذكر اللصوص معلوماتهم عن البيوت المجاورة فوجدوها وفق ما قالت . ولم يتذمم السبع من قيام المرأة بما اقترحت فأمرها بالابتداء وبالأ تحدث أية ضجة

(١) غضبان (٢) تمايل كالسكران (٣) لا غش عندي

أحضرت المرأة ساطوراً وقد وُماو بدأت النقر بيدين مرتعتين ، وماهى
إلا بضع دقائق حتى بدأت الطبقة الرقيقة الحاجة تتساقط وحتى انْحَمَرَ
الحائط عن قَمَطَر خشبي قد نال منه الطلاء والرطوبة مما يدل على أنه لَبِثَ
في مكانه زمناً غير قصير .

ثم تفهقرت المرأة نحو سرير أولادها بعين عَبري^(١) وكبد حرمي^(٢) .
وتقدم السبع ففتح القمطر . وكان طوله نحو ثلثي متر ، وعرضه نحو
نصف متر ، وعمقه نحو خمس متر — فتحه وإذا علب من الصفيح
مرصوفة رصاً على رفوفه الثلاثة ، فالتقط إحداها وكشف عنها فبدت
الجنينيات تلمع لمعاناً .

وبينا اللصوص مشرئبو الأعناق مخلوبو الأفئدة بما شاهدوا إذ سمعوا
صوت سقوط جسم ، فنظروا وقد ضرب الشكُّ حولهم نفاقةً وإذا الشيخ
الأشل مطروح أمام الباب فاقد الحياة .

جرى ما جرى أمام الفتي فلم يستطع دفعاً أو استغاثة . رأى بعيني
رأسه ماله يسلب قهراً ، فما زایل مكانه ، لأنه لم يقدر على ذلك ، فلقد
بَقِيَ أسبوعاً كاملاً طريح الفراش يابس الأعضاء ، حتي خيل لمن رآه أنه
هامةُ اليوم أو الغد ، وما زاد على أن قال حين نظر المحبوب الأصفر
يسقط في مخلاة اللصوص كلمته الوحيدة « آمناً . آمناً » .

(١) باكية (٢) عطشى

ولكن إذا كان النطق قد أعياه فإن كُرتى عينيه الضعيفتين
الجائلتين فى فضاء الحجرة كانتا نعم المعبر عما اعتوره (١) من سهام ،
وشفة من آلام .

وأخيراً شدَّ منه القلق على ماله المدفون ، وأحسَّ بالصاعقة توشك
أن تنقضَّ فتذهب بالطريف والتألد ، فأنحدر من سريره كمن فأت إليه
مُنْتَه (٢) ولا يعلم إلا الله بأية قوة كان مسوقاً - ثم حبا معتمداً على الحائط
حتى كان فى منتصف الممشى الواصلِ حجرتَه بحجرة زوجته .
وما وقع نظره على مدفن نقوده المنبوش حتى شَرَقَ شهقته الأخيرة
وسقط ككتلة من خشب

عندئذ طارت شرارتان من عيني السبع واستقرتا على وجه «أبى عيشه»
الذى بدا عليه الاضطراب رغم تماسكه . وكان قد ترك مكان حراسته
أمام حجرة الطربح ، وساقه حب الاستطلاع إلى حيث زملاؤه ، مخالفاً
بذلك أمر الرئيس

تنبه الكومى إلى ماقد يثيره موت الزوج فى نفس الزوجة مما نُخِشَى
عاقبته فضرب بيده إلى جيبه فأخرج مندبلاً صبَّ عليه سائلاً ودفعه إلى
خياشيم الواففة قبل أن تُلَمَّ بما حدث . ففقدت حواسها بعد بضع ثوينات ،
وهوت بجانب أولادها

أسرع اللصوص فى جمع أسلابهم وفروا كما أتوا ، لم يشعر بهم أحد ،

ولم يعقهم عائق ، تاركين ثلاثة موتى وثلاثين بين الموت والحياة وحاملين جثة واحد من زملائهم قضى عليه مرجان في دفاعه عن نفسه قبل أن يَقْضَى عليه .

أصبح الصباح كاشفا عن سكان ثرثر نائريهم ، وغالية قلوبهم لاعنين مهتدين . وقد رآهم منظر الخفير المسكر^(١) وقد تدلى لسانه وبرز الدم من خياشيمه ومحجريه ، ومنظر الخادم المخلص وقد فصل رأسه عن جسده فصلا .

أنستهم حالة الأم وأولادها مبيئات القى الراحل فرثوا الحالم وتقدموا بالرهونة إليهم

وفي اليوم الثالث من وقوع هذه الحادثة الفظيعة كانت الأوراق المسروقة في أيدي أصحابها رادة إليهم أراضيهم المرهونة وثرواتهم المهددة بالضياع . ورجع رسل السبع إلى الزقازيق ، وزفتى ، والسنطة وميت أبي خالد وغيرها ، حاملين إليه ما اتفق على دفعه نظير استرداد العقود قبل غلقها ، مما ربا على الألفين عدا

وبهذه الضربة القاضية ثار رئيس العصاة لمال أبيه الضائع ، واستولى على ما لم يكن يحلم به من النقود ، فقد نيف ماربحة الخصوص في هذه الصفقة على ثلاثة عشر ألف جنيه .

الفصل الثامن والعشرون

الزوج المحبوب

في ذلك العصر الذي توالى فيه هجمات الأشقياء على ميت غمر وما جاورها من البلدان تملك الناس نوعان مبرحان من الذعر . النوع الأول إنسى وسببه المصائب ، والثاني جنى ومصدره ظهور الجن والعفاريت في مظاهر مختلفة وأوقات متباينة .

انتشرت الأخبار عن أفاعيل تلك الأرواح الخبيثة ، واخترعت الحكايات عن الأرواح الطاهرة ومساعدتها لبعض الناس ، واشترك الجاهل والمتعلم في تصديقها ، ولجأ الأمهات إليها قصصها التنويم أولادهن . رَوَوْا فيما رَوَوْا من تلك الأقاصيص أنهم شاهدوا امرأة سارية ^(١) تنتقل بين الحقول والقبور ، تارة في شكل الملائكة ، وأخرى في هيئة الشياطين فتَحْصِبُ ^(٢) المارين طَوَّراً وطوراً تعطف على المساكين . واختلف من رآوها في حقيقتها ، فمن قائل : إنها روح امرأة قُتِلَتْ بالقرب من مِعْبَرِ الصافورية أتت لتروِّع القاتلين وتفتك بهم ، ومن زاعم أنها وليّة من وليات الله ظهرت لتهدى الضالين ، وتعين المنكوبين

على رِسْلِكُمْ أيها الواهمون ! لقد ملك الرعب عليكم مشاعركم فلم تميزوا بين الحقيقة والخيال ، ودبّ الجهل إلى رؤوسكم فكونتم

(١) ذاهبة على وجهها في الأرض (٢) ترميهم بالحصباء وهي الحصى

من الذرات الجبال ، فليست المرأة التي شاهدتم بملك ولا شيطان ، وإنما هي مخلوقة بأئسة أطارت الحوادث عقلها ، وأفقدتها قسوة الرجال فؤادها ومالها ، فَنَدَّتْ ^(١) من بيتها على غير هدى ، وشردت شرود الغزال لاتؤم مُرَاغِمًا ، ووجدت في سكنى القبور ، ما لم تجده في سكنى الدور ، من الراحة والعزاء .

الآن تعرفون من هي ؟ هي زوجة ذلك المجرم الفتاك الذي أقض مضاجعكم ^(٢) بعصابتة ، وفجعكم في أموالكم وأولادكم بجبروته وقسوته . . هي زوجة السبع .

مسكينة يارقة ! لقد حال حالك ، وذوى جمالك ، وذهبت آمالك ! أين ذلك القلب الطاهر الخفاق بالحب ؟ وأين تانك العينان المملوءتان سحرًا ؟ وأين ذلك الوجه الوسيم والقدر الشيق ؟ لم يذهب بذلك الجلال القروى فعلُ السنين ، وإنما ذهب به الجدُّ العاثر وعيشة الشارد الحزين ! وما أقسى الزمان القلب ، ذا البرق الخلب !

لم يكن جنون رقية جنونا مُطْبِقًا ، وإنما كان يعترىها من وقت لآخر في شكل نوبات مؤلمة . ولقد كانت في أوقات رشدها شديدة الرحمة بكل بائس مثلها ، حمة العطف على الأطفال . ولطالما استجرتى مرآها المشجى من شؤون القرويات الدموع . وكثيراً ما زودتها بالطعام والشراب

(١) ذهبت على وجهها شاردة (٢) جعلها خشنه متتربة

بعدما يَتَسَنَّ من إقناعها بالملكث بينهم . ولم يكن كَلَفُ الأطفال بها قليلا وإن أثاروا أحيانا ثأثرها ، وأطاروا طائر حلمها .

ولعل القارىء فى شوق لتعرف مصدر ذلك الشقاء الذى أصاب تلك

المسكينة . فإليك ما حدث :

فى ليلة أَضْجِيَانَةٍ ^(١) من ليالى الصيف شديدة الحر ساكِرة ^(٢) الريح اعتري رقية سهاد استقض معه فراشها ^(٣) ، فقامت إلى نافذة غرفتها فأطلت منها على الحقول الممتدة إلى الأفق ، ورمت بنظرة إلى السماء تهجئ فيها النجوم

أمضت على هذه الحال نصفَ طَبِيقٍ ^(٤) . ثم انثنت متثابرة إلى سريرها ولكن لم تجدع بعينها نَفْسَةً ^(٥) ، فجلست يشيل بها الفكر ، ويلجج بها الخيال ، وأخذت تناجي نفسها قائلة :

أف من الوحدة ! إنها الترتجل الهم ارتجالا ، وإنها لأنجب مطايا الفكر ! إننى لا يعوزنى شيء من مرافق الحياة ، ولكننى لأشعر بالسعادة التى يتحدث عنها الناس ويصورونها فى مظاهرها المختلفة . وكيف تحس الزوجة الهناءة ونصفها بعيد عنها ؟

إن إبراهيم زوجى ندى الكف محمود السجية ، وهبى قلبه الشجاع وأحاطنى بضروب العناية . ولشد ما يرُضنى ^(٦) نذ كرى سوء ظى به فى الأيام الحالية . توهمت أنه تزوجنى لى ، ولكننى كنت جد مخطئة .

(١) مضية (٢) ساكنة (٣) خشن (٤) ساعة من الليل
(٥) لم تنم (٦) يؤلمنى

وإذا كان قد بدد ثروتي بإسرافه فإنه لم يهجرني لفقرى ، أو ينجس^(١) بدمي . وكيف يُنتظر من رجل نبت في منبت العز ، وتعود بسط الكف أن تطيعه أنامله إذا أراد لها ثدياً ؟

ثم تأوّهت تأوّه السليم^(٢) وقالت : ترى ماهذه الأشغال التي ملكت لبيّ ، واستفرغت جهده ؟ وماذا عسى أن تكون تلك السفّرات الطويلة المتمدّدة التي تنافسني في راحتي ، وتُغريه بهجرى ، وتُوحّدني للمضيّفة^(٣) ؟ شعرت الزوجة بحنين غريب إلى زوجها النائي يفوق حنين الإبل إلى العطن^(٤) ، أو المسهد للوسن^(٥) ، وتمنّت لو كان بقربها يسامرها ويمزّق بيده الشديدة حُجب الحزن المسدلة حولها .

وإنها كذلك تفكر في أمرها وأمر بعائها إذ سمعت رزاً^(٦) فنهضت من سريرها مرة أخرى ، وأشرفت من الشباك ، فرأت على يمينها بالقرب من زاوية البيت البعيدة أشباح رجال مائلة ، فحق قلبها ذعرا ، ثم تبينت زوجها وهو ينبعث من الحقل المجاور ، وبسير بخطى هادئة نحو المتكوّفين^(٧) ، فازداد خفقان قلبها ، وخشيت أن يكون القوم قد بيّتوا له سوءاً . تمثّلت زوجها المحبوب في أيدي سُفّاك لا يرحمون ، فحدّت أذنها وتدلّت من النافذة حتى كادت تسقط . ولولا فرع شجرة ممتد إلى الحائط لراها الناظر بجلاء .

(١) ينقض عهدي (٢) الملدوغ (٣) تتركني للحزن
(٤) مبرك الإبل حول الماء (٥) النوم (٦) الرز الصوت تسمعه
من بعيد (٧) المجتمعين المستديرين

وبينما هي كذلك طنَّ صوتٌ بعلها في أذنها قائلاً : هل تكامل العدد ؟ وسمعت الإجابة « نعم » فقال إلى المحاكمة إذن وعندئذ تسلَّل المجتمعون إلى حجرة كبيرة بالبيت كانت اصطبلًا ثم صارت مخزنًا للقطن ، بينها وبين مخزن الحبوب كُوَّةٌ يغطِّيها شبكة من سلك . دخل القوم ، ودخل وراءهم السبع . ولبثت رقية على حالها ذاهلة لا تدرى ما تفعل ، ثم انتصبت برهة وقد شفَّفها حب الاستطلاع وحب سلامة زوجها ، فانفتحت قائرة^(١) إلى المخزن المظلم .

وهناك أمكنها أن تسمع بوضوح كل ما دار من الحديث ، وترى ما يجري على ضوء ساهرة أقيمت على منصدة في ركن الحجرة سمعت زوجها يقول وهو واقف أمام المنصدة : إنكما تعلمان علم اليقين أنكما ارتكبتما خيانة عظيمة بإفشاءكما أسرار العصابة وتعريضنا جميعا للتلغ ، خارقين بذلك قانوننا العادل ، وناكشين بالعهد الذي أخذتماه على أنفسكما حين اندمجتما في بلدكما . وإنكما لم تكتمتيا بمعارفة جريرة واحدة وهي التواطؤ مع أعدائنا ضدنا ، فأضفتما إليها جريرة أخرى هي أعظم في نظري وأدلُّ على سوء اختياري ، وهي جريرة الجبن والندالة ، ففررتما حيث ظننما نفسيكما بعيدين من يد السبع المطوَّحة ورجاله الأمناء والآن وقد صرتما في قبضتنا وتحت رحمتنا هل من كلمة لديكما تدفعان بها هذه التهمة الثابتة ، وذلك العار اللاصق بجبينكما ؟

(١) أمرعت ماشية على أطراف قدميها

أجب أنت يا غالب . فأجاب غالب بصوت المتجملد : إني معترف
بصحّة ماقاله الرئيس ، وإنها لفاتحة فظيمة أرجو أن يشفع لى فيها خِدْماتى
السابقة للعصاة وتوبقى عن الرجوع إلى أمثالها

فهاها السبع مردداً : التوبة ! التوبة ! ثم سأل : وأنت يا حاج سيد
هل لديك ماتقوله ؟ فصاح المسئول بصوت متلثم : إنى غير منكّر أيضاً ،
وإنى ألتس الرحمة ، وما دفعنى إلى ارتكاب ذلك الجرم إلا إحَنٌ^(١)
حملتها لبعض زملائنا فاعمانى حب الانتقام .

فزأر السبع : كفى ! ثم خاطب بقية الحاضرين ما رأيكم ؟ فصاحوا
فى نفس واحد : الإعدام العاجل ! فقال وذلك هو رأيى أيضاً .

وهنا ارتمى الحاج سيد على الأرض فى حالة هياج صائحاً : ألتس
الرحمة ! ألتس الرحمة ! ارحمونى ! ارحموا أولادى المساكين ! !
ولكن ذلك لم يُغْنِهِ .

وخيم السكون على المشاور بضع دقائق كُفَّ فيها فما البائسين وشُدَّت
فيها أيديهما وأرجلهما ، ثم وقف السبع عند رأسيهما كجزار على ظهر وضم^(٢)
برهة ، ثم هوى بساطور حاد على الرقبتين فخرهما حزاً ! !

فى هذه اللحظة سُمِعَتْ صرخة واحدة مزعجة من القاعة المجاورة ،
ثم سقط أشياء . فتروّع^(٣) الحاضرون ، وعلّقوا أنفاسهم ، ولكن السبع

(١) أحقاد (٢) ما يوضع عليه اللحم (٣) فزع

قال بهدوء : لا داعى إلى الوَهَل ^(١) ، فاستمروا أنتم فى عملكم ، وسأعود إليكم بعد قليل .

وما هو إلا أن توارى فى ظل البيت حق برز الرجال يحملون جثتين هامدتين ، ورأسين منفصلين ، ميممين نحو قبرين محفورين فى وسط الحقول المترامية . وبقي الكومى وحده فى ذلك المَجْزِر مشغولا بإخفاء آثار الجريمة الرائعة .

أهرع السبع إلى مبعث الصوت ، ولم يداخله أقل ريب أن ما سمعه هو من عمل زوجه . وهناك فى ذلك المحزن القائم وبين قطع الأثاث البالى والأكياس الفارغة وجد حليته فى حالة يرثى لها حقا : رأس منكس على صدرها ، ووجه علاه التراب ، وذراعان مخدوشان من تأثير السقطة ، وجسم ممدود لا حراك به .

ظن لأول وهلة أنها قُبِضَتْ ^(٢) ، ولكن تبين له أنها فاقدة الرشد من هول ما شاهدت ، فحملها إلى سريرها وجلس بجانبها يسمعها ولكن بلا كبير جدوى ، فقد فتحت عينها عدة مرات ثم غابت عن رشدها .

وكانت الخادمتان العجوز والصبية قد أيقظتهما الصرخة العالية فهبتا من نومهما مذعورتين مرتجفتين ، ولم تجسرا على الهبوط إلى الطبقة الأولى حتى سمعتا صوت سيدهما يأمرهما بإحضار مصباح وكوب ماء على عجل :

ولم تفظنا مطلقاً إلى ما حدث ، وما دار بحُسابِهما أن سيديتهما غادرت حجرتهما ، وجازفت تلك المجازفة الخطيرة .

لما عيى الزوج بأمر زوجه وَكَلَّ العناية بها إلى الناصِفتين ^(١) ثم نزل فوجد الجماعة قد انتهوا من مهمتهم على ما يرام فأمرهم بالانصراف ، ثم صعد هو والكومي إلى حجرة فوق ذلك المخزن وجلسا صامتين مدة وأخيراً قال الكومي : إن هذا الأمر لم يكن متوقفاً أبداً ، فكيف حدث ؟ فقال السبع مطرقاً : إني لا أعلم بالدقة كيف وقع ذلك الحادث ولكنني لا أكون بعيداً عن الصواب إذا قلت إنها المصادفة الغريبة بصَّرت رقيةً بنا فاحتاطتها الشُّبهات في أمرنا ، إذ لم تكن تتوقع أنى قريب منها ثم دفعها حب الاستطلاع إلى التجسس فكنت في ذلك الخبياً . ولا أشك في أنها رأت وسمعت كل شيء ، ثم خانتها قواها وصرخت تلك الصرخة المرعبة . ولولا أن الله سلم وأن بيتنا منعزل وناء عن بيوت القرية لبرَّح الخلفاء ^(٢) ، وكنا في حال غير هذه الحال .

ثم وصف له حالتها عند ما رآها وحالتها بعد ذلك فقال الآخر : خير لنا ولها أن تُترك بدون إزعاج حتى تهدأ أعصابها وتفيء من نفسها إلى رشدها . وربما أمهت ^(٣) كل شيء عند استيقاظها ، أو اعتبرته حلمًا من الأحلام المقلقة

(١) الخادمتين (٢) وضع الأمر (٣) نسيت

قر الليل أمام الصباح ، والسبع مائل أمام زوجته مقطب الجبين ذابل
الجن ، ينظر إلى وجهها الشاحب ، وعينها المطبقتين ، ويتعجب من
طول غشيتها . ولولا تنفسها الهادئ لأيقن أنها في عالم غير عالم الأحياء .
وأخيراً انفرجت أهدابها المشتبكة عن باصرتين لا تزال فيهما آثار
الغشية والذهول ، ونظرت إلى ثوب المائل بجانبها ثم صعدت نظرها حتى
عثر بوجهه فاستقر عليه .

نظرت إلى ذلك الحي الذي كانت تستشعر السعادة من النظر إليه ،
فتمثلت فيه محيّا جزّار ملطّخ بالدماء يهوى بسكينه على الخراف فيذبجها ،
وعلى الأناسي فيشطر رقابها . وعادت إليها صورة ما شاهدت منذ ساعات
قلال في أروّع أشكالها ، فأخذتها رعدة شديدة ، وغطّت وجهها بكفها
يديها ، وصاحت : أغرب من أمامي أيها السفّاك الجبار فما أنت زوجي ...
وإنما أنت قاطع طريق لا يرحم ...

ثم قعدت نصف قعدة بارقة البصر^(١) ، ثم غادرها رشدها مرة أخرى
وسقط رأسها على الوسادة .

حصل كل ذلك أمام الزوج الدهش فلم تمدّ شفّتيه لفظه ، أو يبدى
حراكاً ، وإنما قرّ رأيه على العمل السريع اتقاء لما قد يجره حديث الزوجة
من خطر .

برح الغرفة ، وذهب إلى صديقه النائم ملء جفونه فأيقظه ، ثم

(١) برق البصر كفرح وانصر تحير فلم يطارف أو دهش فلم يبصر

أنشأ يحدنه بما جرى ويخبره بما اعتزم سلوكه . قل : إن هذه الزوجة
مستسججٌ حولنا نطاقاً من الشبهات بهذا بناها ، ولا سبيل عندى للخروج من
هذه الورطة إلا الحيلةُ بينها وبين العالم خارجَ هذا البيت ومراقبةُ
حركاتها وسكناتها بكل دقة . فالويل لنا إذا ضَجَعْنَا^(١) في الأخذ بالحيلة .
وهكذا قُدِّرَ أن يستحيل غرام تلك الزوجة إلى مقت ورهبة وازدراء ،
وأن تصبح مقيّدة الحرية محدودة المجال ، وأبعدَ عنها خادمتها ، وحلَّ
محلّها شقي من العصابة غليظ الكبد دائم اليقظة .

لبثت التاعسة المنكودة في سجنها — وكان حجرة ضيقة ذات كوة
واحدة — ستة أهلة كاملة ، وزادت حالها سوءاً على مر الأيام حتى أصابها
الخَبَل ، ونالت منها النوبات الجنونية الحادة .

وذات يوم تفقلت حارسها وفرت من قفصها فرار الطائر ينشد
الحرية ، هائمةً على وجهها لا تعرف لها مُلتجئاً^(٢) ولا ملاذاً إلا
القبور والحقول .

ولم تخفَ على السبع ما وبها ، ولا غابت عنه أحوالها ، ولكنه لم يرد
استردادها إلى عشّها بل ترك حبلها على غاربها ، بعد أن تحقق أن رياحها
لا تُهوى^(٣) بنخطر ولا تحمل تهديداً .

(١) قصرنا (٢) ملتجئاً (٣) تهب

الفصل التاسع والعشرون

الحُب

مضى أربعة وعشرون ربيعاً على فرار الحبيسة والسبع لم يَبْنِ على امرأة أخرى^(١) ، لا لأنه رَغِبَ عن الزواج فقد اشتهاه كل الاشتها ، ولا لأنه لم يوفق في اختيار الشريكة فقد عثر على ضالته التي ينشدها ، وإنما لأن عقبة كأداء اعترضت طريقه ، وإرادة أخرى عارضت إرادته

أبصر بُعَيْدُ سُرُوبِ الزوجة ابنة عمدة القرية « محمد شهاب بك » فوق في شركها وهو ناصب الأشرار ، وأسره جمالها وهو أسر الفتاك . ولَبِثَ مدة غير قصيرة حبيسَ الوجد دفينَ الوآءِ ، كأنه لا ينفك يعتقد أن الحب ضرب من ضروب الضعف الإنساني يجب إخفاؤه ثم أَنفَجَ^(٢) به ذلك السلطان الغالب ، فلم يجد مَنذوحة من مكاشفة الكومي أولاً ، ثم محادثة أبي الحبيبة ثانياً . وتمَّ له ما أراد .

غير أنه آضَ^(٣) من مسماه بخفى حُنين ، فلقد أبى الأب أن يملكه يدَ فتاته الوحيدة ، معتذراً بأنها لا تزال صغيرة السن ، وأنه وعد أن يزوجه من ابن خالها الضابط بالسودان .

سمع السبع ذلك الاعتذار فلم يرق في نظره ، وعَزَا ذلك الإباء إلى حزازات أمرية قديمة ، ولكنه لم ينل من عزيزته وإن نال في زعمه

(١) لم يتزوج (٢) غلبه (٣) رجع

من كرامته ، ولا آتي على أمله في الفوز بطلبته يوماً ما .
لجأ إلى عم الفتاة شيخ «غالب شهاب» فدَلَّاه إلى أبيها^(١) ، ولكن
الشفاعة لم تثمر الثمرة المطلوبة . وحينئذٍ هاجت أعصابه رغم ثباته والظَّـبْـه
الفكر^(٢) ، وحال حبه إلى هيام شديد — وأحب شيء إلى الإنسان
مأمْنِع — وصمَّ على أن يبلغ بالقوة ما لم يبلغه بالمعاوضة واللين
صمَّ مرة على أن يختطف الظائر من وكنهه^(٣) ، ويطير به إلى حيث
لا تقع عليه عين أو تصل إليه يد . ثم نادى^(٤) له قُبْحُ عزمه ، وتصوّر
سوء العتبة ، فعدل عن سلوك هذا السبيل

ثم فكر نزلة^(٥) أخرى في قتل أبيها الذي قام حبر عثرة أمامه ،
ولكنه أقلع عن ذلك أيضاً ، وعمد إلى سلاح التهديد حيناً ، ولكنّه لم
يُدْنه من غايته . وحمّـدَى اقول أنه مكث بضعة شهور مجالا لأفكار
متضاربة وآراء متعارضة ، ومرّ به في أثناءها ألوان من الشقاء والخيرة
لا عهد له بمثلها من قبل

وهل يستعصى شيء ، أمام سلطان الغرام القاهرة ؟ وأيُّ كابرٍ لم يَعْنُ^(٦)
أمامه صاغراً ؟ وأيُّ كجوح لم ترُضه يد الحب الناعمة ؟ بل وأيُّ متعنّت
جبار ، وقف موقف المؤلّه ولم يذُق الذلّ والصغار ؟ وإذا كان لسلطان
النوم نفوذه وسيطرته في بعض الأوقات ، فإن لسلطان الحب عظمته
وجبروته في جميع الحالات ، وإن لعب الأول بالأبدان لقد لعب الثاني
بالمهج والعقول والوجدان !

(١) استشفع (٢) لزمه (٣) عشه (٤) ظهر (٥) مرة (٦) يخضع ويذل

إيه أيتها السُّرُّ الخالد ! مجمع اليأس والرجاء ، ومبعث السعادة والشقاء !
كم عصفت نكباتك بقلوب مُزقتها ، وكم مرّت زُخاؤك على وجوه
ضاحكة فداعتها . وكأنّ خلقت من الرّعيد مقداماً ، وصيّرت المقدام
مُخجماً !

تلك هجّيراك^(١) مع الناس ملوكهم وطغماهم ، وذلك أثرك فيهم
شبيهم وشبانهم ، لم يفسق عن دائرتك فاسق ، ولم ينج من قبضتك
قدّم أو حاذق ، اللهم إلا من كان صخراً جلوداً !

و بينما كان بين مدّ الفكر وجزره ، وبسطه وقبضه ، أتيت له
فرصة غيرُ منتظرة ، ووُضع في يده سلاح أغانه على حَسَم مُشكلاته ، وما
أحسن ضربات الجدود ، وأعجب تصرفات الأقدار !

كان في منتصف إحدى الليالي عائداً الى بيته بعد سَبَحة طويلة من
سَبَحاته ، وإذا به يلمح شبحين يبرزان من حديقة « الشيخ شهاب »
ويتسللان بجانب الجدار بحالة مُريبة .

وقف برهة وقد شدّ منه العجب ! صائحاً في أغوار نفسه : ترى من
هذان المحترقان جوفَ الليل ؟ وأي دور كانا يلعبان في مثل هذه الساعة ؟
إن وراء ذلك لسراً !

ثم سار على حِفَافهما^(٢) بخطى رفيقة سريعة حتى أدركهما عند زاوية
البستان . وأحس السائران به فوقهما وهلين^(٣) حائرين

(١) دأبك وشأنك (٢) أثرهما (٣) خائفين

رأى فيها فردين من أفراد عصابته هما « جمعء المغربي » و « سالم
السحرتى » فأخذه العَجَب ، وفجأهما بالسؤال : أين كنتما وأين تريدان ؟
وعرف الشقيان مآلهما ، إن هما أخفيا سر ظهورهما فى مثل ذلك
الوقت ، فأفضيا إلى رئيسهما بحقيقة الحال . قال جمعء بصوت خافت :
كنا فى الحديقة نوارى جثة شهاب بك ، بعد أن قتلناه خنقاً إطاعة لمشيئة
أخيه . وكان قد جمل لنا جُملًا على ذلك هو مائة وعشرون جنيهًا ، وهانحن
أولاً ، ذاهبان إلى مقرنا

فشعر السبع بكابوس يرتفع عن صدره ، وإن لم يظهر لذلك أثر على
حياءه . وهمس : ولكن كان يجب أن تعلمانى بما انتويتما قبل إنفاذه لأميما
وأتما منى قريبان

فقال جمعء : إنا لم نعلم بتلك النية إلا ظهر اليوم الفأئت ، واقد أردنا
إطلاعك عليها ، فذهبننا إلى بيتك ، واستفسرنا عنك ، فأخبرنا أنك مسافر
وقد كنا على أن نرجى هذا الأمر حتى نستأنس برأيك ، لولا إلحاح
الشيخ شهاب الذى ضاعف الأجر ، وأخبرنا أن فرصة الليلة قد لا تلدُ
الظروف مثلها .

ولم تتردد كثيراً فى إرسال ذلك السهم علماً بأن الهدف مُبَغَض من
رئيسنا ، ومَشْنُوء ^(١) تبعاً لذلك من جميع زملائنا ، وأنا نُصِيب بحجر
واحد عُصفورين . وإنا لالرجو من صميم أفئدتنا ألا نكون قد أغضبنا

(١) مَبَغَض

الرئيس بانتهاجنا تلك الخطوة ؛ أو عارضنا له هوى
وضرب السحرني يده إلى جيبه فأخرج صرة حمراء ، ودفع بها إلى
الرئيس قائلا : هاهو ذا جزاء عملنا الليلة .
فأجابه السبع بهدوء : احفظها معك حتى توصالها غداً إلى الكومي
ثم ودعها وانكفأ إلى بيته مناجياً نفسه : لقد ذلل القدر في ساعة ما لم
أستطع تذليله في شهور ! وإن القدر سيكون أرحم على قلبي من الماضي القاسي !

مضت أيام ولم يُر لشهاب بك أثر ، أو يسمع عنه خبر ، وأشيع أنه
رُئي مسافراً في طريق المنصورة ، ثم ذاع أنه وقع في أحضان بعض اللصوص
فسلبوه ما معه ، ثم قتلوه وأخفوا جثته .

وكلا مرت يوم على اختفائه ، ضعف الأمل في لقائه ، حتى قهر اليأسُ
الرجاء ، وحتى غاب آخر شعاع من الضياء .

وكانت الضربة قاسية على ابنته المسكينة التي لم تفقه سر ذلك الغياب
الفجائي ، فبأن منها الكمد^(١) ، وتأمها^(٢) الألم ، ونفذ إلى قلبها اليأس ،
واقتممت^(٣) في وجهها الحياة ، ووددت لو تطير منها على عجل

أما عمها فقد عمل كل ما في وسعه لإخفاء جريمته الفظيعة ومستر عاره
الفاحش ، فأظهر من ضروب الجزع والحسرة ما أبعد عنه كل ريبة ، ومن
ألوان الاهتمام بأمر الفقيد ووحيدته ما عطف القلوب عليه ، وأكبر مصابه
في أعين الكثيرين

بعث البرُودَ ^(١) تباعا إلى المنصورة وغيرها لتسقط الأخبار عن الأخ
الضائع . ولو علموا مكانه من الحديقة لما تجشموا ما تجشموا من وَعْشاء السفر .
وبالغ في الاحتفاء بالراحل فذبح الذبائح وأقام سرادقا عظيما تُلِيت فيه
آيات الذكر ثلاث ليال متتاليات ، وحضرها السبع والكومي والغربي
والسحرتي وغيرهم

وضم إليه ابنة أخيه عائشة ضمة الأب الشفيق ، راثيا لحالها ومشاطرا
أتراحها . وخلف الشيخ شهاب أخاه في رآسة البلدة واستولى على ما خلفه
من ثروة بطريق الوراثة والوصاية

التف الناس حوله لأنه كان ندى الكف كثير الولائم للقريب
والبعيد ، ولبث أمره محجوبا ، وإن تسرب الشك إلى قلوب من ناووه
في الرياسة ، ونفسوا عليه حظّه وغناه الجديد ، ولم يحطُ بجريمته الشنعاء إلا
السبع وبعض أتباعه

غمّر العمدة الجديد كابي صيده بنعمائه ، ونفّحهما بين زمن وآخر
ببعض النقود وقلدهما وظيفة خفير بن دأنين ، مما ساعدهما في مهنتهما الخبيثة
ونفى عنهما بعض الشبهات .

(١) الرسل جمع بريد

الفصل الثالثون

سلاح التهديد

انقضت الليلة الثالثة من ليالى المآثم بمظاهرها ، وتنشأ^(١) الحاضرون لبيوتهم ، وشُرع فى إطفاء المصابيح الكبيرة ، والسبع جالس بجانب المعزى يحادثه بصوت خافت فى الدنيا وأحوالها ، والأيام وغرأتها ، ثم همس فى أذنه : أريد كلمة منك على حدة - وأثبت نظره على نفر قليل من أتباع الشيخ شهاب انتبذوا^(٢) ناحية بعيدة من السرادق - أسمح بها الآن أم تؤثر إرجاءها إلى الغد ؟

قال الشيخ شهاب مبتسما : وما عسى أن تكون طبيعة هذه الكلمة ومرماها ؟ أهى خارجة عن أفق ما كنا نخوض فيه من زخرف الدنيا الباطل وفنائها العاجل ؟ فأنعم السبع قائلا : إنها كلمة هامة تخصنى وتخصك ، ولا أريد أن تشاركنا فى سماعها أذنا ثالث .

فخفق قلب السامع خفقة كادت تنم على اضطرابه ، وقال ليس عندى الآن ما يحول دون سماع كلمتك أيها الصديق . ثم استدرك قائلا : على أننى لا أدري موضوعها حتى أحكم بملاءمة هذا الوقت وهذا المكان . وإذا كان لاغى من سماعها فلنذهب إلى المضيف

دلف الشيخان إلى المكان المقترح ، وأخذا مكانهما من أريكة

(١) ساروا ونهضوا (٢) تنحوا

عتيقة بالية ذات مسند طويل ملاصق للحائط ، وشرع السبع يقول في صوت مؤثر : إنك تعلم مقدار هيامي بعائشة وتصميمي على الاقتران بها ، وأنه لم يحل لي بيني وبينها سوى عناد أبيها المرحوم . والآن وقد خلا الجو من ذلك العناد ، وصرت الوصي عليها ، فأني أطلب يدها منك ، ولا أحسبك إلا موافقاً

فصمت الشيخ برهة ثم قل : إن هذه المفاجأة آخر ما كنت أتوقع من رجل عرف بالحزم وبعد النظر مثلك ، إذ كيف يمكنني أن أفاتح بنتي المسكينة في هذا الشأن ، وهي على ما هي عليه من كسوف الحال ، وتشتت البال ، وأبوها لم يذس خطبته ؟

فأجابه السبع ولم يفارقه سكوته : ولكنني لم أطلب من سيدي أن يكشف لها عن رغبتي الآن ، وإنما طلبت إليه أن يلبى هذه الرغبة بالموافقة أولاً . وما إخل الأمر إلا هيئاً بعد ذلك ، إذ ما بدور بخلدني أن الفتاة تعترض إرادة وصيها وعمها

فقال الآخر : هذا حسن . ولكن فأتك أن عائشة تحب ابن خالها كما يحبها ، وأن إرادة الفقيد كانت في صميمها معاً . فصاح السبع : ولكن تلك الإرادة قد ذهبت إلى الأبد مع صاحبها .

وهنا أراد الشيخ شهاب أن يخرج من تلك الورطة ، فأظهر رغبته في تسوية المناقشة ، ولكن السبع أبى إلا أن يسمع كلمة حاسمة قبل أن يغادر المكان

وعندئذ هاج هائج العمدة وصاح : إذا كان لا بد لك من سماع
الجواب الليلة فاعلم أنه الإيلاء !!

فاحمرّ وجه السبع لحظة ثم قال : ولكن هل لسيدى أن يبين السبب
الحقيقى الذى دفعه إلى النطق بهذا الحكم القاسى ؟

فتردّد الآخر برهة ثم قال : لقد ذكرتُ لك أسباباً ، وإذا أُيِّتَ إلا
المزيد فأني أخبرك فى غير موارد أنك لم تُشغَفْ بابتنة أخى إلا لما لها .
وهذا ما حدا بالمرحوم إلى الإيلاء ، إذ خشى أن يكون مآلُ وحيدته مآلَ
زوجتك من الإفلاس والتشريد ، على أن شبهات قوية تكثنف حياتك ،
وتحول دون رضائى عن هذا الزواج .

فشعر السبع كأن إبراً مسمومة تنفذ إلى كبده ، ولم ينالك نفسه من
القهقهة ، ثم حدّق فى وجه محدثه قائلاً :

أما أنى أبغى الزواج للمال فهذا محض افتراء ، فما أحببت عائشة إلا
لذاتها ، وما أفكرت إلا فى إسماعها ، وإني مستعد لأن أتنازل لك بالنيابة
عنها عن كل ما يخصها من ميراث .

وأما أن حياتى مجال المظانّ قلبس مثلك أنت من يُقَطَّع برأيه فى
هذا الشأن ، فإن القاضى يجب أن يكون شريفاً طاهر الذيل قبل أن
يتعرض للفتح^(١) بين الناس !

فامتعض الشيخ من هذا التقرير ، ودبّ إلى قواده الذعر والشك

حما . ولكنه تشجع قائلا : ومن ذا الذى يجروني على تدنيس ثوبي المقى ؟
فأجابه الآخر وفي صوته رنة الاستهزاء والتحدى : أنا أيها العمدة
الجديد ، والوارث الوصي ، والقاتل الماهر ! وهل بعد قتلك شقيةك الوحيد
رغبة في عَرَض زائل مُفْتَقَر إلى التدليل على خِسَّتِكَ ودناءتك ؟ لقد
انتحلت الأسباب ، وجاهدت ما استطعت في ستر سوءتك ، وإخفاء
جريمتك ، وأردتُ أنا مشايعةًك في هذا التستر ، ولكن أبي لسانك
العائر إلا أن يفتضح أمرُك ، ويُداع سرُك .

زعمت أن في مَكِنتِكَ ^(١) ردَى عن هواي بتهديدك إياي ولكن
طاش سهمك ، وقال زعمك ^(٢) ، وردَّ كيدُك إلى نحرك من حيث
لا تشعر

ألا فاعلم أن حياتك معلقة بحيط وامي يكتنفه شِقَا مَقْصَّ القضاء ، وأن
كلمة واحدة من فمي تنبُش دفين بستانك ، وتلطنح جبينك ، وتطوِّح
بأملك بل تنسف حياتك نسفا ... !!

ثم خفف من لهجته ، ونَهْنَه ^(٣) من وعيده قائلا : فانت ترى الآن
أنى قصدتُ المسالمة مع قوتي ، وأبيتُ أنت إلا الحاربة على ضعفك
على أنى ما برِحتُ مستعدا للمصالحة بل شدَّ أزرِكَ فيما تريد على
شريطة أن تُقرَّ الزواج وتعمل على تنفيذه

شعوا المخاطب المسحور بثقل الوطأة ، وأنه في قبضة خصم لا يرحم

فلم يجد مناصاً من الانحناء حتى تمرّ العاصفة بسلام . فبدأ يعتذر عما فرط منه نحو صديقه . وقال إنه لم يقصد تهديده مطلقاً ، وإن ما فاء به إنما كان صدئى ما تردد على بعض الألسنة الهاذية ، وإنه هو يعتقد فيه الشهامة والفتوة ^(١) وطهارة الإزار ، وإنه يعتبره صهره من الآن .

شكر السبع له تغيير رأيه فيه وإقراره الزواج ، ثم صافحه وانطلق منبسط الأسرة مثلوج الفؤاد . وقضى الشيخ شهاب ليلة ^(٢) سوداء كان فيها نهجى للهواجس ، ومُستَرَادا ^(٣) للريب والوساوس ، وهَدَفًا لَوَخَزَات مؤلمة ، وكذعات محرقة .

لم يمض على هذه المحاورة أسبوع حتى صوّب سهم آخر إلى فؤاد عائشة المكسوم ، وانتزع منها الرضا انتزاعاً . وكيف تستطيع المقاومة وحلّها من الهم والوهنى ^(٤) حالها ؟ وكيف تفكر فى الإباء وقد صوّر لها الزوج ملكاً من ملائكة السماء خلقاً وخائفاً ، ورُسمت أمامها السعادة المنتظرة والمستقبل البهيج ؟ ثم أليس عمها أدرى بمنفعتها ، وأحرصّ الناس طرّاً بعد أبيها على راحتها وهنائها ؟ ثم ماذا يكون غضب ابن خالها فى جانب إرضاء وصيتها ؟ إنها لم تحبّ ذلك الضابط ولم تُبغضه لأن قلبها لم يتذوق الحب ، ولأن طبيعتها لم تألف البغض . وكل ما فى الأمر أنها نشأت وإياه نشأة طفلين قريبين ، ثم كرت الشهور وتعاقبت السنون وهى تسمع أنها محجوزة له ، فليست المسألة مسألة حب من الجانبين كما ادعى عمها .

(١) الكرم (٢) ليلة (٣) موضعاً (٤) الضعف

عُقد العقد في غير مظهر ومن غير ما اعتيد من الاحتفاء في مثل هذه الأحوال ، وضرب موعد قريب للزفاف ، وسارت الأمور على ما يهوى العروس حتى قبيل اللقاء المعين . ثم حدثت حادثة غير منتظرة أتت على كل ترتيب ، وزلزلت أركان السلام :

كان الوقت أصيلا ، وكانت أشعة الشمس المسجدية^(١) تسقط على الأزهار في حديقة العمدة فتزيدها بهجة وحسنا ، وكانت عائشة تجوب خلال ذلك البستان الصغير شاردة العقل مطرقة الرأس كأنما تريد أن تستشف ما تحت أديم الأرض من عظام محبوبة ، وإذا بامرأة حافية القدمين مشتملة بملاءة سوداء ، ومقنعة بقناع أسود تلج باب الحديقة المفتوح قليلا ، ثم تتبعها بخطى قطيعة ، حتى إذا دانتها صاحت بصوت أبح : عائشة ! التفتت المناداة مرتاعة لأنها لم تتوقع مثل هذه المفاجأة ، وهمت بالصراخ ، لولا أن القادمة أسرعت بالكشف عن وجهها قائلة : أرجو ألا تنزعجني يا سيدتي من مرآي هنا ، فإني آتية لأبلغك رسالة هامة لا بد أن تسمعها ، ولكنني قبل أن أقفك على متضمنها ألتس منك أن تسوقيني إلى مكان أمين لا نرانا فيه عين أو تسمعنا فيه أذن

وقفت العروس حيرى ذاهلة ، ثم زفرت زفرة عميقة وقالت : ولكن من أنت أينما السيدة ؟ إن عيني لم تقع عليك قبل هذه الآونة ومن عسى أن يكون رب الرسالة التي تحملين ؟

فرددت الأخرى : من أنت ؟ من أنت ؟ ثم دنت منها خطوة
وقالت : ليس بمجيب ألا تعرفيني يا عائشة الآن فلقد كنت طفلة حين
رأيتني وجالستني وآكلتني . آه ما كان أمد ذلك الوقت الذي كنت
أعانقك وأقبلك فيه ، كما بعانقك ويقبلك والدك الرحيم المفقود !
فجاشت نفس العروس لذكرى والدها ، وتحللت الدموع من شؤونها
على الرغم منها . واستمرت الأخرى تقول : إني يا عزيزتي زوجة السبع
البائسة المنكودة .

ثم أدنت وجهها من عينيها وقالت : أنظري إلى وجهي !
ف نظرت المخاطبة كما سئلت فإذا هي أمام جسم هَبَطَ ^(١) الشقاء لحمة
ووجه علقه الكُمْدَة ، ونال منه الهُزال ، مُظِلَّ العَيْنَيْنِ ^(٢) متهدل الأجنان
يتدلى على عارضيه خصللات مشتمة مغبرة من الشعر قد شاع فيها القَتِيرُ ^(٣)
وعبشت بجبالها يد الزمان

وذكرها ذلك الشبح المائل أمامها بتلك المرأة التي كانت كلفةً
بها منذ ثلاث سنين ، وأعاد إليها صورة ذلك الوجه القسيم والقدر الشيق
والوداعة الآسرة ، فسكاد بصعقها ذلك البون الشاسع ، والتغير الرائع
ولم تمالك نفسها فأخذت ذلك الحيًا الذابل بين يديها الصغيرتين فقبلته
وكفَّتْ ^(٤) صاحبه إليها كَفَّتَ الأمُّ الرُّومَ لواحدًا حتى التصق

الصدران الكليمان ، وتناجى القلبان الخافقان ، واختلطت الدّمعات ، وتصاعدت
الزفّرات . . .

منظر من أروع المناظر يُغنى رفائيل عن الخيال ، ويجمع بين الرهبة
والجلال ؟ جمال ذاوٍ وآخر مؤذن بالزوال ، وحياة آفلة وأخرى ذات
كفاح نفسى ونضال .

الفصل الحادى والستون

العصيان

اقتربت المتعاقبتان على أثر صوت عربات تدنو من المنزل . وهمت عائشة فى أذن صاحبها : إنها العربات تُحضر قية الجهاز ، فهلأتى معى إلى حجرتى حيث نستطيع التحدث بدون مقاطعة .

وسرعان ما احتوتهما غرفة فسيحة مُطلّة على الحديقة . وأنشأت رقية تقول : حمدا لله على أن خَلَصْتُ إليك بعد أن كاد اليأس يقضى على أملى فى لقائك . لقد حاولتُ الوصول إليك مراراً وكَمَنْتُ فيما ظننتك تترددى عليه من الأمكنة ، ولكننى كنت فى كل ذلك غير موفقة . وهأنذى الآن مُفضيةً إليك بما حملنى إلى هنا :

لقد بلغنى خبر والدك الكريم فخرت له وبكىته بكاء مرّاً ووددت لو أستطيع مساعدتك فى مُصائبك ، ثم تأدّيت^(١) إلى أمر زواجك بالسبع فطارت البقية الباقية من عقلى ، وأقسمت أن أحول دون إتمامه ، لاغبرةً منى على زوج أحببته يوماً ، فلمنى أشنؤه الآن ولا أتمنى رؤيته ، ولكن لأنك شابة جميلة طاهرة القلب حسنة الطويّة . وفتاة هذ. صفاتها حرام أن

تقترن بوحش ضار ، واصل أنيم ، وجزّار سفّاح مثل زوجي !! لقد رأيت بهي رأسي يذبح بيده رجلين من رجاله لأنهما أفشيا سرّاً من أسرار عصابتة . وكانت نتيجة كسفي لسره ماترين الآن من هُزال مبرح وتشرّب دائم ، وجنون مفاجي

ثم لحته مرة أخرى هو ونفرا من أتباعه يحيطون بشيخ ضعيف أعزل ويسلبونه مامعه ، وسمعت المسكين يستغيث ولكن مامن مفيت . ولم أرم مبلرحة مكمني قبل أن أمد يد المساعدة لذلك البائس ، ولم أقدر على تنفيذ متمناي إلا في الصباح .

ونظرت مرارا هو وصديقه عيسى وراء مثل هذه الشرور . وإن أنس لا أنس سجنه لي شهوراً طويلة وإذاقتي الأمرين حتى اختلط عقلي وتاه رشدي . . . فكيف رضيت به بعلا أيتها الحبيبة المسكينة ؟

فصاحت الأخرى . وقد هالها ما سمعت ، والعبرات تخنقها : إنني قبلته مكرهة لا طائعة ، ولو كان لي الخيار لنبت كل فكرة عن الزواج سواء أكان به أم بسواه . ولكن لا يزال في الوقت فُسحة ، وسأعمل كل ما في مكنتي لفسخ العقد ، فإن فزت بمكلمسي فوافرحاه ! وإن كبوت دون درك أمنيّتي فويلاهُ مما ألقاه في الغد ويلاه !
ذلك عهدي ألا يمسنّي إلا جثة هامدة !

فصاحت الأخرى : والآن قد ارتاح ضميري ، وخففت عن عاتقي .
وسأبلغهم أنني أدبت الرسالة ، وأنتك متنفذين مشيئهم

فقدت عائشة وقد لاحظت شيئاً من التغير في حالة محدثتها : ولكن
عن تتحدثين يا عزيزتى ؟

فأجابت على الفور : عن الملائكة ، إنهم هم الذين كلفوني القيام
بمهمتك ، ولطالما زاروني في اليقظة والهجوع واستحثوني على إنجازها .
وإنهم الآن ينتظرون الرد بفروغ صبر . . .

ثم حدثت بيصرها نحو السقف ، وأشارت بيدها قائلة : أنظرى
إليهم بأجنحتهم الخضراء ، ووجوههم الضاحكة ، وأجسامهم الشاقة !
أنظرى إليهم ، وحييتهم بيديك ، فهم حارسوك ومنقذك من مخالب ذلك
الجبار الظالم . . .

ثم عقد لسانها ، وحال هذيانها نظرات حائرة ، وأخذت نوبتها القصيرة
تُفرق نفسها في لجة الدموع

لم تشأ عائشة كف صاحبها عن البكاء لاعتقادها عن تجربة أنه
متنفس المكروب ، وسلوة الحزين ، فتركتها على حالها ، واكتفت بوضع
رأسها على كتفها ومسحها بين لحظة وأخرى ، ولم تغير من وضعها إلا حين
سمعت عمها يناديها أن انزلي لترى ما أحضرنا من الأثاث . فنهضت إلى
باب غرفتها وأطلت منه صائحة : إني آتية بعد قليل بإعماه .

وكانت النوبة الخفيفة قد قضت أجلاً ، وما شعرت رقية برجوع
رشدتها حتى استأذنت في الانصراف ، فشيّعنها عائشة حتى باب الحديقة
هامسة في أذنها : غداً قبيل صلاة العشاء سأنتظرك في الحديقة لأخبرك

بما قرأني عليه ، فاحضري إلى ، و حذار أن تنسى الميعاد .
رجعت عائشة أدراجها إلى حيث ينتظرها عمها ، فأدهشه ما لمح على
محيّاها من شحوب ، وما في وجنتها من آثار الدمع ، وفي عينيها من ذبول
ولم تحدغه تلك البسمة المتصنعة تخفوق على شفيتها . فصاح متأثراً : ما بك
بابنتي ؟ لقد فارقتك في الصباح وأنت مغتبطة فريرة ويبدو لي الآن أنك
تبكين . فهل جداً أمر ؟

فأجابت متمسكة : ليس عليّ من بأس ياعمي ، وإنما هو تأثير خفيف
عراي لرؤية امرأة لاهفة ^(١) مسكينة نال منها ريب الحداث
فقال : إني لا أعذ لك على رقة قلبك فذلك وايد الفطرة ، ولسكنك
أحوج مانكونين إلى رؤية ما يبعث السرور وتنكب ما يثير الشجن . ومن
عسى أن تكون تلك الزائرة ؟ لقد لحتك وإياها بالحديقة .
فترددت برهة ثم : أجابت : إنها بأسة قصدني لحوبة ^(٢) وقد
أجبت مؤلها .

ولم يرد إطالة تلك النعمة المشجية فعطف إلى نعمة أخرى ظنها
مفرحة قائلاً : دعينا من هذا الآن ، وتعالى معي نمتع النظر بما اشتريت لك .
ثم قادها إلى حجرة واسعة ، وأخذ يريها قطع الجهاز المختلفة . وكانت
بلا ريب نفيسة وثمينة تأخذ بالبصر ، وتسير السرور إلى الفؤاد
فألقت نظرات عجلَى هنا وهناك متكلفة الفرح والابتسام ، ثم شكرت

عَمَّا ، وانحدرت إلى غرفتها معتذرة بحاجتها إلى الراحة والنوم وقضت
فَجَّةَ ليلها بين سهاد مبرح ، وأحلام مزعجة

جاء الصباح مضيافاً سنين إلى عمرها ، ولم يشك من رآها أنها في
حالة يسأل من مثلها العافية . ولما علم عمها بحالتها ذهب تَوَّاً إلى حجرتها ،
فألقاها مضطجعة في فراشها ، وبجانبها زوجها العقيم تلاطفها وتواسيها . وأثر
فيه مرآها حقاً ، ولكنه طمأنها وأخذ يشجعها قائلاً :

ليس مابك إلا أثرًا من آثار التطور في الحياة ، إذ لكل مرحلة
من مراحل المعيشة لوازمها . وإنك قد قطعت المرحلة الأولى وستبدئين
الثانية غداً ، وإن زوجتي قد أصابها من الوهم ما يصيبك الآن قبيل
زفافها إلى

ثم نظر إلى زوجته وقال : أليس الأمر كذلك يا صفيّة ؟ فتذكرت
صفيّة عهد الشباب الغابر ، وكشفت عن ثغرات طار الزمان واضِحَّتْهُ^(١) .
وتوجهت نحو المضطجعة قائلة : إن ما يقوله عمك هو عين الصدق ، فتشجعي
يا ابنتي واطردى هذا الوهم ، وفكري في المستقبل السعيد الذي يترقبك .
ولخير لك أن تنهضي من سريرك وتأتى معنا ، فإننا في افتقار إلى ذوقك في
تهبىء الجهاز . ولقد آن لنا أن نُعدَّ كل شئ في محله .

فصاحت الفتاة مُقْضَبَةً ، ولم تكن قاهت بلفظة حتى هذا الوقت :
لِيُهَيَّئِ الجهاز من يتمتع به ، وليهتمّ بالزواج من يريده . أما أنا فلا أبغى
زواجاً ولا جهازاً

(١) الواضحة الأسنان تبدو عند الضحك

فتملك السامعين اضطراباً عجيباً ، وتعاقت على وجهها صحابات
مختلفة الألوان من صفراء وحمراء وسوداء ، وتراعى بالنظرات ، وتقاذف
بالآهات ، وصاحا في نفس واحد : وما معناة ^(١) هذا الكلام ؟

فقال عائشة معناته أنى غششت في أمر هذا الزواج المختار ! وأن
الذين غشوني ورطموني ^(٢) هم أقرب الناس إليّ ، وأظهرهم بالمطف على ،
ثم هبت من مضجعها ، وانتصبت على قدميها ، وقد طفا الدم إلى وجهها
الشاحب ، وسرت في كل عضو من أعضائها رعدة الحى وصاحت : إن من
اصطفيتهموه لى بعلا لص محتال وسفك أثيم وطاغية ظالم !
لم يكفه أن طغى على فتاة فسلها مالها وقلبها ، وأطار منها عقلها ، وتركها
شريدة تتخبط ، فأنى ليقضى على حياة فتاة أخرى ، ويلصق بها عاره
وآثامه الصارخة !

حرام على الطعام والشراب حتى أبعد من ذلك الشين ، وانتشل من
برائن ذلك المجرم العاتى ! فالأمر بينكم فإن شتمت أنقذتموني ، وإن شتمت
أهلكتموني !!

ثم نظرت إلى زوج عمها بحالة مُذْيبة نظرة المسترحم ، المستنجد وقالت
ارحمينى يا أمى وانتشلىنى من هذه النيران الملتهبة ! اعطى على فتاة لا معول
لها بعد الله إلا أنتم !

(١) معنى (٢) رطمه أو حله في أمر لا يخرج منه

فصاحت المحاطبة وقد خَضَبَتْهَا الْعَبْرَات ، وبلغت من قلبها
التضرعات : اهدني يا عزيزتي ، واعلمي أنني سأكون عند ظنك بي .
ولا تأخذيني بجرمة غيري ، فليس لي في هذا الشقاء يد ، ولا استشير لي
في هذا الزواج رأي ، وإذا كان ما تقولينه صحيحاً فالإجرام على زوجي
وحده ، والخطأ خطؤه !

فَدَمَّ مَدَمَ ^(١) حينئذ الزوج الغضبان على زوجته ، وزأر : كفى أيتها
الخرقاء المجنونة ، وإني آمرك أن تبرحى هذه الغرفة حالا ، وإلا هشت
رأسك - ولوَّح بقبضته في الفضاء مُوعِداً ومهدداً
لم تر الزوجة مندوحة عن الفرار من وجهه ، ففرت . ولبث هوفي
مكانه يرغى ويُرْبَد .

وتهيات الفتاة لخوض الحرب المظلة الحاسمة ، فدرّعت نفسها بكل
ما تستطيع من عُدَّة غير حاسبة للنتيجة حساباً

تقدم عمها منها خطوتين ، ثم قال في شيء من اللين : إنك تلعبين
بالنار يا عائشة ، وإلا فما مغزى هذا التغيير الفجائي والظهور بمظاهر العاقب
العنيد ، وقد أوشك أن يتم كل شيء على ما نهوى ونأمل ؟ وما أحسب
منشأ هذا التبايل والاضطراب إلا زورة تلك المرأة الملعونة لك بالأمس
أليست هي رقية السكيالة ؟

فصاحت : بلى هي زوجة السبع المنكودة المشردة ، وقد أفضت إلى
بكل شيء ، وهدتني إلى طريق الرشد بعد أن أوغلت في طريق النقي !
فصاح في شيء من الحدة : ولكنها مجنونة لا تفقه ماتقول ، وإنك
كنت مُحمَّقة حين نشرت لها أذنك لتفرغ فيها سموم أباطيلها ومفترياتها
وكيف تميزين لنفسك أن تحكى على شخص كريم النجار ^(١)
عظيم القدر حكمك الظالم لشبهة سبقت إليك على جسر من الخديعة ، أو
لفرية ^(٢) مبعثها الغيرة والحقد ؟ على أنى لم أبت في هذا الزواج إلا بعد
أن استشرتك .

فصاحت : إنك لم تستشرني ، ولكنك خدعتني ، واغتصبت مني
القبول اغتصابا ، وصواء أكان ما بلغني صدقا أم مينا ^(٣) وسواء
أكان غرضك شريفا أم مدخولا ، فإنني لن أنزوج بهذا اللص
ولا بغيره

أطارت هذه الألفاظ المتحدية طائر حِلْمِ عمها ، وأفقدته بعض صوابه
فتبض يمينه على معصم يسراها وصاح : لقد نسيت أنى عمك ووصيك ،
وأن لي الحق المطلق في إرغامك على ما أريد ! فصاحت غير مكترثة :
لك أن ترغم أعضائي على الخضوع لقوتك الجثمانية ، ولك أن تتصرف
في مالي كيف شئت ، ولكن ليس لك أن تُصرِّف قلبي ، أو تبدل
اعتقادي وعاطفتي !

فقال بصوت المهدّد : وماذا أنت فاعلة إذا أنبأتك ألى لن أحيّد قید شعرة عن خطى المرسومة ، وأنك ستذهبين إلى بيت زوجك غدا طوعاً أو كرهاً ؟ .

فصاحت كمن به خطرّة ^(١) من الجن : وإنى أنبئك ألى لن أذهب إليه وفي عرق ينبض ! ولم هذا الاصرار المؤلم والأمر معلق بحياتي وبمستقبلي ؟ اللهم إن وراء ذلك لسراً كميناً لا أستطيع كشفه !

فقال : اهذى ما شئت ، وشطى في حكمك كما أردت ، فليس هذيانك بشأن لي عزيزة ، ولا شططك بذى أثر أو قيمة

ثم تركها وخرج صاقفا الباب وراءه ، وأمر في الحال بحمل الجهاز إلى بيت العروس - ونفذ الأمر .

الفصل الثاني والثلاثون:

لقاء الزوجتين

فَرَّتْ جِيوشُ النَّهَارِ ، وَبَدَتْ طَلَانَعُ ابْنِ حَامٍ ^(١) ، وَالسَّبْعُ جَالِسٌ
بِجَانِبِ صَهْرِهِ يَحَادِثُهُ ، وَعَلَانِمُ السَّرُورِ عَلَى مَحْيَاهُ بَادِيَةٌ ، وَصَفِيَّةُ وَالْخَدَمُ
مَشْغُولُونَ بِإِعْدَادِ الطَّعَامِ لِلضُّيُوفِ ، وَالْفَلَاحُونَ مَا بَيْنَ خَارِجٍ وَدَاخِلٍ وَإِذَا
بِرَأْسَةِ شَيْطَانَةٍ تَنْفِذٍ إِلَى خِيَاشِيمِ الْحَاضِرِينَ . فَتَنَازَلُوا بِرَهَةٍ ، ثُمَّ صَاحَ رَبُّ
الْمَنْزِلِ : اذْهَبْ يَا حَمَّادُ وَاكْشِفْ مَبْعَثَ تِلْكَ الرَّأْسَةِ . . .

وَمَا أَتَمَّ كَلِمَتَهُ حَتَّى سَمِعَ صَرَاحَ وَأَصْوَاتَ تَصِيحٍ : حَرِيقُ ! حَرِيقُ !
الماء ! الماء !

هَبَّ الْكُلُّ مُفَرِّخِينَ ^(٢) وَانْدَفَعُوا إِلَى الْبَهْوِ ثُمَّ إِلَى السَّلَامِ ، وَمَا
انْتَصَفَوْهَا حَتَّى قَابَلَتْهُمْ زَوْبَعَةٌ مِنَ الدِّخَانِ مُعَمِّيَةٌ ، فَتَرَا جَمْعُ بَعْضِهِمْ انْقَاءً
وَخَاضَ بَعْضُهُمْ غِمَارَهُ مَتَخَبِّطًا .

وَتَرَا كُضَّ النَّاسِ لِإِحْضَارِ الْمِيَاهِ . وَكَانَ السَّبْعُ أَوَّلَ الْمُغَامِرِينَ بِحَيَاتِهِ
فَحَمَلَ عَلَى بَابِ الْغُرْفَةِ الْمَقْفَلِ - حَيْثُ النَّارُ تَلْتَهَبُ - حَمَلَةً هَشَمَتْ أَعْضَاءَهُ ،
وَانْدَلَعَ عَلَى أَثَرِهَا أُلْسُنَةُ النَّورِ ^(٣) الْمَعْقُولَةُ ، وَتَصَايَحَ الْقَوْمُ : إِلَى النُّجْدَةِ !
نَجُوا الْعُرُوسَ النَّاعِسَةَ ! نَجُوا الْعُرُوسَ النَّاعِسَةَ ! ! !

وَلَكِنْ الْعُرُوسُ كَانَتْ أَبْعَدَ مِنْ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا بِدِّمَسَاعِدَةٍ ، فَقَدَ

طوتها النار في جوفها طيما ، ولم تُبق منها إلا على آثار سوداء .
وبعد كفاح ولأى تمكن الناس من إطفاء النار على أن تشب في
أفتدتهم ، فقد راعهم منظر الفتاة المحترقة أى رَوْع ، وأسأل من أعينهم
غزير الدمع !

أما السبع فلم ير في حياته أكثر جزعا وذهولا ، ولا أضيع عقلا وقلبا .
وقف أمام آثار عروسه هيف القلب ^(١) ، يبكي بكاء الطفل ، ويندب
حظه المنحوس ، ويصبح في أغوار نفسه : سَحْقا لى وجرعا ! فأنا الذى
هَجَلت حينها ^(٢) ، وسقتها إلى هذه الخائنة الصاعقة !

وبينا الحضور في ذهولهم وحزنهم إذ سرى إليهم صوت قهقهة عالية
فلكهم الدهش . وانفتل السبع مُغْتَلِمًا ^(٣) يتعرف مصدر تلك السخرية .
وما جاوز عقبة الباب المكسّر حتى رأى نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة واقفة
على الدّرج الموصل إلى السّطح في سَحْنة أهل القبور . . . هى زوجته الأولى
فوقف في مكانه فجأة ، مُنْكَرا ما رأت عيناه وأعادت الواقفة قهقهاتها
صانحة بأعلى صوتها : لقد أخبرتها بكل شيء ونجيتها من شر مستطير ،
ووحش كاسر . ولقد وفّت بوعدها وهأنذا لاحقة بها

ثم قفزت إلى السطح مأهئة ، وطار السبع وراءها . ولكن قبل أن
يمسها بخير أو شر طوحت المجنونة بنفسها في الفضاء ، وهوت إلى الأرض
مدكوكة العنق !!

(١) محترق (٢) علا كها (٣) هانجا

حادثتان مروّعتان في مساء واحد ، ومشهدان رهيبان يبعثان الشجى
والحزن ، ويسيران القلوب في الصدور تسيراً ، مشهدا زوجتين منتحرتين
فراراً من وجه الحياة العابس ، وتخلصاً من عذاب شافٍ تأم
وداعاً أيتها العذراء الطاهرة ، وكلّمنا على ذلك الشباب الغضّ حَظِيَّتْ
به يد النار ، وذلك البدر الساطع لم يمهل لوقت سرار . لقد بررتِ بقسمك ،
وآثرتِ الموت على حياة كدرة ! فلينعّم عملك بما خلفتِ له من تراث ،
وليدُق ثمرة تأمره وإصراره ، وليثقل عاتقه بالأوزار ، فالسّاهرة^(١) تناديه
وبش القرار — غفر الله لك زلتك ووسعتك رحمته !

وأنت يارقية لقد أبيتِ إلا أن تلحقى بضرّتك الحسناء بعد أن
غسلت يد الحوادث القاسية حَوْبَاتِكَ^(٢) ! وليت شعري أية عاطفة
كانت تنبت بينكما لو قدرت لكما معيشة الضرّات ؟ إنكما التقيتما في دار
غير هذه الدار الفانية حيث لا حسد ولا خيّر ، ولا غيرة ولا شجار !

آلت تركة الشقيق المخنوق إلى العمدة بقضّها وقضيضها^(٣) . فهل
سعدت نفسه الحبيشة الطامعة ، أو نعمَ بالله بما دبر من سوء ؟
إن حالته تنبئ بغير ما ينمّ عليه ظاهره ، فلقد استيقظ ضميره على أثر
جنايته الثانية . وويل للآثم إذا رنّ في أذنه صوت الضمير ، ونفذ إلى قلبه
نداءه !

إيه أيها السرّ الخفيّ ، والوحي الإلهيّ ، والرقيب الحسيب ، والحاكم
العادل ! كم بعثت الندم والاستغفار ، وأكثت^(١) من عنيد جبار ! وم
سقت السعادة إلى من راجعك ورعاك ؛ وأذقت الشقاء من ناواك
وعاداك ! لك وخز كوخز النصال أو أشدّ ، ورماية كرماية الموت أو
أسدّ ! اذا هجمت فيالك من ضرر ، وإن انتبهت فيالك من خطر ،
وإذا صحت فبالعظات والعبر ! إن في إرضائك راحة ولذة ، وإن في
إغضابك اضطراباً وثورة !

وهكذا أنفذ الضمير حكمه في ذى الجنايتين ، فأولع به السهاد ، وأقض
عليه المهاد ، وبلبل منه الفكر ، وصبّ عليه سوط عذاب !
أصبح وأمسى منهباً للريب والوساوس ، وزاد سوء ظنه بالسبع وخوفه
منه ، وعدّه خصمه الألدّ الذي يحبّ التخلص من حياته بأى ثمن وفى
أقرب فرصة . ظن أنه يستطيع اشتراء سره بالمال فعرض عليه ضعف
ما يستحقه من ميراث زوجه المحرّقة ، ولكن السبع طرح ما عرض عليه
بإباء وشتم قائلاً : احتفظ به لنفسك وكفانى ما سألت مزهداً فى
كل نفيس .

منذ انقطع ذلك الخيط الذى يربط الصهرين بانقطاع خيط عائشة ،
والعمدة ينصب الحبال ويعدّ المسكّن للتخلص من السبع مبعث خوّه^(٢)
ومذلتة بالنهار ، وكابوس نومه بالليل . ووجد أن أسلم الطرق وأنجمها الاتجاء

إلى كلبيه السحرتى والمغربى، فجداً فى إغرائهما به وإرسالهما فى أثره ، طورا بالمال ، وآخر بالرجاء ، وحينما بالحب والحديعة

أمكنه بعد مفاوضة يسيرة أن يمحوا أثر جر يمتته المائل فى الحديقة بنقل رُفَات أخيه إلى مكان بعيد عن الشبهات ، وبذل كل مافى طاقته لحل الخفير بن اللصين على قتل رئيسهما حتى قبلا ، ولكلهما عدلا فى آخر لحظة حينما تراءى لهما شبح السبع المخيف ، وتمثل أمامهما هول العقاب فى حال الخيبة . وأرادا إرجاع مقدّم الأجر وهو مائتا جنييه ولكن العمدة وهبه إياهما عن طيب خاطر ، بل عرض عليهما فضلا قائلا : إن مالى تحت تصرفكما ما أرحماني من ذلك الفانك الجبار . فأجابا : وإنا كذلك تحت أمرك ، ، ولكن دعنا قليلا حتى نحكم الشبكة وتتاح فرصة ملائمة .

الفصل الثالث والتسعون

الكمين

كانت الليلة إحدى ليالي الخريف ذات ريح حاصب^(١) بدا هلالها
كزورق فضي أثقلته حمولة عنبرية ، أو كمنجل أجنبي يحصد أزهار
الدُّجَيَّة ، تم انحدار إلى مهده فانتثرت الدرر في قبة السماء

وما انتصفت الساعة الثانية عشرة حتى بدت أشباح تنسلل إلى بيت
كبير يمت غمر قائم على ضفة النهر الشرقية زالت معالمه الآن ، وجرى فوق
أرضه شارع البحر ، وقام بالقرب منه بيت لبعض أسرة رجب . وكان ذلك
البيت لتاجر يوناني ثري يدعى « بنى بابا »

بدأ اللصوص هجومهم من طُنف مشرف على الماء ، وخاَص السبع
والكومي وسبعة آخرون إلى غرفة متصلة بالطنف . وانتشرت ستة حول
البيت يحمون إخوانهم ، ويقومون مقام النذر إذا دهمهم داهم

وكان البيت في ظلمة القبر على غير عادته ، فأوجس بعض المهاجمين
في نفوسهم خيفة ، واعتقد البعض أن البيت خال من السكان وأن العمل
لذلك أيسر عليهم . ولم تحل الظلمة دون وصولهم إلى حجرة متوسطة الحجم
مطلّة على النهر من الجهة الجنوبية حيث الخزانة الحديدية .

وصل اللصوص إلى تلك الغرفة ، وأخذ الكومي يوقد شمعة في يده

(١) تحمل التراب

وما انتهى من إيقادها حتى سُمِع صوت صفارة عَقَبه صوت إطلاق ناربية . فخفت قلوبهم خفقة واحدة ، وسكَّرت أبصارهم ، وعُلقت أنفاسهم برهة ، ثم صاح السبع : إنا وقعنا في فح محكم ، ولكن ذلك لا يمنعنا من المقاومة حتى تسيل آخر قطرة من دمائنا ، فاتبعونى .

واندفع إلى الباب رافعاً غدارته ، وما وصله حتى رأى نفسه أمام ضابط مديد^(١) القامة فى لباسه الرسمى شاهر مسدسه ، وحوله عدة عساكر مصوِّبين بنادقهم نحو صدره ، وأن البيت الذى كان مظلماً حين دخلوا صار فى ضوء النهار ، فقال : هذه مفاجأة جميلة لم تكن تتوقعها ، وأظن أنكم تريدون القبض علينا ؟

فقال الضابط : لم نأت لغير ذلك ، وإنا نتحرَّج^(٢) من سَفْح الدماء بلا داع . فإن رأيتم أن تساعدونا فى إتمام مهمتنا - وأشار إلى الأصفاد^(٣) تنتظر تكبيالهم - وإلا أمرت الجنود بإطلاق الرصاص وكانت عاقبتكم وخيمة ! ولا يُطمعنكم فى المقاومة قلة عددنا ههنا ، فحول البيت ثلثة كبيرة من العساكر تنتظر الإشارة للهجوم بعد أن أمرت كل رجالكم . وقال رب البيت فى لغة مكسرة لا تنس يا حضرة الضابط أنى أنا وزوجتى مستعدان للحرب أيضاً إذا دعا الحال .

فناطق بعض اللصوص متحمسين : إننا نؤثر الموت مقاومين عل خضوع

مَعِيب وتسليم شائن

(١) طويل (٢) نمتنع (٣) القيود جمع صَفَد

ولكن السبع صاح مؤمضاً إلى الكومى إيماضاً له معناه الخفى : لا .
لا . أيها الرفقاء . لا داعى لإسالة الدماء ، وخير لنا أن نسلم . ثم نظر إلى
الضابط قائلاً : هايداي فكبتلهم كما تريد يا حضرة الضابط . ومد ثلاثة
آخرون من المعارضين أيديهم ، دافعين رئيسهم بشدة إلى الوراء وقائلين :
فلنكن نحن أول من يكبتل ، لأننا عارضنا إرادة رئيسنا .

فضحك السبع ضحكة متكلفة وقال إنما الرئيس من يفضل غيره في
الشجاعة . . . وما أنتم بجلته حتى مرّت من جانب أذنه اليمنى رصاصة ذات
دوى استقرت في جمجمة الضابط . فجئن عند ذلك جنون العساكر ،
وأخذوا يطلقون بنادقهم على غير هدى .

وكان ظلام الحجرة التى بها اللصوص خير مساعد لهم على اتقاء الرصاص
وتنظيم المقاومة مدة غير قصيرة . وأبدى الكومى من ضروب البسالة
والتضحية ما جعل خصومه يترنّمون به فيما بعد

دفع الكومى السبع إلى إحدى نافذتى الحجرة وقال : أنج بنفسك .
ولا نفعك مهارتك في السباحة ، إن لم تنفعك الآن !

فظهرت علائم التردد على وجه الرئيس ، ولكن الكومى صاح :
أستحلفك برؤفاتها إلا نجوت بحياتك ، وإني تابعك بعد قليل . ثم دفعه
بكل قوته نحو النافذة ، وتنفس الصعداء إذ سمع صوت وثبته في الماء

كَبِثَت الحرب سِجَالاً بين اللصوص والعساكر ما ينفى على ثلث
الساعة ، ثم رجعت كفة الجنود بقتل الكومى الذى عرّض نفسه كثيراً
للخطر ، ووصول نجدة إليهم من إخوانهم

وانجالت المعركة عن قتل ثلاثة من الأشقياء وأسر الباقي . أما الجنود فقد قتل منهم غير رئيسهم جندى ، وجرح أربعة جروحاً خطيرة .
اختفى السبع ، ولم يوقف له على أثر لافى الماء ولا فيما جاوره من
الأمكنة والطرق ، ورُجِح غرقه ، لأن البقعة التى رُمى بنفسه فيها كانت
مشهورة ببعد غورها ، وشدة خطرها ، بل بكونها مسكناً للغيلان وشياطين
النهر . وباختفاء السبع وموت وكيله فَضَّتْ خَدَمُهُ ^(١) أفراد العصابة
العظيمة التى رَوَّعت الأهالى ورجال الأمن على السواء مننين طويلة ، وضعف
شأنها ، وزال خطرها .

ولم يمض على أفرادها بضعة أسابيع حتى كان معظمهم فى غيابات
السجون القائمة يُسَامُونَ الحسَفَ والهوان ، ويعانون من الشقاء الأشكال
والألوان . وكان بَطْشُ القضاء بهم شديداً ، وعقابه صارماً وأليماً ، فقد حكم
على كثير منهم بسجن الأبد ، كما حكم على سبعة عشر منهم بالإعدام شنقاً
وكان أقل الجزاء عشر سنين مع الأشغال الشاقة . وَخُصِّصَ مبلغ كبير لمن
يقبض على السبع حياً أو ميتاً .

فعلت هذه الأحكام السريعة الرادعة فعلها فى نفوس كثير من أهل
الإجرام ، فَتَقَبَّعُوا فى دورهم رَيناً ينقشع السحاب المهدِّد ، وتحمَلُ جذوة
رجال الشرطة الجادِّين فى أثرهم والشامِّين لريحهم

الفصل الرابع والستون

زواج فاطمة

كانت الضربة التي أصابت أسرة الفقى ضربة قاضية حقاً ، فجمعتها في ربها النسيط وما أربى ونمر ، وفي أبر وأخلص خادم شاهدهته ولولا ألف أوزيد ضمه بعض زوايا البيت العتيق ، ولم تمتد إليه أيدي اللصوص ، لبات المدهورون ^(١) على الطوى ، ولضاق في وجوههم سبل الحياة . ألف جنيه أوزيد قايلًا ، وبيت بال . هذا كل ما أفلت من جش المعتدين ، وهذا كل ما بقى من تلك الثروة العريضة التي كد صاحبها في تحصيلها ، غير متخرج من إثم أوراثة لمضطر ، والتي ولدت له المضيئة والحسرة ، ثم الشلل والموت !

تزوجت فاطمة من تاجر من صغار تجار ميت غمر ، وعاشت معه عشرة شهور عيشة الحمل مع الذئب ، ثم غدر بها وطلقها بعد أن عبت بتراتها القليل ، وبعد أن أراها من ضروب العسف والخدعة ما بعد أنطق مثال لشر الأزواج ، وأسوأ الشركاء .

ثم تزوجت من إمام مسجد « الميجيرى » وكان رجلاً وديعاً ورعاً

(١) المدهور من نزل به مكروه

طيب القلب ظاهر الزهد في الدنيا . غير أنه لم يكن من الذين يندسّون السيئات بسرعة ، أو يتأخرون عن الانتقام إذا سنحت فرصه .

ولد بقنا ، وترعرع بين جدران الأزهر حتى نال العالمية ، ثم تقلب في عدة وظائف من التدريس والإمامة في القاهرة وغيرها ، وعُيِّن أخيراً بمسجد البحيري بميت غمر ، وكان في أزهى عصوره ، وإن كان الآن خراباً تنعق في زواياه البوم . فكان إمامه وخطيبه ومدرسه ، وأظهر من العلم الغزير والكفاية النادرة ما أكبره في أعين سامعيه ومخالطيه وأبقى له ذكراً عطيراً بين قطّان البلد ومن جاورهم .

كان هذا العالم في مختتم العقد الرابع ، فوق القصر ودون الطويل وبين البادن^(١) والمزبل ، تكاد شدة أدّمته^(٢) نُلحقه بالسودانيين ، صغير الرأس حليقه ، طويل العنق ، يُظَلّ عينيّه الغائرتين الضيقتين حاجبان رقيقان قد رُسمَا في جهة واضحة البروز . ولقد أطل أنفه الكبير المحروم على فم ظاهر الضيق منضد الأسنان جملها امتد بين وجنتين غليظتين . وفوق ذلك الفم نبت شاربان مخفوفان^(٣)

سكن هو وزوجته وولده في الطبقة الثالثة من بيت الفقى ، ثم لبّت زوجته نداء ربها بعد بضعة شهور من قدومها إلى ميت غمر . فاكثان^(٤) عليها اكتيئاناً شديداً ، ثم أحسّ بحاجته إلى من يقوم بتربية ابنه الصغير الذي لم يتجاوز ثلاثة أشْتِية

(١) الجسم (٢) سمته (٣) مقصوصان (٤) حزن

رأى أن يبني على فاطمة الفقى بعد أن ألمّ بقصتها المحزنة وقصة
أيها الراحل ففعل ، وما ندِم على فعلته ، ولا ندمت على قبوله . فعاشا
عيشة الزوجين السعدين ، وتوثقت بينهما أواصر المحبة ، ولاقى الطفل
من عطفها وعنايتها ما جذب به إليها وحبّبه فيها

أما أرملة الفقى فقد عدا على أفلاذ كبدها عاذى الموت ، ولم يرأف
بجأها ، فاختطفهم واحداً بعد واحد في مدى سنتين ، ولم يُبق إلا على أصغرهم
سناً . وكان هزى لا تتنابه الأمراض ، ويؤمن من رآه أنه لاحق عما قريب
بإخوته . ورأى الشيخ سعيد الحلاوى أن يضمّ حماته وابنها إليه في
العشرة ففعل .

بدأت الفتاة وأمها تشعران بشئ من الروح^(١) وحلاوة العيش بعد
أن أذيقتا ألواناً من مرّه ، وبعد أن جرّعتا غُصص العذاب .
وهكذا قدر أن تعيشا في كنف رجل من الصالحين عيشةً وادعةً
بكلها^(٢) بعيدة عن جلبه المال وهمومه .

الفصل الخامس والتسعون

الشيخ الصالح

في أوائل سنة ألف وثلاثمائة من الهجرة هبط أرض طنطا رجل غريب في سحنة البررة الأتقياء ، وفي زمر العلماء الصالحين . قال إنه شريف من نسل النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنه أتى من الأراضى المقدسة ليحظى ببركة « السيد البدوي » وليقيم بين أهل طنطا مدة قصيرة ، ثم يرحل ثانية إلى تلك البقعة المباركة ليقضى فيها أيام حياته الباقية .

جاء ذلك الغريب وليس له من صاحب سوى حقيبة صغيرة وعصا غليظة ، وأقام بضعة أيام لا يعرف له مأوى سوى الجامع الأحمدي فكان مجلسه ومبىته ومتعبده

وفي مساء اليوم السادس من قدومه جاءه أحد كرماء البلدة وعرض عليه أن يقضى مدة إقامته في منزله . فتمنع أولا ثم قبل .

كان هذا الضيف في مستهل العقد الخامس ، متوسط القامة كَثِفًا^(١) ، مُكْتَنَزَ الجسم ، ذا وجه قسيم^(٢) نضرتة التقوى وعلته الهيبة وحفة الجلال ، قد نبت فيه شارب مخفوف ولحية كثة سوداء ، يحجب عينييه منظار أسود يظهر أنه قريب العهد بمهنته ، ويزين وجهه الوضأ الأشج الجبين حاجبان

(١) عريض الكتف (٢) جميل

مقرونان ، ويكسو رأسه الكبير شعرٌ مُسَجَّرٌ^(١) طويل يلمع فيه بعض شعرات بيضاء .

أما لباسه فكان جبة خضراء ، وقفطاناً قطنياً يضرب إلى الصفرة . ويجرى فيه خطوط قائمة ، يغطي رأسه عمامة خضراء .

وكانت عصاه الغليظة مُتَّكأه في مشينه إذ كان يساقه اليمنى بعض الظَّالِمِ^(٢) وَسُبُّحَتُهُ السوداء الطويلة لا تفارق أنامله ، سار أو جلس صمت أو تحدث ، وكان ذكر الله لا يبرح لسانه ، وخشيته لا تزايل فؤاده . كان طويل الصمت عميق التفكير ، كثير الميل إلى العزلة والوحدة ، يؤثر مخالطة البائسين والمكهُوفين ، على عشرة ذوى النفوذ والموسرين .

ولبث ما يندبف على الثلاثة الشهور محدود دائرة المعارف ، تحمله قدماء من المسكن إلى الجامع ، ومن الجامع إلى المسكن . ثم حدثت حادثة أجبرته على الخروج من عزلته ، وكانت سببها في هبوب ريحه وبعد صيته : جاءته يوماً جارة له مالة^(٣) قد طرق أذنها شيء عن ورعه وصلاحه ، وصفاء سريرته ونقاء نفسه ، جاءته تستنجد به على علة ألحَّت عليها ، وهُزَّالُ الظَّالِمِ بها ، بعد أن أعيتها الحيل وعجز الطبيب عن شفائها .

دفعها اليأس من الحياة إلى من سمعت أنه حظيرة الطَّهْر وموضع سر خفي وسلطان روحى ، فأنته شاكية باكية ، والنمت منه أن يسأل ربها اللطفَ بها ويريحها من عنائها . وشاء القدير الرؤوف أن يكون بُرؤُها على

يد ذلك الشيخ المهيب الخافض الطير^(١)

نظر إليها والدموع تسيل على خديها ، وزوجها وأولادها جالسون حواليتها ، وقال بصوت رحيم هادئ : لا تقنطى من رحمة الله وثق أن الكرب إذا اشتد هان . ثم مَسَى^(٢) رأسها ووجهها متمما ببعض كلمات غير واضحة المقاطع ، ثم ولى وجهه شطر القبلة ، وجثا على ركبتيه ، ورفع كفيه ورأسه إلى السماء برهة ، ثم أطرق برأسه أخرى ، وتحركت شفاهه فى صمت ، ثم نهض من مَجْثَاه قائلا : اعتمدوا على الله وانتظروا الشفاء العاجل !

وهكذا قُدِّرَ أن يزول لخطر المتوقع ، وأخذت العافية تتراجع إلى المضناة حتى أبْلَتْ تماما مما كانت تقاسيه . وهكذا أخذ نجم الشيخ الملبج^(٣) فى الظهور وشرعت الأقدار تُؤَاتِيه .

ولم يمض على هذه الحادثة ثلاثة أسابيع حتى تناقلت الألسنة خبر معجزات الشيخ الشريف ، وتعالَمَ الناس مُبِين آياته ، وروَوْا عنه الأخبار غير متحرِّين صدق ما يروون ، أو مجانبين الإغراق فيما ينقلون ، شأنهم فى كل زمان ومكان .

نَسَلَ الناس إليه زَرَافَات ووُحْدَانًا ، وأهْرَعُوا إليه من كل حَدَب وصَوْب ، ما بين عَليْل يستشفى ، وأَهْمَنَان^(٤) يلتمس الهدى ، وولهُان يستعين على الهوى ، وصحيح يتبرك ، ومستجِل للحقيقة ، وعقيم تلتمس

(١) الوقور (٢) مسحه بيده (٣) الجليل (٤) متحير

علاجاً ، وعانس^(١) تطلب زواجاً ، ومهجورة ترجو وصلاً ، وممسومة تفتقد حرزاً ، حتى ضاقت حجراته المخصّصتان له بالزائرين والزائرات ، من مختلف الأغراض ومتباينى الطبقات .

رأى « أحمد بك صادق » صاحب المنزل ما وصل إليه ضيفه الكريم من الشهرة وذيوع الصيت ، فازداد له إجلالاً وبه تعلقاً ، ولاحظ تدفق سبيل الناس إلى بيته ، فلم يجد بداً من إخلاء الطبقة الدنيا جميعها وتخصيصها للشيخ ومحبيه ، مضيفاً بذلك حسنة جديدة إلى حسناته السابقة قدّرها الشيخ قدّرها ، وأثنى عليه كل الثناء من جُلّها^(٢) .

كان الشيخ موفقاً في معظم ما وصف ، مجتهداً في جُلّ زوراته مصيباً في كثير من حالاته . فكم من علة زالت على يده ؛ ووهم عولج بكلمة من فمه ، وسعادة رُدّت بما كتب من تمام ، ولكم فعل بخوره فعله في الحاضرين ، ونالت تلماته من نفوسهم ؛ وأثرت إطفائاته الصامته الطويلة ، ونظراته الحادة الشاحصة في قلوبهم . ولقد كان لهذا الفوز العظيم صدًى رنّ في آفاق طنطا أولاً ، ثم انتقل إلى ما حولها من القرى ، ثم سُمِع في أنحاء مختلفة من الوجه القبلى والبحرى . :

ولا عجب فالناس مشغوفون بالغريب ، تواقون إلى كشف حجب الغيب . وتزاحمت الوفود لاسيما وفود النساء على ذلك الوليّ الجديد « والمهل العذب كثير الزّحام » مما اضطرّه إلى ترتيب وقته

(١) مسنة لم تزوج (٢) أجّلها

وتنظيم زياراته ، فكان يستقبل الزائرين كل يوم من التاسعة صباحاً إلى الواحدة ، ما عدا يومى الإثنين والجمعة .

ومن عجيب أمر هذا الشيخ الصالح أنه كان لا يطلب أجراً على فتاويه ، فلم يبسط كفه لزائر ، ولم ينتظر شكر شاكر ، بل كان كل عمله لله ولمرضاة رسوله . ولكن الناس لم يجحدوا عوّارفه ، ولا أنكروا صنائمه ، فأغدقوه بالهدايا ، وساقوا إليه الأحمال على الرغم من إبانته وتعففه ، حتى صار مُسْبَغَ النعمة ، موفور الخير .

وكان الشيخ سَمَحَ النفس ، سَخَىَّ اليد ، ظاهرَ الزُّهد ، فلم يستأثر بتلك النعم المتتالية ، بل أشرك فيها المُعَوِّزَ والمُضْطَرَّ ، والقانع^(١) والمُعْتَرِ^(٢) ، حتى انقلب إجلال الناس له إلى حب خالص ، وقُضِيَ على ما جال في أفكار بعض الناس بشأنه من الشك والوساوس لم يقتصر عمل ذلك الوَرَعَ على معالجة الزَّمنَى^(٣) ، ومواساة البائسين ورياض الجامحين ، ونصح الضالّين ، بل تعدّى ذلك إلى الدرس وتفقيه الناس في أمور الدين

كان يجلس كل مساء عُقَيْبَ صلاة المغرب في الجامع الأحمدي ويفسر للناس آي القرآن وأحاديث النبي بمبارة شائقة وأسلوب خلاب ، ويشرح بعض ما غمّض من مسائل الفقه والأحوال الشخصية .

(١) الذى يسألك فما أعطيته قبله (٢) المعترض المعروف^(١) من غير أن يسأل (٣) ذوى العاهات

وكان المصلون يتشوقون لدرسه تشوق السَّارى للقمر ويتسارعون إلى حَلَقَتِهِ تسارع الظَّماء إلى الماء ، فكان في الجامع . موضع الإكبار ، كما كان في المنزل مَلَاذ^(١) الزَّوَّار . وصار له أتباع وأشباع يترسَّمون خطواته ويتمنون ببركاته ، ويتحدَّثون بمُعْجَزاته

مضى على الشيخ سبعة شهور كاملة ، زادت فيها ثقة الناس وتعلقهم به ، وشعر فيها بالسعادة ترفرف على كل من داناها

وفي مساء ليلة جلس إلى مُضيفه . وبعض حاشيته يحدِّثهم عن نفسه ، ويظهر لهم رغبته في السفر إلى الأراضى الحجازية ، وأنه عزم على مغادرة طنطا في القريب العاجل

وما طرق هذا الحديث آذان سامعيه حتى صاحوا في صوت واحد : إنَّ ذلك لن يكون يا سيِّدنا . فابتسم الشيخ وقال : ولكنى لا أستطيع البقاء هنا إلى الأبد ، فهناك في البقعة المطهرة واجبات تضطرني إلى الرحيل . هناك أولادى وزوجتى ينتظروننى ، فلا بدَّ من السفر آجلا أو عاجلا . فقال أحمد بك صادق في خشوع : إنا لا نوَدُّ الوقوف في طريقك أيها الشيخ التقي . ولكننا نلتمس أن تبقى معنا ما استطعت ، فإن في بقائك سعادة لكثير من الناس ، وتخفيفا لويلات المنكوبين والبائسين . وعهدنا بالسيِّد لا يطرح ملتَمَساً فيه نفع للعباد كبير

فأطرق الشيخ طويلاً ، ثم رفع رأسه قائلاً : خَارَ اللهُ لَنَا فِيمَا تَنَوَى ^(١) !
ولما كان الصباح أقبل جميع الأنصار والأحباب والمعارف من رجال ونساء
وكانوا قد بلغهم عزم الشيخ على السفر فقلقوا ، وقضى كثير منهم ليلةً
ساهرة . وبعد أن لَثِمُوا يده الطاهرة أفضوا إليه بما أصابهم من الحزن
والقلق من جرّاء عزم مولاهم على الرحيل . وتحدّرت دَمَعَاتُ الكثيرين
منهم ، وتعلّلت آهَاتُهُمْ ، ورجّوا منه بكل ما فيهم من قوة أن يغيّر نيته
ويبقى معهم .

تأثر الشيخ بما رأى وسمع ، ولم يجد بداً من تلبية مطالبهم إلى حين .
وحينئذ تهلّلت الوجوه الحزينة ، وأقشمت القطرات المتحدرة ، وضرع
الكلّ إلى الله أن يطيل حياة سيدهم وأن يبقيه فرجة المكروب
وسلوة الحزين .

انصرف الجمع المحتشد مسروراً ، وبدأ الزائرون يفدون على الشيخ
الصالح ، وكان من بينهم امرأتان أتتا من ميت غمر لتريا الشيخ خاصة
لما بلغهما من عظيم خبرته ودقة معرفته . أولاهما لانزال في ظل الصبا ،
والثانية أشفت ^(٢) على الحسين تقود غلاماً نال منه الهزال وبرّح به المرض .
جلست الزائرتان على مقربة من الشيخ ، وكان مشغولاً بإلقاء بعض البخور
في الموقد ، وما استقرتا في مكانهما حتى سألهما ما خطبكما أيّتها السيدتان ؟
فقلت الصغرى إني سمعت بعلم مولاي الروحاني ، وأتيت من ميت غمر

لأستفسر عن سر عدم الحل ، وأطلب دواء يزيل العائق
فقال وعيناه إلى النار ، وسُبْحَتُهُ تَجْرِي بين أصابع يمينه : وما اسمك ؟
وقالت فاطمة . فقال : وما اسم أبيك ؟ فقالت : محمد الفقي . فضاءفت
الحباتُ سرعتها في يده ، وتحوّل بصره من النار إلى وجه المتكلمة ثم عاد
سيرته الأولى ، ثم قال ومتى تزوجت ؟ فقالت : تزوجت مرتين لم أسعد
في أولاهما . فقال : مسكينة يا فاطمة ! إنك سيئة الحظ

ثم ألقى بكمية كبيرة من البخور في النار ، فتصاعد الدخان حتى ملأ
الحجرة وكاد يخنق من فيها ، وقال : وهذه السيدة أمك أليس كذلك ؟
فقال بلى . فقال : وإنها أيضاً عاترة البخت . ثم حدّق ببصره فيهما على
غير عادته وقال : ما أبأسكما ! لقد رأيتهما من العذاب أشكالا وجُرّعتما
كأس الحزن حتى الثميلة ^(١) . ولكن لم يكن لكما يدٌ فيما حل بكما
فقد أخذتما بجريرة غيركما ، وحل بكما شؤم المال الذي حل بكثير من
قبل . ثم سكت ودفع بكمية أخرى من الدُّخْنَة ^(٢) في النار . وأحسّت
المرأتان برهبة المجلس ، فتقاربتا حتى تلاصق كتفاهما .

وامتأنف الشيخ يقول في صوت رهيب : أفٍّ من الربا آكل
الحسنات ، ومضاعف السيئات ، ومجلبة الكروب والويلات ! ثم قهقهه
قهقهة خفيفة ، وصاح في وجه الذاهلتين : ماذا جنى ذلك المرءى غير الحسرة
والشلل والموت الشنيع ؟ ثم أخفت صوته قائلا : ولكن ليس لنا أن

(١) الثمالة والثميلة البقية من الطعام والشراب (٢) البخور

نشمت في الزاهيين ، بل علينا أن نطلب لهم الرحمة من صاحب الرحمة ،
وننسى الماضي الأليم ! ثم صوّب نظره إلى فاطمة وقال : لا تجزعى يا بنية
على فانت ، واعلمى أن أمامك مستقبلا سعيداً . ثم مد يده إلى طرف
سجادة تحته ، فأخرج ورقة مطوية ، وأعطاه إياها قائلاً : علقى هذه
الورقة في صدرك ، وانتظري الخير !

ثم نظر إلى أمها وقال : وأنت أيتها الزوجة المنكودة ماذا تريدن أن
أفعل لك ؟ فقالت ودموعها تسيل على خديها : أريد أن تبارك هذا الطفل
السقيم الذى لم يترك لى الموت سواه !

فتأوه الشيخ وقال : حقا إن الربا مؤذن بخراب البيوت العامة !
لم يكفه أن ألوى ^(١) بصاحبه ، وهوى بابنته وزوجته ، فامتدت يده إلى
الأولاد الخمسة فعصفت بهم عصفاً ! ثم أمر يده على رأس الطفل ووجهه
قارئا بعض آى القرآن وقال : والآن اذهبا إلى بلدكما فى راحة وسلام .
فدّت الأم يدها بشىء من النقود ، ولسكنه أبى كعادته أخذه قائلاً :
كفى أنكما تجشمتما السفر من أجلى .

عادت المرأتان أدراجهما إلى ميت غمر مأخوذتين بما شاهدتا وسمعتا ،
ووقتئذ بعلم الشيخ الواسع وخبرته الفائقة . ولم تغب صورته من ذهنهما
طول الطريق ، ولا فارق سمعيهما رنات صوته رغم جلبة القطار وضجيج
المسافرين ، ولا جرى على لسانهما ذكر غير ذكر الولى المهيب ، وشأنه

المعجيب ، وآياته الناطقة ، ومعجزاته الخارقة .

وما بلغنا مقصدهما حتى أخذتا في سرد قصتهما للجيران والمعارف بحماسة ووفاء ، فاشتاق كل سامع أن يطير إلى طنطا ليحظى ببركة ذلك الولي ويتمسح بأعتابه ، ويستفسر منه عن بعض شأنه .

ولم يكن زوج فاطمة أقلّ عجباً من السامعين ، ولا أبعد تصديقاً لما قصّ عليه ، بل أخذ يؤيد كرامات الأولياء ، ويروي الحكايات عن كشف الله عن بصائرهم من المقرّبين المطهرين

وخرج الكل من حديثهم إلى أن الشيخ الصالح قُطِبَ من أقطاب الله الأخيار ، ورسول الهداية إلى أهل الشرّ والغواية ، وأن الله قد خصه بكشف حجاب الماضي ، وصدق التنبؤ بما يلدُ المستقبل .

ولما انتهوا إلى هذه النتيجة صاحبت فاطمة والبشر يعلو محياها القسم : إن للشيخ الصالح عليّ نذراً — إن أنا حملت — أن أحمل إليه خروفاً وأرزاً وشعماً . وصاحبت أمها عقبها : وللشيخ علي عهد أيضاً إن شفي ولدي فتح الله أن أبعث اليه بصابون وعسل وسمن !

ولكن الله لم يشأ أن توفي الأم بنذرهما ، فقد امتدت يد المنون إلى وحيدها بعد ثلاثة أيام فقط من زيارتها لطنطا

زعزعت هذه الحادثة ثقة الشكوى ، ولسكنها لم تنل من إيمان فاطمة بالشيخ إذ عزت موت أخيها إلى إرادة الأقدار . وازداد هذا الإيمان حينما أحسّت فيما بعد بأنها صارت جَمَنَ سلاح .^(١)

الفصل السادس والستون

تابع قديم

كان أحمد صادق بك ذلك المِسْماح الكريم من الضباط الذين أدّوا
خِدْمَات جُلَى إلى وطنهم في السودان . أحيل على المعاش بعد أن استوفى
الأربعين بقليل ، وعاش في بلده عشر سنين كاملة مثال التقوى والكرم
ومحل احترام عارفيه . وهو وإن نَفِىَ على الحسين بادی القوة معتدل
القامة ، ظاهر الجراءة ، سَبَّاقٌ إلى موارد الخطر إذا نادى مناديه .

غير أنه كان مفتوناً بكثير من الناس بحب الظهور . أضاع ثروته
كلها في تجهيز بناته الثلاث بفاخر الرّياش ونفيس الأثاث ، ولم يُبق إلا على
دار أجداده العتيقة . ثم اضطره بعض مظاهر السخاء إلى رهن تلك الدار
وهاهو ذا الرهن أو شك أن يَغْلَقَ وليس في يده ما يدفع به ما يهدده

جلس ذات ليلة مُخَلَّاة التّرائب ^(١) بعقود الكواكب إلى ضيفه
يحدثه في أمور الدنيا وأحوال العالم ، وكان على غير عادته قلق البال ، ظاهر
البَلْبَال . ولاحظ الشيخ حالته ، فسأله عن خطبه وعما يَمُولُه ^(٢) فأنكر
أمره أولاً ، ثم عاد فنفض إليه جملة حاله ، وكيف أنه صار عرضة لأن يطرد
هو ونزله من مسكنه المحبوب .

(١) موضع "قلادة من الصدر جمع تربية (٢) يهيمه ويشغل عليه

« إن شخصي لا يهمني كثيراً ، ولكن لا أمتطيع أن أخزى في ضيفي ، أو أن يُمسَّ شرفي » صاح رب البيت متأثراً

فابتسم الشيخ ابتسامته الهادئة ، ثم قال هدىء روعك أيها الصديق الكريم ، وثق أن الله أرحم من أن يُسَكِّين^(١) عبداً طائعاً وشهماً ندباً^(٢) مثلك وإن سيدي جلت قدرته أطلعني منذ حين على بعض سرِّك فاحتطت للأمر قبل حلوله . وإني أحمدُه كل الحمد على أن جعلني قادراً على أن أؤدِّي لك بعض ما في عنقي من دين ، فسَمَّ ما تريد فهو مقضى بإذن الواحد القهار . فعلت وجه السامع حمرة الحجل ، وأطرق غير مُخِير جواباً . فأدنى الشيخ فمه من أذنه هامساً : كم دينك ؟

فتردد صادق بك برهة ؟ ثم أجاب : خمسمائة جنيه . فقال غداً سيكون ذلك المبلغ في يدك ، فقرَّ عَيْناً ، وطَبَّ نفساً

برَّ الشيخ بوعده من غير أن يُشعر أحداً ، فارتفع بذلك كابوس ثقيل عن صدر المدين ، ورجع إليه بشره ، وزالت مخاوفه ، واعتقد أن العُرف^(٣) يشمر العُرف . وأن الصنيعة مع أهلها غير ضائعة

لم يمس على هذه الحادثة بضعة أسابيع حتى صار الضائف والمُضيف صهرين قريبين ، بعد أن كانا صديقين متحابين ، فقد بنى الشيخ على أخت البك الوحيدة تنفيذاً لرغبة صديقه . وكانت شابة أرملة غازلت^(٤) ثمانية

(١) يذل (٢) خفيفاً في الحاجة (٣) المعروف (٤) دنت منها

وعشرين خريفاً حُبِيتْ خُلُقاً مَيِّناً ، وعقلاً رزينا ، وإن حرمت رَوْعة
الجمال . وَغَبَطَهَا الكَثِيرَاتُ من صَوَاحِبِهَا على مَا مُنِحَتْ من نعمة وشعرت هي
بالسعادة ترفرف عليها من جديد بعد أن فارقها على أثر رحيل زوجها الأول
تفانت الزوجة في خدمة زوجها الشيخ ، وأحاطته بكل ضروب الرُّوح
والعناية حتى ضُربَ بهما المثل « صَالِحَةٌ لَقِيَتْ صَالِحاً » ورزقت منه بعلام
وسيم الطالعة جميل الخلقة أسمته « أحمد البدوي » .

كان بيت أحمد صادق من الطراز العتيق ، يتكوّن من طبقتين
يحيط به حديقة صغيرة ، ويُطلُ من الجهة البحرية على ترعة « الجعفرية » .
وكانت الطبقة التي خصصت للشيخ وزوّاره مكوّنة من أربع حجر كبيرة
يتوسطها رَحْبةٌ فسيحة ، وكانت الحجرتان الأماميتان والرحبة معدة
لاستقبال الزائرين ، أما الحجرتان الخلفيتان فكانت إحداهما للنوم والثانية
للاختلاء ، والتهجد

كانت حجرة التهجد هذه حرّماً مقدساً مُغلّق النوافذ ، لا يتردّها غير
الشيخ ، ولا يلمس مفتاحها غير يد الشيخ ، ولا يعرف ما بداخلها غير
الشيخ . وَبَقِيَتْ كذلك عُنْوَانُ الرَّهْبَةِ والخشوع ، وسرا من الأسرار
الخفية ، وَحِصْنٌ لا يَجُورُ على مدائنه أحد ، طولَ مدة إقامته .

وطاحت بالناس الظنون في أمر تلك الحجرة : فمن زاعم أنها مهبط
وَحْيِ الشيخ يستمدّ منها علمه وأخبار الغيب والمستقبل ، ومن ظانّ أنها
مُخبّسٌ للأرواح الخبيثة التي كانت تتحقّق في سماء المدينة قبل قدوم الشيخ

قَصِرَتْ^(١) فيها منعا لعبتها وشرّها ، ومن خائل أنها محوى لكنوز
ثمينة وآثار نفيسة ، حتى إن بعض المصوص همّوا بمهاجمتها وسلبها ثم
قيّدوا الخوف من بطش الشيخ بهم ، وفضحه أمرهم . وهكذا لبث ذلك
المتهجّد معقلاً حريزاً تراعى حرمة ، حتى حدث حادث ووجدت قدمان
آخران سبيلهما إليه ، وصارت جوانبه تضم اثنين بدل واحد أحياناً .

كان اليوم من أيام راحة الشيخ ، أدّى صلاة الجمعة في الجامع
الأحمدى كماداته ، وخرج يحفّ به جمع عظيم من شيعة ومحبيه . ولما
وصل إلى المنزل حياه المرافقون ، وانصرفوا إلى وجوههم المختلفة .

انصرفوا إلا شيخاً متعاقباً^(٢) في أطمار^(٣) زرقاء ، حافى القدمين
متهدّل العمامة قدّرّها ، أشعث الوجه ، قومت السنون ظهره فلا يستطيع
انتصاباً ، ونالت من بصره فغدا مطرقاً متكسراً ، قبض على عصا غليظة
قصيرة هي عماده عند النهوض والمسير

وقف ذلك المتحفّ بلحاف المترّبة أمام الباب برهة ، ثم دأف وراء
الشيخ قائلاً بصوت متهدّج^(٤) مؤثر « الله ! » وما وصلت إلى أذن الشيخ
كلمته حتى دار على عقبه ، ومدّ يده إلى جيبه ، ثم إلى كف السائل

ولسكن السائل بدل أن ينطلق استمر في حبوه ، حتى وصل إلى درج
الخارجة وصاح : يومان بلا طعام ! فهل من كسرة خبز أسدّ بها رمقى ؟

(١) حبست (٢) طاعنا في السن (٣) ثياب خلقة

(٤) منقطع في ارتعاش

فصاح رفيق الشيخ ورب المنزل : يا سليمان ! أعط ذلك المُستَكِف^(١)
بعض الطعام - ثم أشار إلى الشَّحاذ أن يجلس بالحديقة ريثما يأتيه الأكل ،
وصعد مع صهره لتناول الغداء .

أمضى الشيخ نحو ساعتين في الطبقة العليا ثم نزل ليحدِّد بنفسه قليلاً .
وبينما هو بهمّ بفتح محرابه إذ سمع همساً ، فأخرج المفتاح بسرعة ، وتقدم
نحو مصدر ذلك الهمس ، وإذا به أمام المُستَكِف^(٢) العجوز ، فلم ترقه
هذه المفاجأة ولا بسطته^(٣) رؤية ذلك المتسكع ثانية بل داخله شيء من
الشك في أمره ، ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث قائلاً :

يظهر أنك لا تحب مفارقتنا أيها الأخ ، فهل في نفسك حاجة أخرى
تريد أن نقضيها لك ؟ فهض العجوز متثاقلاً ومتكئاً على عكازته ، وقال
بصوت منخفض : نعم إن لي قِبَلَ الشيخ طِفلاً^(٤)

فأجاب الشيخ مشمئزاً : هَاتِ طِفْلَكَ . فنظر الآخر حوَالَيْه نظرة
عَجَلَى كمن يريد أن يُقضى بسر لا يريد أن يطلع عليه أحد ، فلما تحقق
خلوّ المكان التوى على نفسه يميناً وشمالاً ، ثم انتصب قائماً ، وحدّق بعينين
سليمتين في وجه مخاطبه ، وقال بصوت خافت : أنا درويش العلالي أحد
أفراد عصابتك أيها الرئيس

فخفق قلب السامع وقال : ولكن ماذا بهمّني إذا كنتَ حامل هذا
الاسم أو سواه ؟ ولم تدعوني بالرئيس ، وأنا لم ألتبس الرياسة في حياتي ؟

فأح السائل أحةً كادت تنم عن موقفه ثم قال : لا براح^(١) في أنه
يهم سيدى الشيخ السبع أن يعثر في طريقه برجل شريد كان ولا
يزال من خدامه الأوفياء المخلصين - ثم التوى فجأة على نفسه ، وبدأ الرجل
المهرم المقوَّس الظهر المختلج اليد^(٢)

نظر الشيخ خلفه وإذا بسليمان الماهن يبرز من السلم حاملاً القهوة
ومتقدماً بها نحوه . فقال : بورك فيك يا سليمان ، إنك لم تنس موعد قهوتي
ولقد كنت عازماً على الاستراحة قليلاً لولا أن هذا البائس اعترض طريقي ،
ورجاني قضاء بعض حاجه ، ثم مدَّ يده إلى الفنجانة فأخذها وقدمها
للسائل ، وطلب من سليمان أن يحضر فنجاناً أخرى له

لما احتوى سليمان السلم أشار الشيخ إلى محدته قائلاً : اتبعنى واجتفظ
بمظهرك ، وسار الاثنان إلى حجرة الاستشارة اليومية

بعد قليل أحضر الخادم الفنجانة ، ثم أمر أن يوقد الموقد ففعل .
ولما التهمت النار بما ألقى في جوفها من أنواع البخور تأوه الشيخ وقال :
أذن من النار يادرويش ، فلست أقرأ في وجهك شراً ، أو أتوقع من تابع
قديم مثلك ضرراً

ففعل درويش كما أمر قائلاً : إني أعيذُ سيدى الرئيس أن تساوره
خلجةُ شك في أمرى ، فلست إلا مريداً الخدمة والمساعدة إن كان ثم
ما يتطلب مساعدتى لرئيسى المغمشم^(٣)

فقال الرئيس : إني أخبر الناس بطيبتك ^(١) ، وأعرفهم بوفائك وهذه مسألة قد انتهينا منها ، والذي يهمى معرفته الآن هو كيف وقفت على أثرى ، وعرفتني رغم تنكركى الشديد ؟

فقال إن الأمر أهون مما يتصوره حضرة الرئيس ، فما هو إلا الاتفاق العجيب ساقى إلى هذه المدينة الرحبة ، ورمى بى فى طريقك فاشتبهت فى حالك أولاً ، وكان ذلك منذ شهرين ، ثم حملنى حب الاستطلاع على تتبع خطواتك واستقصاء أخبارك . وتمنيت أن يسفر استقرائى يوماً ما عن نتيجة مرضية ، ويحول حدسى إلى حقيقة واقعة لا رغبة فى كشف ستر الرئيس وتعريض حياته العزيزة للخطر ، ولكن لأشعر أنى مقيم بالقرب من ذلك القلب الموقى ^(٢) وتلك النفس الأبية الكريمة ولأعمل على حياتها مما قد يهددها وقتاً ما

وقد كان ما تمنيت ، فعرفت شخصك بعد أن ترددت على حلقات تدريسك ، وتبينت صوتك على تغير فى نبراته ، ومعارف وجهك على ما بها من تفكر ، وترسمت خطاك فى غدوانك وروحانك . ولكن شيئين اثنين شغلا بالى مدة غير قصيرة ، وكادا يفسدان على استنباطى . أحدهما ما لاحظت فى رجلك اليمنى من غمز ولقد كان حل هذه المشكلة يسيراً ، فلقد عزوت ذلك إلى التصنع وإرادة التستر ، وثانيهما ما لحت على جبينك من أثر شج عميق وهذا ما لم أستطع تعليله إلى الآن

(١) بنيتك (٢) الشجاع

فضحك السبع وقال : ليس ما بي تعارجاً ، ولكن وثبتني في النهر في تلك الليلة الكاسفة ولدت لي هذه العاهة المستديمة ، وطبعت جيبني بذلك الطابع الذي تراه ! والآن ما وراءك خاصاً بإخوانك ؟

فقال ليس عندي من الأخبار ما يُباح الصدر ، فلقد تمزقت العصابة أيما تمزق على أثر غيبتك وموت الوكيل ، وشنق عدد كبير من أفرادها ، وسجن الباقون مدداً طويلة . ولم يستطع الفرار منهم غيرُ نفسي وغير الهلالي والجندي . فررنا معاً إلى المنصورة بعد أن طوردنا من رجال الشرطة مطاردة الكلاب الكلبة ، ثم رأينا ضرورة التفرق ففعلنا ، ولم أعلم ما حل بهما بعد ذلك . قضيت طول تلك المدة متنقلاً متنكراً ، يطويني اليأس وينشرني الرجاء حتى رسا بي التسيار على هذه المدينة . وراعني كثرة المتكففين بها فاندججت في غمارهم ، وفعلت شرّواهم . وإنها لمهنة سهلة حمة الأرباح ، فلقد هبطت أرض « السيد » وأنا صِفَرُ اليدين ، وهأنذا أعد نفسي من الأغنياء ، فإن هذا اللباس الذي يغطي جلدي يحوى بين أضماغه^(١) ثمانين ذهباً . فما أسعد الشحاذين ، وأبعدهم عن عيون الرقباء !

فضحك السبع وقال : والغريب أنك حَذَقْتَ تلك المهنة حتى لا يشك من يراك في أنك شحاذ عتيق ، نشأ في حِجر الفقر وترعرع في أحضان السائلين

فهاها درويش هاهأة قصيرة وقال : وما أظن الرئيس إلا مشتاقا
للاوقوف على سبب ما حل بنا وبإخواننا من نكبات ؟
فقال الرئيس : إني من غير ريب جداً مشتاق ، ولقد فكرت مراراً
في كشف تلك العلة ، فما وقف في الفكر على سبب مُقنع ، فكيف وقعت
تلك الخيانة الفظيعة ؟ فقال : لم يكن مصدر ذلك الشر المستطير سوى
جمعه المغربي وسالم السحرتي ، فلقد ابتاع الشيخ شهاب منهما أضرار العصابة
رجاء الانتقام منك ، ووقف منهما على نيتك فخابر رجال الضبط . وكان
ما كان ، مما يبعث الأسى والأشجان !

فلم يمالك السبع نفسه من الصباح : عملة ^(١) ونذالة يستحقان عليهما
حزّ الرقاب ، وتمزيق الإهاب ، فأنتى لى بهما وبذلك العمدة القاتل لأخيه ؟
فقال درويش في هدوء : ليسكنْ تأثرك ، ولتعلم أن يد الانتقام السريع
بطشت بأولئك الثلاثة الخونة ، فلقد حمل الجشع ذينك الشقيين على قتل
العمدة طمعاً في ماله ، وأبى الله إلا أن يُقبض عليهما متلبسين بجريمة
القتل ، وأن يساقا إلى السجن مكبلين بالحديد ، وما أحسب إلا أن حكم
الإعدام نفذ فيهما من زمن طويل

فصمت السبع ، ثم دفع بيده مقدارا من البخور في النار ، فعمدَ
الأوام ^(٢) المتصاعد سحابة سوداء فوق رأسيهما لم يُعتم أن تفرقت ذراتها
ثم اختفت كأن لم تكن ، وخبت ^(٣) النار على أثرها . . .

هنا زفر الشيخ زفرةً طويلةً تنمّ عما خطفَ في رأسه في تلك اللحظة
وقال متوانيا : إن مثل الحياة في هذه الدنيا يا درويش مثل هذه النار ،
تلهب بالشباب وتخدُّ بالشيخوخة ! وإن مثل أفراد هذا العالم مثل السحب
في السماء ، تتجمّع وقتاً ، ثم هي لا محالة متفرقة وعائدةٌ ذراتها إلى
جوهرها الأصلي !

ثم أطرق برأسه قليلاً ثم رفعه قائلاً : لقد دقّت ساعاتُ غيرنا
فدَرَج^(١)وها هي ذى ساعاننا أوشكت أن تدقَّ ! ! ! .

الفصل السابع والستون

شبح الماضي

قضى السبع بين جدران طنطا اثنين وأربعين هلالاً متورّعا متنسّكا ،
تحفُّ به الهيبة ، ويكتنفه الإجلال ، يزداد إيمان الناس بنخوارقه ، وتنمو
الثقة به وبقوته الروحانية ، لم تحم في سمائه طائفة ريبة ولا سقت إليه لبسة^(١)
ولا شك في ماضيه الدّموي الأسود .

وليت شعري هل كانت تروقه هذه المعيشة الرّتيبة الساكنة وهو
عاشق التّغيير والهِياج ، وربيب الشر والإجرام ؟ وهل لذّت له حياة
النفاق والزّيف ، وطرقُ التّصنع والاحتيال ؟

إنّ ظاهر الحال يدل على رضاه ، وإنّ العقل يحكم بمثل ذلك ، ولكن
حالة الرجل النفسية تؤيد العكس ، وطبيعته تناقض ظاهره .

إنه اندمج في سلك الدّجالين المدّاجين مكرّها ، وعاش عيشة
الوقواق^(٢) مجبراً ، ولم ترق في عينه تلك الحرية المحدودة ، ولا بهرته
سلطته الممدودة . ولطالما حدثته نفسه بهجر ميدان الولاية إلى ميدان
الكبر والصّيال ، حيث الحرية الكاملة والعمل الجريء . ولكن الإنسان

(١) شبهة (٢) الجبان

إنسان، تُطْلَقُه الجُرْأَة ، وَيُقَيِّدُه حب الحياة ، ويرسله الحَرْق ، ويجذبه العقل !
وكذلك كان شيخنا ، ماهمَّ بالمجازفة إلا عزَّتْ عليه نفسه ، ولا
تصوّر آخرته إلا بالغ في التَّنَكُّر . ولمَ يُطَوِّح بنفسه في المعاطب ، وقد أُرْخِيَ
عمامته ^(١) وأَمِنَ الشرَّ من كل جانب ؟ ولم ينبذ لباس الأظفار ويرتدى
رداء الفجَّار ، وقد جاز على الناس أمره ، وسالته الأقدار ؟

وإذا كانت صفحة غايه ملطَّخةً بالآثام ، وتورَّعه ليس عن عقيدة
راسخة ، فحياته الأخيرة كانت مصدر خير كثير ، سواء أوقع ذلك عفواً
أم قصداً . والناس يحكمون بالآثار لا بالوسائل والنيات والمخلوقات الظواهر
والعالم الضمائر .

ولسائل أن يسأل : كيف أحرز ذلك اللص المطارد هذا النجاح الباهر
في حياته الجديدة ، ولم يسبق له اشتغال بفنون الراجمين ولا علوم المشعوذين ؟
وكيف قطع تلك الميَّلة ^(٢) من الزمان دون أن يُفْضَح له أمر ، أو يَهْتَك سِرُّ
أو تلحقه ظنة ^(٣) أو تبين له فريسة ؟

والجواب على ذلك أنه نجح كما نجح الذين سبقوه والذين لحقوه من
كل مدَّع محتمل ، ومُراوغ جوال . ولم نذهب بعيداً وبين ظهرانينا
الآن من هم دون السبع خبثاً ودهاء ، وافتراء وادعاء ؟ تراهم يتظاهرون
بمظهر الصوامين القوامين . يرحمُون بالغيب ، ليبتزوا مافي الجيب ، ويتاجرون
باسم الدين ، ليخدعوا الشذج والجاهلين ، ويوهمون أنهم يخاطبون الأرواح

(١) أَمِنَ وترَفَ (٢) الحين (٣) تهمة

وتترأى لهم الأشباح ، ويستحدمون الجن والشياطين في درك اللبانات ،
وكشف المحجبات .

خبرني بربك أيها القاريء الكريم ، كم يبلادنا من وحش ضار ، في
صورة التقى البار ؟ وكم من معتوه ظاهر الغيبا ، يدعى علم ما في السما ؟ إن
الجهل لا يزال ضاربا أطنا به حول كثير من الربوع ، وإن الاعتقاد في
الترهات والخرافات ما في بادي الشيوع ، وإن الأوهام ما برحت تعمل
في الحاضرين ، عملها في الغابرين !

وإذا كان هذا حالنا على تقدمنا وانتشار التربية والتعليم بيننا فكيف
نستبعد نجاح السبع في عصر سادت فيه السذاجة والغفلة وشاعت الجهالة
وانتشر رداء الظلمة ؟ إن الرجل لم تنقصه عدد الدجالين ، ولا أعوزته
حيل المتنكرين ، فلقد سلحته الطبيعة كما قلنا بكثير من الذكاء ، وحضور
العارضة ، وجادت عليه بمظاهر الهيبة والوقار ، وأكسبته تجاربه القاسية
الماضية ضرور الاحتيال والتصنع ، وعلمه الحرص على الحياة صنوف الخداع
وسالته المقادير حينما فدا سره مكتوما ، وصالحته الجدود ملاوة فأسمى
فضله معلوما !

أجبر على اعتلاء عرش الأقطاب فرضي ، وحشر في زمرة
العالمين بالغيب فما أبي ، بل افترص ما أتيج له من نهز^(٢) ، وتناولت

يده ما مُدَّ إليه من خيط فَنسَج منه بِمَحْذِقِ غِشَاوَاتٍ عَلَى أَعْيُنِ الْمَبْصِرِينَ
وَأَغْطِيَةِ عَلَى أَفْتَدَةِ الْمَرْضَى مِنَ الْفِدَامِ^(١) وَالْأَمِيينَ ، وَاسْتَغْلَ اعْتِقَادَ
مُعَاَصِرِيهِ فِي قُوَى السَّحَرِ ، وَمَزَايَا الْأَحْرَازِ وَالْتِمَامِ . وَكَثِيرًا مَا تُشْفَى عِلَلُ
بِالْعَقَائِدِ وَالْأَوْهَامِ ، وَتَتَأَثَّرُ نَفُوسٌ بِالرُّؤْيَى وَالْأَحْلَامِ !

وَلَا عَجَبَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا جَازَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَمْرُهُ ، وَخَفِيَ سِرُّهُ
وَلَمَعَ فِي سَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ نَجْمُهُ . تَعَاقَبَتْ تِلْكَ الْأَهْلَةُ وَالسَّبْعُ إِلَى حَدِّ مَا
هَادَى السَّرْبُ^(٢) قَلِيلَ الْمَخَافِ ، وَهِيَ هِيَ الَّتِي أَخَذَتْ نَفْسَهُ تَوْحِيَّ إِيحَاءِ
لَا يَعْلَمُ مَا تَأْتَاهُ^(٣) ، وَيَتَوَقَّعُ شَرًّا لَمْ يَسْبُرْ مَدَّاهُ .

كَانَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفٍ هَجْرِيَّةٍ
مِنْ أَيَّامِ الشَّيْخِ الْمَعْدُودَةِ . اِمْتَّازَ بِكَثْرَةِ الزُّوَّارِ ، وَبِأَنَّهُ كَانَ فَاتِحَةً عَصْرٍ رَعْبٍ
وإِرْهَابٍ ، وَقَلَقٍ وَارْتِيَابٍ ، وَمَوْذَنًا بِقَرَبِ انْقِضَاضِ الصَّاعِقَةِ ، وَظَهُورِ
شَبَحِ الْإِنْتِقَامِ . أَخَذَ الزَّائِرُونَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَأَشْفَى مَوْعِدَ الزِّيَارَةِ
عَلَى الْإِنْقِضَاءِ ، وَإِذَا بِجَمَاعَةٍ تَلُوحُ عَلَيْهِمْ آثَارُ السَّفَرِ يَتَقَدَّمُونَ نَحْوَيْتِ
الشَّيْخِ حَامِلِينَ هَدَايَا مُخْتَلِفَةً .

« ماء . ماء » ثَغَا خُرُوفٍ أَيْبُضُ سَمِينٍ يَقُودُهُ أَحَدُ الْحَمَالِينِ .

وَصَلَ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْبَابِ ، فَدَلَفَ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ مُنْتَحِنٌ عَلَى عُسْكَازَةٍ

وَقَالَ : مَا إِخَالَكُمْ إِلَّا تَرِيدُونَ سَيِّدِي الشَّيْخَ الصَّالِحَ .

(١) جَمْعُ قَدَمٍ : وَهُوَ السَّادِجُ (٢) الْبَالُ (٣) يَقَعُ فِيهَا خَوْفٌ

فأجابه رجل فوق القصير ودون الطويل ، آدَمُ^(١) ، مرتدٍ جبة وقفطانا وعمامة يملوها غبار السفر : هذا ماجئنا من أجله ، وإني أرجوك أن تجربه برغبتنا ، وتتسلم هذه الهدية المتواضعة

فأجابه المعجوز : أما الإخبار فسأقوم به ، وأما قبول الهدية فمتوقف على إرادة الشيخ ، فإن شاء قُبِلَتْ ، وإن شاء رُفِضَتْ^(٢) . ثم قادا القادمين إلى المنتظر ، وطاب منهم أن ينتظروا قليلا ربّما يستأذن لهم في الدخول وما هي إلا بضع دقائق حتى كان الجمع في حضرة شيخ مطرق محاط بسحب البخور المتصاعدة . رحّب المزور بضيوفه ، ثم سألهم أن يجلسوا قائلا : ما أحسبكم إلا متعبين بعد الذي عانيتم من السفر

فقال فاطمة الفقي بعد أن لثِمَتْ يده المباركة ، وجارتها أمها وزوجها : إن كل صعب في صيدل لقائك سهل أيها الشيخ الجليل ، وما ساقنا إلى هنا إلا حبنا لك واحترامنا لمقامك ، وإلا الرغبة في أداء بعض ماعلينا لك من دين

ثم أشارت إلى رضيع ساكن إلى صدرها قائلة : وإن هذا الطفل ثمرةُ علمك وبركتك ، فحق على أم جاءتك يائسةً لَهْفِي^(٣) أن تُقِرَّ لك بالفضل ، وتصوغ لك عقود الشكر ، إذ وافاها ما تمنّت على يدك .

فصاح الشيخ في خشوع وتواضع : إنما الفضل والشكر لله القادر

الرحيم ، فليكن ما توجهين إلى من الحمد له وحده ، فهو الذى يقول للشيء
كن فيكون . فبرز زوجها رأسه علامة على الموافقة ثم قال : لقد أحضرنا
هدية صغيرة لمولانا الشيخ وقاء لنذر نذرته زوجتى عقب زورتها الأولى ،
فهل له أن يتنازل لتقبلها ؟

صمت الشيخ برهة خيّل إليه فيها أنه يسمع صوتا طالما سمعه فى عهد
درّج ، ثم رفع رأسه لأول مرة ، وصوّب نظرة ثاقبة نحو المتكلم
لم يلبث أن استردّها بسرعة ، ووجّها نحو الموقد . ثم قال فى صوت
خافت : إني أنقبأها مع الشكر . وحينئذ أهوت فاطمة على يد الشيخ
فقبلتها ، وحاكتها أمها . أما الحلاوى فلبث برهة فى مكانه يمين بصره
فما حوله ، ثم جثا على ركبتيه وقبض على يمنى الشيخ فأشبعها لثما ، ومسح
وجهه بنظرة عجلّى واسكنها لاقطة ، وسأل الشيخ أن يباركه ، ثم استوى
قائما وانصرف مع رفيقته .

خرج الحلاوى وهو فى ليل من الشك فى أمر الشيخ ، وسار يتبعه
المرأتان وهو شارد الفكر ، أمّا مسجد أحمد البدوى . ولما انتهى من طوافه
ترك زوجه وحماته تكملان دوراتهما السبع حول « المقصورة » وجلس
فى ناحية يقلّب كفه ، ويخاطب نفسه :

أنى حلم أنا أم فى يقظة ؟ ومن هذا الذى رمانى القدر فى حُضنه
الموم ؟ أهو طيف خيال أم حقيقة رائعة ؟ أنى أتهم عيني وسمعى

ولا أ كاد أصدق نفسي ! ثم قهقه قهقهة كشفت عما احتواه من عجب
ناسيا حرمة البقعة ووجوب الصمت .

ولكن هل نهت تلك القهقهة واحداً من المطوفين ، وسرت إلى
سمع فرد من الجالسين المتبطلين ؟ لقد غرقت تلك القهقهة في لجة اللغات
المتتابعة يطبمها الزوار على نحاس المقصورة وخشبها ، والمصافحات الماسية
تجري على الجدران ثم الوجوه والصدور ، ورنين حبات السبح تهاوى في
خيوطها . وما نهت غير نفسه التائهة في ملاء^(١) التفكير ، فأرسل
الزفرات ، وصاح في أغوار قلبه : اللهم إن هذا يدق على فهمه !

حملته الذكري على جناحها إلى حيث العهد الغابر عهد الدراسة
بالأزهر والمنافسه على زعامة الأزهريين ، ونصور السبع ذلك الخصم الألد
والزعيم العنيد ، وتراءت أمامه صور مناوشاته وحملاته عليه ، وتمثل له
دؤدؤ صديق السبع ضاربا ومهدداً .

كل ذلك مر بخیال الحلاوى كما تمر الصور المتنوعة على صفحة الخيالة
أمام النظارة ، ثم طارت به الذكري ثانية من سماء القاهرة ودوّمت^(٢)
في سماء طنطا ، ثم حطت به على منزل الشيخ الصالح ، فاستعاد هيئة
الحجرة العجيبة وما فيها من عوامل الإيهام ، وما في جوها من غموض
وإيهام ، وذكر الشبه العجيب بين زعيم الأمس وشيطانة ، وولى اليوم وعظم

سلطانه ، ورنَّ في أذنه صوت بعيد ينادى : القصاص ! القصاص !
همَّ بمفادرة مكانه غير دار مايفعل لولا أن رأى زوجه وحماته أمامه
وجها لوجه ، وقد أصابهما الدوار من كثرة التطويقات ، وتأثرت شفاههما
وأكفهما من عديد اللآمات والمصافحات . وصاحت فاذمة أغثنا بقطرة من
الماء ، فقد أخذ منا العناء !

استيقظ الحلاوى مما كان فيه ، وخرج مهرولا في طاب الماء . ومن
حسن حفظه أنه صادف أحد السقائين المنبئين حول الجامع وداخله بالقرب
من باب المقصورة ، فتناول منه قدحا مملوء ، وعاد به إلى الظمَّائين ، ثم
تركهما وانصرف على أن يعود بعد قليل .

الفصل الثامن والستون

الرَّيْبَةُ

كانت زيارة الحلاوى مبعث شىء من القلق والاضطراب للشيخ لم يعبّد^(١) أن اختفى كأن لم يكن^(٢) . إذ اعتبر السبع لقاء قرّنه القديم من مواليد المصادفات ، ولم يشمّ منه ريح خطر يهدده ، أو يتوقع منه أذى متعمداً ، ودافع ما تسرب إليه من سوء الظن بما عهد فيه من الشجاعة ومعالجة الشدائد بالتروى وعدم الاكتراث ، وأخذ يناجى نفسه قائلاً : إن الأمر لم يخرج عن كونه محض انفاق ، وليس بعجيب مطلقاً أن تسوق المقادير هذا الرجل إلى حجرتى بعد أن فرقت يد النوى بيننا تلك السنين الطوال ، وإنما العجيب أن أتشاءم من طلعتته ، أو أستشعر خطراً من زورته . إنه سمى إلى طائعا متشوقا ليوفى ديننا لى قبل زوجته كما قال ، وما أحسب أنه عرفنى على تنكرى المضلّ ، وفعل السنين الخوالى فى . فلم أتهمه بتبذير السوء لى وليس له عندى على ما أعتقد ذحل^(٣) ؟ نعم إن شيئاً من التنافس كان بيننا يوم كنا نطلب العلم ونتنازع لواء الزعامة ، ولكن ذلك زال بالتصافح والتفاهم ، وما إخاله الآن إلا قد درج فى أثناء النسيان ، وطوته يد الحدثان .

(١) لم يلبث (٢) يكن (٣) نأثر

هذا ما كان يجول بضمير السبع عقب زيارة زميله ، وهذا ما كان يحدث به نفسه . لم يرد أن ينقاد للأوهام ، أو يقاوم وليس ثم اصطدام خرج من هذه المناجاة النفسية هادئ السرب ، وحسن الظن بالحملاوى ، ولكن سرعان ما انتبج له ^(١) خطأ استنباطه وسرعة انخداعه وسرعان ما تحقق أن شركا بنصب له في الخفاء ، ويدأ باطشة تمتد لغزله أنى الحملاوى وحده في اليوم العاشر من زيارته الأولى ففرخ ^(٢) السبع حقاً لمرآه ، إذ لم يكن يدور بخلده أن خصمه لا يزال تحت سماء طنطا وأنه منه فقرة ^(٣) ، ولكنه تجلّد كمادته ، ولم يظهر للسهم الذى أصاب فؤاده أثرٌ ما في حركته أو معارف وجهه . نظر إلى زائره ، وانفرجت شفاته عن ابتسامة متكلفة ، ثم قال في هدوء : تفضل أيها السيد وأخبرنا بما تريد .

جلس الحملاوى أمامه وعلى مقربة منه وقال : لقد حظيت بشرف المثل بين يدي سيدى مرة قبل هذه ، وحلت بى بركاته فقال السبع متجاهلاً : إن كثيرين يأتون لزيارتى ، ويستفسرون عن أشياء تهمهم ، فيوقى العليم لما فيه رضاهم ، ثم ينصرفون . ولا أذكر من ملامح وجوههم أكثر مما أذكر من ملامح وجهك فنظر الحملاوى إليه نظرة المنكر لما يسمع ، وهز رأسه عدة هزات ثم قال : إني جئت لأتيمن ببركة الشيخ قبل سفرى ، ولألتبس منه حِرْزاً بى

زوجي شر الأرواح الخبيثة وحسد الحاسدين . فضرب الشيخ يده إلى صدره فأخرج منه تميمة ، وناولها إياه قائلاً : احمل هذا الحرز البريك ^(١) إلى زوجتك ، وإني أوصيك أن تحتفظ كل الاحتفاظ بتلك الزوجة النعسة وأن تربها من عطفك ما ينسبها مصائبها الفابرة

فقال الحلاوي : حقاً إن الدهر قسا عليها وعلى أمها القسوة كلها وإن اللصوص فجعوها في عائليهما وفي ثروتهما ، وأفلتوا من يد القضاء الإلهي ولكن هل يفلتون من يد القضاء الإلهي ؟ إن الله يمدى للظالم ، ولكنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر . وهل يُكَبُّ الناسَ على مناخرهم في جهنم يوم القيامة إلا حصائدُ ^(٢) أعمالهم ، وما ارتكبوا من آثام ؟ فليجن كل سفاح ثمرة ما قدمت يداه إن عاجلاً وإن آجلاً

ثم ضرب فخذه بيمينه ، وجَعَمَ ^(٣) وجه السبع بيمينه ترحيماً . فسرت في جسم السامع قشعريرة غريبة لم يجربها قط في حياته ، ونفذت كلمات الحلاوي إلى قلبه نفوذ الإبر في الجسم الحساس ، وماء ظنه بمجالسه ، فنارت نائثرته ^(٤) ، وسوَّلت له نفسه أن يأخذ بعنقه ، فيعتصر الحياة منه اعتصاراً ، ويتمأص من عدو لدود وخصم عنيد ، ثم ليحدث بعد ذلك ما يحدث !

ولكنه دفع طائر حلمه المرئق ^(٥) إلى وكره وقال متوانياً : ليُفرَّخ

(١) المبارك فيه (٢) نتائج (٣) أحد النظر فيه (٤) ثارت عداوته (٥) أرثق : رفرق ولم يطر

رَوْعَكَ^(١) أيها الشيخ ، فكل ما يجري في هذا الكون الشامع إنما يجري بقضاء الله وقدره . وكم من نعمة كبيرة بين طيات كرهية . . . ثم صمت ومال الحلاوى إلى كلاكه المتدليين فقبلهما قبلات عدة وطويلة ظاهراً وباطناً ، ثم سأنه الرضا ، وهم بالانصراف . غير أنه لم يطأ عتبة الباب حتى سمع الشيخ يقول : أحسن ظنك بالناس أيها الضيف ، فكم من ظنين^(٢) وهو برىء ، وكم من مشروع ظاهر الحسن وهو وبنىء ؟ وكم من كيد يُرَد إلى محور السكاكين ، وكم من سهم يصيب صدور الرائشين^(٣) ! ولقد أعجمت^(٤) قولى فليفتهم الفطنون ، وليروا العجلون !

فَوَجَّهَ الحلاوى لحظة ، وقد غمرته موجة ذهول خفيفة ، ثم دار على عقبه ، وانفتل إلى الطريق العام ، مقهقها ومردداً : وكم من ظنين وهو برىء !

ولو نظر وراءه لرأى شيخاً مسناً يتأثر^(٥) خطاه ، ويستشف نواياه

(١) ليذهب فزعك (٢) منهم (٣) ملزق الریش على السهام

(٤) لم افصح (٥) يتبع أثره

الفصل التاسع والثمانون

التبليغ

حجرة صغيرة أقيمت فوق مَطْح النَّزْل السَّارِب ^(١) في السماء قُبَال حجرة تماثلها تحوى سريراً حديدياً أخضر أخذت من طلائه الأيام ، ومقعداً خشبياً تعلوه حشية بارزة الأرجاب ^(٢) ، وكرسیين من الخشب كدّهما النَّزْلَاء ، حتى صارت أرجلهما على غير استواء ، وقلة من الفَخَّار طار عنها غطاؤها ، وزوجين من القباقيب استمدّا من منابك الخيل صوتهما ، وتَنَقَّلَا من حجرة إلى أخرى حتى رسا بهما الطواف على مستقرهما الحالى . هذه صورة الغرفة التى استأجرها الحلاوى بالنَّزْل الأحمدي أمام جامع السيد البدوى ، وتلك كانت محتوياتها .

جلس ربّ تلك الحجرة على كرمى وراء الباب المُغْفَق غارقاً في بحار التأمل ، وجلست بجواره على المقعد حماته تحيط لباماً ، وجلست على طرف السرير زوجته تهزّ رجلها .

« ماذا دهاك أخيراً ياسيدى حتى صرت ظاهر القاق ، شارداً الفكر على غير عادتك ؟ أأنت مريض أم ماذا حدث ؟ » صاحت فاطمة وقد عيل صبرها من طول الصمت

(١) الذاهب (٢) الأمعاء .

ثم قفزت من السرير ، ووقفت بجانب زوجها تداعبه ، وعلى وجهها ابتسامة حلوة . ثم صاحت : إني أعلم سرّ ذهولك ياسيدى ، إنك قد اشتقت إني ولدك العزيز . فأنت تفكر فيه ، وتودّ لو تطير إليه ، أليس الأمر كذلك ؟

فنظر إليها الزوج نظرة ملؤها الحزن وقال : إني لا أنكر حنيني إلى « عبد الواحد » ولدى ، ولكن ليس هذا عِلَّةُ تغييرى ، وداعية قاتلى . فصاحت فى وجهه : وما عسى أن يكون السبب إذن ؟ فأتارق برهة ثم نظر إلى محيّاها الوضى ، ثم إلى محيّا حماته المتجمّد ، ثم صعد زفرة طويلة وقال : اذنؤا منى إذن ، وأصغيا إلى كل كلمة أقولها ، فإن ما سأقصه عليكم من المعقّرات ^(١) العجيبة !

فعلنا كما أراد ، وأنشأ هو يتحدث فى تودة ، وعن شعور عميق قائلًا : أتينا إلى هذا البلد مختارين لرفقه عن أنفسنا ، ونوفى نذرًا أخذناه على عاتقنا ، أتينا لفسكرم عالما ، وتبرّك بولى ، مسوقين بحسن النية ، مجردين عن كل هوّى شائن . . . فهمت فاطمة بمقاطعته لأنها لم تفهم ما يقول ولكنه أشار إليها بالسكوت ففعلت ، واستمر هو يقول : وكان ما أردنا ، فأطلقنا أنفسنا من رقّ النذر ، ورفعنا آيات الشكر والإجلال ، واستنزلنا البركات الطاهرة . أليس كذلك ؟ فقالت المصغيتان بصوت واحد : بلى .

فابتسم ابتسامة ملؤها الازدراء ، ثم قال بصوت المتهمك : ولكن
ألا تدريان من كنا نكرم ، ولمن كنا نتذل ؟ ولم يترك لهما وقتاً
للإجابة ، بل صاح بكل ما فيه من قوة : إنا كنا نكرم لصاً كبيراً ونتذل
لسفك جريم !!

فشهقت المرأتان شهقةً كادت تقطع نياط قلوبهما ، ولبثنا لحظة فاغرني
القم ، بارقتي البصر ، ثم صاحت الكبري : لا عجب ! فقد حدثني قلبي
منذ النظرة الأولى بأن ذلك « الشيخ الصالح » من أكبر الطالحين ، وأنه
دعى بين الأولياء ، وما راقتني سخنته ، ولا خدعتني شهرته وإلا
فقاطعتها فاطمة : لا تعجلي يا أمي بالحكم ، ولا تقسى على الرجل قبل سماع
قصته ، ثم توجهت نحو زوجها صائحة في شيء من الغضب :

إن مات قوله لشبيهه بالمستحيل ، إن لم يكن المستحيل ذاته . وإني
لا أسمح لعالم مثلك أن ينحّت أثلة رجل^(١) عدّه الناس من صفوة الأتقياء
واعترفوا بأنه من كبار الملمّين العلماء ، وكان جُلّ حياته مصدر الخير
وهادى الضال ، وآسى المكلوم . ولطالما رفعت عقيرتك^(٢) بوجوب ترك
الغيبة والوقعة ، فكيف استبحت لنفسك ما حرّمت على غيرك ؟

فهمت أمها بحاجتها ، ولكن الخلاوى نصح لها بالإقلاع عن
الحاجة حتى يتم حديثه ، وأخذ يقول : إني مُعجّب يا فاطمة بتدبّر منك من
البت في الأشياء قبل استنباطك منها وعقلك إياها ، وإن غضبتك كانت

تكون على حق ، لو أنى اغتبت الرجل حقاً ، وكنت عليه متجرماً^(١) أما وإني أسرد حقيقة واقعة مؤيدة بإبراهيم مدعمة بالتجارب فلا داعي للغضب أو التسرع . وما عليك إلا أن تصفى قليلاً حتى أنتم كلامي ، وبعد ذلك لك حكمك كما لأملك حكمها .

صمتت الزوجة . واستمر هو يقول : إن ماضى^٢ مرتبط بماضى ذلك الرجل الذى يسمى نفسه « بالشيخ الصالح » الآن — وعلم الله أن ليس له من الصلاح نصيب — والذى عرفته فى الأيام الخالية باسم أحد الوحوش الضارية . . . أعنى السبع . وليس المقام مقام وصف حياته معى فى الأزهر أكثر من تسع سنين ، وإنما يكفى أن ننعته بأنها كانت حياة مشاغب ثائر « وفتوة » جرىء . ولا أخزُن^(٢) أنى كنت هدفاً لدهائسه المتعددة وأنى لم أسلم من أذاه بل هددت بالقتل من بعض أشيائه . وإذا كان المرء أن يحكم على مستقبل الشخص بماضيه وحاضره فقد حكمنا على السبع حينئذ حكماً قاسياً ، وتوقعنا له حياة ملأى بالمنازعات والدهائس . وقد صدقت نبوءتنا فيه ، فقد سمعنا عنه من بعض أهل بلد المجاورين فى ذلك الوقت ما كانت تدفعه أحلامنا ، ولا تصدقه آذاننا .

دارت الأيام دورتها وإذا بنا نسمع عن جرائم مروعة وحوادث جريئة تقع بين فترة وأخرى فى منطقة ميت غمر خاصة وما جاورها عامة ، وإذا بسكان تلك البقاع أمام عصابات منتظمة من الأشقياء وأسراب

(١) مدعياً عليه ذنباً لم يفعله (٢) أكنتم

من الوحوش الكاسرة . وما أحسب إلا أن صاحبنا كان أحد قوادها
ورءوسها المعرّفة

فصاحت فاطمة : ان النتائج لا تُدبني على مجرد الظن
فأجابها بايتسامة ودبعة : كان ذلك حَدْسًا كما تقولين ، ولكن لم
يلبث أن صرّح الشك عن اليقين ^(١) فقد تطايرت الأنبياء في طول
البلاد وعرضها عُقَيْبَ مجيئي إلى ميت غمر ، واصفة اهتداء رجال الأمن
إلى كشف أكبر عصابة فوق أديم مصر ، وإلى القبض على كثير من
أفرادها ، وكيف فرّ رئيسها ولم يُعلم له أمر . طُورِدَ هذا الرئيس الفارّ كما
طُورِدَ غيره ممن حامت حولهم الشبهات ، ونشرت أوصافه الخلقية ، وأعلن
اسمه ، بل خصص جزء كبير من المال لمز يأتى بحامل ذلك الاسم حياً أوميتاً .
فقاطعته فاطمة : إنك إذن وراء هذا المال ، ومن جُلّ هذا المال تحاول

أن تدفع برجل سليم الطيئة جمّ الصنائع في قرار جهنم
فقال : لا تسيئي الظن بي إلى هذا الحد يا عزيزتي ، فلست بمتحامل
عليه مطلقاً . ثم استمر في حديثه : مما نُشِرَ ولا كتبه الألسنة عرفت أن
رئيس العصابة الأبق هو زميلي القديم ، ومنافسي العتيد . فمجبت كل
العجب ، ولكن لم يطرأ على بالي أني سألتقي به يوماً ما بل غلب على ظني
أنه قضى ^(٢) ، وهنا يمكنكما أن تتصورا مبلغ دهشتي وذهولي حينما وقعت
عيناى على ذلك السّفاح وقد تنكرّ تسميةً وتضليلاً ، واجترأ على مقام المطهرين

نصباً واحتيالاً . عرفته لأول نظرة ، وليس من شك في أنه عرفني جيد المعرفة ، وإن لم ينمّ على ذلك مظهره ، ولم أشأ أن أفجأه بخبر كشفي له ، ولا أفجعه في أحلامه اللذيذة ، حتى آخذ للأمر عُدّته . أمليتُ له قليلاً ، وأنشأت أرقب حركانه وسكناته عن كُتب وأتسمّع كل ما يقال عنه من عدو وصديق ، وأصغيت الى علمه المهوش ، حتى ازددت يقيناً بأنه هو السبع المطارد . ولم أرد أن أكشف سره لأولى الأمر حتى أثبتت بنفسى من نقطة واحدة ، وللوصول إلى ذلك كان لا بدّلى من زورة ثانية للشيخ الصالح ، وتمّت هذه الزيارة أمس صباحاً ، وخرجت منها مرتاح الضمير كامل اليقين .

وهنا وقفت فاطمة فجأة ، وهمست : يخيل إلى أنى سمعت وقع أقدام بالقرب من بابنا

فأصغى الكل برهة ، ثم نهض الحلاوى ففتح الباب ، وأطلّ منه على السطح ، ولكنه لم يسمع غير صفير الرياح يدوى في سماء طنطا ، ولم يميز غير ضوء ضعيف منبعث من عقب باب الحجرة المقابلة المغلق .

ثم دخل وأغلق الباب قائلاً : لا شيء مطلقاً . وما استوى في كرسيه حتى ساءلته زوجته : وهل لك أن تخبرنى عن دواعى زورتك ؟ فأجابها : لقد ذكرت حين كنت أفكر فى أطوار هذا الشيخ الغريبة ، وأحواله الفريدة ، أنى رأيت فيما مضى على معصم يده اليسرى وشما يحكى منوراً^(١)

كاشراً عن أنيابه ، وأنى رأيت فَوَيْقَ ذلك السَّمُور لفظ « السبع » مكتوباً بجلاء . ولا أكتمكما ما نالني من السرور حين وُقِّتَ لهذه الذكرى القيمة فقالت الأم : وهل رأيت هذا الوشم الغريب حين زرته ثانية ؟ فقال نعم ، غير أن اللعين حاول على ما يظهر لي أن يزيل ذلك الأثر الناطق بحقيقته ، فتمكن من طمس اسمه بعض الشيء ، أما السَّمُور فلا يزال كما رأيته منذ سنين

فصاحت السائلة : إني موقنة الآن أن هذا الشيخ القَبَقَاب^(١) إبليس من الأبالسة الضارين ، وأنه يجب سوقه إلى المشنقة حالا . وإني لا أشك بعد الذي سمعت ، وبعد الذي يوحى به قلبي ، في أنه كان لهذا الشرير يدٌ في مقتل زوجي العزيز وخادمي الأمين ! إن معارفه وحركاته ونبرات صوته هي هي معارف ذلك اللص الجبار الذي فجعنا في أعز الأشياء لدينا وحركاته ونبراته !

فصاحت فاطمة وقد نبشت الذكرى الآلية دفين أساها وأفاضت دموعها ، وإن لم تنل من عقلها الصافي ، أو تؤثر في منطقها السليم - صاحت كيف تدعين يا أمي ذلك ، وقد كان اللصوص مقنعين ومتنكرين ؟ ليس من الجبل أن تهتم الأبرياء ، ولا من الوفاء أن ينجح يد الإنسان أيادي الناس عليه . فصاحت أمها : ليس لهذا الرجل على من يد ، وحسبه أنه كذب على ، فمات ولدى الأخير بعد قليل من مباركته الخادعة . فقال

الزوج : إن هذا الولي الزعمي^(١) ليس له فضل على إحداكما فما حدث فهو من عمل القدر ، شاء الله أن يقبض ولدًا ، ويخلق ولدًا ؛ فكانت له مشيئته جلّ وعلا . فقالت فاطمة : وماذا أنت صانع بهذا الشيخ الآن ؟ فقال في هدوء : إني لا أفعل غير ما يمليه عليّ واجبي في مثل هذه الأحوال . رجل ماضيه ملوث بالدماء ، وحاضره حافل بصنوف الخداع والرياء ، الحكمة تقضى بإسلامه إلى بد القضاء ، حتى ينال جزاء ما اقترف من آثام ، وسبب من آلام !! وهذا ما لجأت إليه اليوم ، فلقد وقفت رجال الضبط على جليّة أمره ، وكشفت لهم اللثام عن حقيقة حاله ، إذ كان حقًا على أن أغير منكرًا أراه ، وأقطع رأس الحارّية^(٢) قبل أن تنفث سمومها في أجسام الناس . والآن وقد نفضت يدي ، وأرضيت ضميري ، فليفعل القضاء واجبه ، وإن الغد لقريب !

وهنا سرت إلى مفاصل الباب رعشة قوية ، فذبّ الرعب في قلوب الجميع ، وأسرع الحلاوى إلى السطح ، ولكنه لم ير شيئًا ، وأطل من قمة السلم ولكن لم ير شيئًا أيضًا . فتراجع إلى حجرتة مُنْكَفِي^(٣) اللون مطرّق الرأس ، ظاهرَ الارتياب ، ومازاد على أن قال : ما أظن ما حدث إلا من عمل الريح .

ساد الحجرة سكونٌ غريب بضع دقائق ، ثم سمعت فاطمة تتخاطب

(١) الكذاب (٢) الأفعى (٣) متغير

زوجها بلهجة الجِدِّ : خير لنا أن نُسكفَ عن طنطا ^(١) على عَجَلٍ فإني أَلح
شبحاً يهدِّد حياتنا ، وأرى آية الشيخ المظلوم توشك أن تظهر فينا . وهو
لا يُعذل إذا مَسَّنَا بشر ، بعد أن سَلَقته ألسنتنا ، وتَلَّأناه بِتِلَّةِ السَّوءِ ^(٢)
فضحك زوجها ضحكة متكافئة وقال : لن يصيبنا إلا ما كتب
الله لنا ، فهدئي روعك ، ولا تُسلمي نفسك للمخاوف .

الفصل الأربعون المخبات

منذ زيارة الحملأوى غير المتوقعة والسبع مشغول البال ، ظاهر الالتئاع^(١) ، يتوقع كشف سره من ساعة إلى أخرى ، ويتصور خاتمته وما لا بد أن يلحق زوجته وأهلها من شقاء وعار على أثرها ، وهم الذين آووه ، وقضوا مَدمته^(٢) ، ومزجوه بلحمهم ودمهم .

تخيل ابنه الصغير المحبوب شاباً قد انزوى عن لُماته وأترابه حياء وخجلا ، لا لذنوب سوى أنه ابن مجرم فتاك ، وولى أفاك^(٣)

« ليتنى لم أتزوج ، وليتنى لم أرزق ولداً » صاح النادم من أعماق قلب كليم ، وقد شعر بوخز الضمير لأول مرة في حياته المفعمة بالحوادث الجلى . « ماذا جنت هذه الزوجة الطاهرة حتى أُلطخ سمعتها باسمى ؟ وأى جرم اجترمه ذلك الطفل حتى أَدفع به في ذلك العالم الذى لا يرحم ، والذى يأنى إلا أن يَزِر الابنُ وزرَ أبيه^(٤) ، ويُؤخذ الأخ بجريرة أخيه ؟ إن العالم أعمى لا يقدر الظروف ، ولا يراعى الأحوال ! » .

تلك كانت مناجاته التى كشفت لنا ناحية من نواحي نفسه الملعذبة

(١) الاحتراق من الهم (٢) أحسنوا إليه حتى لا يذموا

(٣) كذاب (٤) يحمل الابن لثم أبيه

وأبرزت عاطفة من عواطفه ، والآباء آباء في كل جيل وزمان ، يشغلهم
النَّسْل وراحته ، ويحتويهم حُبُّه ، وتهتمهم سعادته ، لافرق بين ملك
وصُلو ك ، وسجين وطلاق ، ومهتدي وضال .

ولننظر الآن إلى ناحية أخرى من نواحي ذلك الرجل المهدّد . إنه
شمر بالخطر بطوّقه تطويقاً ، وأيقن أن ساعة الحساب العسيرة تدنو منه
وَشيكاً^(١) فهل يقف مكتوف اليدين حتى يشدّ على رقبته الخناق ، وتسد
أمامه أفواه النجاة ؟ لا . إنه لابدّ أن يعمل لخلاص نفسه بجِد وبسرعة .
وعلى من يعتمد في تسيير سفينة الخلاص من مأزقه ؟ على نفسه أولاً ، ثم
على تابعه ثانياً .

بدأ في العمل ، فامتنع فجأة عن التدريس حتى لا يعرض نفسه لعيون
تريد به سوءاً ، وامتنع عن رؤية الزائرين للسبب عينه ، معللاً هذا وذاك
بأن صحته تقضى عليه بلزوم الراحة قليلاً . ولجأ إلى متعبّده فقضى معظم
أوقاته فيه ، إمّا منفرداً وإمّا مع درويش العلابي ، يرسم الخطط فيه ،
ويصدر منه الأوامر . وأطلق درويشاً في إثر الحملاوي ليتبين نيّاته ،
ويترسم خطواته ، وزوّده بفنون الحيل ، وصنوف التنكر ، فقام بما عهد
إليه خير قيام ، وأظهر كفاية عظيمة في ميدان التجسس .

فكنت تراه في مختلف الأزياء ومتغايّر الأعمار ، متنقلاً بين مقرّ
الحكومة ونزّل الحملاوي والقهوات ، ناشراً أذنه لكل ما يقال ، وقافياً

أثر عدوه قَفَّوْ القدر بطرق شيطانية . ملكت هذه المهنة الجديدة كل حواسه حتى نسى أنه هو مطارد ، وأنه عرضة لأن يقع في الفخ قبل أن يوقع غيره فيه . ووافى رئيسه بكل ماوصل إليه أولا فأولا ، ولم يكن بين ما يحمل من الأنباء شيء يسوء ، فلم تخرج غن أن الحلاوى لا يزال في طنطا ، وأنه نازل بالفندق الأحمدي مع زوجته وأمها ، وأنه هو نجح في استمالة بعض رجال الشرطة إليه ، وأنه أقرض بعضهم بعض النقود ، وأنه تمكن من استئجار حجرة بالفندق الأحمدي تحجاء حجرة الحلاوى . واستمرت الأنباء على ذلك بضعة أيام حتى خيل إلى السبع أنه كان مخطئا فيما تصور ، وأن خصمه لم يعرفه مطلقا .

ولكن في صبيحة يوم مَظُور^(١) بينما كان بمعرّله يقلّب بعض أدواته وينثر مختلف مخبّأته إذ سمع تقرنين خفيفتين على باب حجرته فأسرع في رد الأشياء إلى محلها . ثم ذهب ففتح الباب ، وإذا به أمام درويش . دخل الطارق وأغلق الباب وراءه ، ثم عمد إلى كرسي صغير في زاوية الحجرة فجلس عليه ، يعلوه عيوس الغاضبين ، وكآبة الحزين .

فلم يرتب السبع في أنه يحمل نبأ خطيرا ، وقال بهدوء : ماوراءك اليوم يادرويش ؟ فأجاب مطرقا : ورائي أخبار سيئة . إن العدو ألقى الشوك وينتظر القنيمص^(٢) . ثم صاح بكل ما فيه من عزم : ولكمه لن ينال أربه ابتسم السبع ابتسامة الذاهل وقال : وما معنى ذلك أيها الصديق ؟

فقال إن الخبيث قد أنجى^(١) كل سرك لأولى الأمر ، وأفضى اليهم بكل شيء ، وهو يتوقع القبض عليك ما بين آونة وأخرى ، وما عليك إلا أن تحتاط لنفسك قبل نفاذ السهم ، وأما أنا فأعرف كيف أنتقم من الخائنين الثامين . أقسم أنه لن يخرج من طنطا إلا محمولا على الأكتاف ، ولقد أقسمت وسترى أنى لن أحث في يميني !

ثم ضرب يده إلى جيبه فأخرج سكيناً طويلة ذات حدين ، ولوح بها في فضاء الحجرة ، ثم قال في حماسة : لقد اشتريتها في هذا الصباح وسأسقيها اليوم من دمه النجس ! فنظر إليه السبع المعجب ، ثم قال : لله أبوك يادرويش ! إن ماذقتته من المرئين^(٢) لم ينل من شجاعتك القديمة وحماستك المعهودة ولكن خبرني في رؤية . ألا ترى أن انتهاج خطتك هذه قليل الجدوى ، إن لم يكن مجلبة الشر ؟ إنك إن قتلت ذلك الثعلب عرضت حياتك النفيسة للموت ، ولم تدفع عنا الخطر .

فصاح درويش إلى ألوى^(٣) الموت مع الانتقام من هذا النذل على الفرار بحياة ستمتها وستمتى فقاطعه السبع قائلاً : لقد شبعنا من رؤية الدماء ، وإني غير ثمل إلى سفح دماء أخرى^(٤) ، ما لم أضطر إلى ذلك اضطراراً ، فهديء ثائرك وأصغ إلى كل الإصغاء .

إني قبل أن تجيء كنت أقلب وجوه الرأى ، وأرسم ما يجب عمله

(١) كشف (٢) الشر والامر العظيم (٣) أفضل

(٤) غير مبال إلى سفك الدماء

لو وقع الأسوأ ! ففرت عزيّتى على سلوكك طريق واحد وهو التنكرو والفرار .
ولقد خدمتنا هذه الوسيلة فى الماضى والحاضر فلم لاتخدمنا فى المستقبل ؟ فلنعدّ
العدة من الآن ، ولنرحل من هذا البلد قبل أن يُقرع ناقوس الخطر . وفى
الأرض منأى واسع لمن يريد الحياة .

فلم يرقّ هذا الاقتراح فى نظر درويش ، ولكنّه جارى رئيسه ظاهراً
واحتفظ لنفسه برأيه .

نهض السبع بعد هذه المحاورة القصيرة إلى صناديقه الثلاثة الصغيرة
ففتحها ، ونثر ما بها على أرض الحجرة ، فاذا أنواع مختلفة من الملابس
وأغطية الرؤوس وألوان من الأصباغ ، وإذا شعر وحواجب وشوارب
صناعية ، وعميون زجاجية متباينة الحجم واللون ، وأحزمة جلدية ، وأخرى
حريرية ، وغير ذلك من كل ما يحتاج اليه المتنكرون ويدّرع به الخائفون .
ثم عمد إلى حقيبة صغيرة فأخرج ما بها ، وإذا بأسلحة مختلفة ، من غدارات
وسواطير ، ومسدسات وسكاكين .

ثم مد يده إلى قِمَطر بجوار الحائط فأخرج منه عدة زجاجات مملوءة
بسوائل مختلفة ، وأكياس محشوة بالرصاص .

وقصارى القول أن هذا المحراب المقدّس بدا مكمناً لأسلحة مختلفة
تكفى بضعة أفراد للدفاع عن أنفسهم وقت الحاجة

تنقذ السبع تلك المنشورات ، ثم التفت إلى رفيقه قائلاً : أظن أن فى
هذا القدر مَنفَذاً إلى النجاة . وكفى المرء أن يتخذ أهبتّه ، ويترك النتائج

للحفظ . ثم دنا منه خطوة وقال : أى هذه الأسلحة يروق فى نظرك
يا درويش ؟ فضحك المستول وقال : أظن سيدى لم ينس أنى لا أجد
الرماية . فقال إني لم أنس ذلك ، ولكنى أذكر أنك تجيد الطعن كل
الإجادة . فقال هو ذاك ، ولكنى أرى أن أحتفظ بسلاحى الجديد . ثم
أخرج سكينه مرة ثانية ، ورمقها بعينى خبير ، ثم قبلها قائلاً : لك
لا تغدرين بى عند الدعوة للنزال ، وما أحسبه إلا قريباً .

ثم وضعها فى غمدها ، وأرجعها إلى مقرها من صدره ، ثم نهض
وبسط كفه قائلاً : خير لنا أن نتصافح ، فإن المرء لا يدرى ما يخبؤه له
القدر بين كل فينة وأخرى من هذا الوقت العصيب . ومن يدرى ألتقى
بعد ذلك ؟ فنظر الشيخ إليه نظرة العاطف ، ثم شدّ بكلماته على يد
محدثه وقال : لا تظهر هكذا يا درويش بظهر اليأس فإن الوقت لا يزال
فيه فسحة ، ومصباح الأمل لا ينفك مضيئاً . ثم وضع كفه على كاهل
مخاطبه وقال : اعتقد أن ما سيحدث لا يفوق ما حدث ، لقد رأينا الموت
معاً فيما مضى فى صورشتى وأوضاع مختلفة ، فلم نرهبُ مقابلته الآن ؟ ليأت
على الرّحب والسعة ، ولكن ليعلم أنى قرينه القديم ، وأن دم السبع لا يسيل
رخصاً ، وأن الطعن منى سابق الآجال !!

فسرتُ حَمِيّاً الحماصة فى أعصاب درويش ، وذكر مواقف رئيسه
الرهيبه ، وصاح معجباً بتلك النفس الباسلة : إن مثلك لن تلده الأمهات ،

ولن يجود به الزمان !! ثم استأذن في الانصراف ليتفقد الجو ويعود
بعد قليل .

خرج درويش بين جوتين حالكين جو الطبيعة وجو النوادي^(١)
الأخيرة ، وسارتحت بريق السماء ورعدها ، وفوق الأوحال ، حتى وصل
إلى جامع السيد ، فمرّج على مغطسه فمكث فيه قليلا ، ثم خرج بشكل
غير شكله وزى غير زيّه . دخله في أخلاق الشحاذ المذئ^(٢) ، وبرز منه
في لباس القروى المعتدل القامة

وبينما هو يعبر الطريق إلى النزل الأحمدي إذ صادفه صديقه
العسكري . حياه ذلك العسكري تحية الصديق ، ومدّ يده إلى صدره فأخرج
منه بعض نقود ، ودفع بها اليه قائلا : هاهو ذا دينك مقرونا بالشكر
فأبى الملايلي أن يأخذها قائلا : لا حاجة بي إليها الآن ، فاحتفظ بها
حتى أسألك . فتهلل وجه العسكري فرحا وقال : إذا كان الامر كذلك
فلاني سأردها اليك في أول الشهر ، ثم صاحفه وانصرف شاكرا .

الفصل الحادى والاربعون

الساعة الرهيبة

كانت عفيفةً صادق زوجةً السبع من النساء القانتات الطاهرات
القلب أخلصت لزوجها كل الإخلاص ، وأحبته محبة الزوجة التي ترى
فى زوجها مثال الكمال وتبادل العاطفة

وكان لا يضجرها أن تراه يقضى الساعات الطويلة بم عزل عنها ،
لاعتقادها أن الرجل خلق للجميع لالها فقط ، وأن للناس نصيباً من عنايته
وحدبه كما أن لله قسطاً من عبادته وتبته .

وكان طفلها المحبوب صورة مصغرة من صورة أبيه ، تجد فيه سلوتها
إذا طالت غيبة زوجها . وما ظهر عليها يوماً ما علامة تذمر أو ندم ، أو بدت
منها نهم زوجها بادرة غضب ، بل عاشت فى ظل الرضا هادئة النفس
سعيدتها . وأكبر زوجها منها هذه التضحية الملموسة ، وتلك القناعة
النادرة ، ولم يكتفها حبه لها ، بل أظهره فى عدة مواطن

دخل عليها وهى تحيط جواربها له ، وولدها أمامها بعض كرة الخيط .
فقابلته كما دتها بوجه طلق وثغر باسم ، وقالت : لملكك تشعر بتمام الراحة
والعافية الآن ؟ فقال : حمداً لله على نعمه ، ثم مال إلى ابنه فحمله بين يديه
ومسح وجهه تقبيلاً ، زافراً عدة زفرات ، ثم وضعه فى حجر أمه ،

وصاح بصوت ينم عن حُرقة غالبة : أستودعك الله يا ولدى !
وما طرقت هذه الجملة سمعَ زوجته المشغولة حتى سقط الجورب من
يدها . وحملت في وجه زوجها ، فراعها دُمعات غزيرة تتحدر من مقلتيه
وصاحت في ألم : ماذا جرى يا عزيزى ؟ فقال : لا شىء . . . فقالت لا شىء .
وأنت بهذه الحالة التى لم أعهد لها فيك منذ عرفتكَ ؟ فصمت ولم يجب .
ثم جفَّ دموعه ، وقال بصوت فائر : اسمى يا عفيفة !

فقالت : كلِّى سمع . فانفض إلى حالك ، علِّى أستطيع أن أفرج
همك ! فقال متأثراً : إن أموراً خطيرة قد تحدث ، وتضطرنى إلى مغادرة
طنطا بضعة أسابيع فالتصت حدقتا عينيهما شأن الداهل ،
وقالت أمور خطيرة ؟

فقال نعم . و إلى لم أرد بإخبارك إلا أعداد نفسك لتحمل ما قد يكون
فإنى أعرف أنك لا تقربين على الصدمة الفجائية . فقالت : وهل هناك
مفاجأة أشد من هذه المفاجأة التى تكاشفنى بها الآن ؟

فصمت مفكراً ، ثم قال : اصفحى عى يا عفيفة ! فلقد أسأتُ إليك
من حيث لا تدريين ، وسُقت إليك شقاء لا يستحقين ، وكنتمتلك أموراً كان
يجب أن تُلِمِّى بها قبل أن تهيبينى يدك . ولكن . . . هكذا قُدِّر فكان !
وما كان يدور بخلدى أنى سألجأ يوماً إلى وقوفى مثل هذا الموقف المغنى
والزرى معاً ! ! !

فكادت الزوجة تصعقُ مما سمعت ، وصاحت : إنى لأفهم ما تقول ،

ولا أتذكرك أنك أسأت إلى قط ، فأرجوك الإفصاح
فقال متأثراً : إنك ترجين الإفصاح ؟ فهناك إذن الحقيقة مرة غير
سائغة ، ولتصبى الآعنات فوق رأسي بعد ذلك حباً ، ولتبرئني منى براءة
الطاهر التقى ، من النجس الشقي !!

فجاشت المسكينة إليه ، وصاحت والدموع تنهل من مآقيها : آه !!
إنك تمزق أحشائي بكلامك هذا ! وتضع نفسك في منزلة لا أرضاها
لك مطلقاً ! فقال لا : يا عفيفة ، إنى درن ماتصوّرين بمراحل ، إن
ماضى أ-

فصاحت : لا يهمنى ماضيك ، ولا يغيّر من اعتقادي فيك . فقال :
إن بي من السيئات ما يجعلنى غير أهل لزوجة طاهرة مثلك . فقالت
إنك أهل لخير منى .

فبلغ منه ذلك الإخلاص والإكبار ، وشعر بالألفاظ تقتل في
فيه اقتتالا ، فصاح فى نفس واحد : إنى مدّع محتملٌ مطاردٌ لص فتاك
سفّاح أثيم !!!

فناثت المسكينة تحت هذه الصدمة القوية ، وشعرت كأن سكيناً
حاددة تمزق أحشاءها تمزيقاً . ولبثت برهة زائغة البصر شاردة الفكر ،
ثم ارتمت على صدر زوجها ، وطوّقت عنقه بذراعيها صائحة : إن ذلك
مستحيل ! إن ذلك مستحيل !

فتركها على حالها برهة ثم دفعها برفق ، وأخذ رأسها بين يديه ،

قائلا : ألم أقل لك إن الحقيقة مرة ؟ فقالت إن ما تقوله بعيد عن الصواب .
فقال بل هو عين الصواب . فقالت لا . لا .

ثم تعلقت بعنقه مرة أخرى ، وأخذت تجذبه وتدفعه بين ذراعيها
صائحة : قل إن ذلك غير صحيح ! قل إن ذلك غير صحيح !

أدرك السبع أنها في حالة تهيج شديد ، وأن الكلام معها ربما أدى
إلى مالا تُحمدُ عقباه ، فآزم الصمت وأخذ يَلْوِي عليها ^(١) . وما زال بها
حتى سكن ثأرُها بعض السكون .

وحينئذ وضع يديها بين كفيه ، ونظر في عينيها نظرة لم تر مثلها في
حياتها ، وقال في هدوء : لقد كشفتُ لك أمرى ، فهل تصفحين عن غشّى
لك ، وتذسبن معى ذلك الماضى الملطخ بالدماء ؟

فقالت : أما الصفح فليس في مقدورى ، لا لأني ضئيلة به ، بل لأنك
لم تُجرم في نظرى فتستحقه ، وأما الماضى فلا عهد لى به . وخير لك أنت
أن تسدل عليه ستارا ، وألا تنبشه من قبره إن كان لا يبسطُك

فقال : إذن أنت تقبلينى على علائى ؟ فأنعمت . فقال : حسن .
والآن لم يبق إلا أن تعرفى ما اعترمت عليه

نم أخفت من صوته وأطرق قائلا : إن رجال الحكومة قد كشفوا
مخبئى ، وعرفوا فى اللص الهارب ، وإنهم جادئون فى إثرى . ولا يدرى
إلا الله متى ينقضون على فرستهم ، ولكنى على يقين أن الشرَك قد نُصب ،

وأن ساعة الهجوم قريبة ، ولذا فقد صممت أن أفر متنكراً مساء اليوم .
فإن رافقنى الجدُّ أقمت فى بقعة ما ، ثم بعثت إليك سرّاً فى الفرصة
الملائمة ، وحينئذ يمكننا أن نعيش عيشة هادئة بعيدين عن مباحث الريب .
وإن لم تُتَّخَ لى النجاة فأرجوك أن تلتمزى الصبر وتجتهدى فى نسيانى ،
وتعفى عما سببت لك من عار

وهنا شعر يديها تأخذان فى البرودة ، وقبل أن ينظر إلى وجهها
هَوَتْ بولدها تحت قدميه ، كمن فارقت الحياة

هبَّ الشيخ من مقعده وهِلاً مذعوراً ، واحتمل الطفل وقد استيقظ
من نومه صارخاً على أثر السقطة ، ووضع على السرير ، ثم أسرع فاحتمل
زوجته إلى الأريكة ، وأخذ يفرك أطرافها ، ويسعفها ببعض المنعشات حتى
أفاقت من صمقتها

وبينما هو يلاطفها إذ سمع طرقة على باب الغرفة ، فقام ليرى من
الطارق وإذا صادق بك مائل ، ويده ورقة صغيرة يعيث بها . ففسح فى
الطريق ليدخل ، ولكنه لم يفعل بل قال : إني لم أظن أنك هنا وقد كنت
أتياً لأخبر عفيفة بأنى ذاهب إلى « البندر » لأن المأمور بعث فى طلبى .
وضحك قائلاً : إني لا أحسبه إلا مريداً تسخيرى فى توزيع أوراق - فلة
من الحفلات كمادته

فحقق قلب السبع خفقةً شديدة ، وقال متكلفاً الابتسام : أظن

أنه يريدك لغرض أهم من هذا وإلا ما بحث إليك في مثل هذا اليوم الكثير الوَحَل . فقال محدثه من يدري ؟ ثم هرول نحو السلم .
أما السبع فوَجَمَ في مكانه وُجُومَ الذاهل ، ثم انكفأ إلى الحجرة صائحاً في نفسه : ترى ماذا يضمّر هذا اليوم المكفهر في جوفه !! ؟

ولم يكذّ يستقر في مكانه حتى سمع طرقاً خفيفاً آخر على الباب فصاح من الطارق ؟ فقال سليمان إن حسناً (يقصد درويشاً) يُلِخُّ في طلب سيدي الشيخ . فقال وقد هاله هذا الطلب : أخبره أنني ملاقيه بعد قليل ثم شعر بخطر التريث مع زوجته ، وأن كل دقيقة تمر لا يمكن تعويضها ، فمال نحوها فقبلها ، ثم قال تشجّمي يا عزيزتي ، وتذكّري كل ما قلته لك وارعى ولدنا بكل ما فيك من حب وعناية !

ثم دفع إليها بصرّة نقود ، وقال خذي هذه ، واستعيني بها على قضاء حاجتك حتى نلتقي

ثم سار إلى السرير فاحتمل الطفل بين يديه ، ثم ضمه إلى صدره وغمر وجهه بالقبولات ، ثم رده إلى صدر أمه وعينه تسكف^(١) ، وقلبه يجف^(٢) .

وما وضع يده على أكرّة الباب حتى نهضت عفيفة صائحة : خذني معك لأشاطرك الخطر ، وأقاسمك الهموم ...

فنظر إليها والأسى يُحرقه ، وسيل الكرب يجرفه ، وقال : عهدي

بك يا عفيفة جَلْدَة عاقلة ، فَلِمَ تُضَعِّضِينَ اعتقادي فيك ؟ إن في بقائك
هنا راحة لضميري ، وسلامة لحياتي وحياة ولدنا ، فاستريحى ولا تقنطى
فاللقاء قريب ثم غادرها بين التياع لاذع ، ويأس قاطع ، وأزواق
مُسِيْلَة^(١) ، وأَوْفَضَ إلى متعبده^(٢)

دخل السبع الحجرة وقد هَارَ النهارُ^(٣) ، وَطَفَلَتْ^(٤) الشمس للغروب
وتبعه درويش يَنْصُ أَنْفَهُ^(٥) غضباً . وما استقرا في مكانهما حتى صاح
التابع في غضب : لقد فرَّ الجبان !

فقال السبع ومن تعنى بالجبان يا صاحبي ؟ فقال إن الحلاوي أغدرَ
نُزُلَهُ صباح اليوم ، ولا يوجد له أثرٌ ما في طنطا ، ولا أحسبه إلا شعر بخطر
غلطته فأثر الهروب .

فقال السبع : وما ذبهم وجود الرجل أو غَيْبَتَهُ بعد أن انصَرَحَ^(٦)
أمرنا ، وَعَلَنَ^(٧) سِرُّنا ؟ إنه شفى غليله ، وانتقم من خصمه القديم ، فلم
تنتظر منه رَيْثاً ؟

فمضَّ درويش شفته السفلى حتى كادت تَدْمَى ثم قال : لقد غادرتك
صباحاً على أن أغمد سكينى في قلبه ، ولكن كان أمرى دِباراً
فقال السبع مبتسماً : إذا كنت لا تزال على نيتك فالأمر لم يُفْلِتْكَ

(١) دموع سائلة (٢) أسرع (٣) ذهب أثره (٤) دنت
للمغروب (٥) يحرك (٦) ترك (٧) بان (٨) ظهر

فقال : وماذا تعنى ياسيدى ؟ فنظر فى وجهه وقال : أعنى أن العدو لم يبرح
مساحة القتال ، وأنه تقهقر ليظهر ثانية

فقال درويش متعجباً : أهذا هو اعتقادك ؟ فقال هذا هو اعتقادى
وكيف تنتظر من رجل يضع الأغلال فى يديك ورجليك ، ويقودك إلى
المشقة ، ثم يضع الحبل فى عنقك — أقول كيف تنتظر من مثل هذا
الرجل أن يترك المشهد الأخير ، وهو ألد المشاهد وأروعها ، دون أن يتمتع
بصره بمرآه ، ويرى ثمار حيلته ومسماه ؟

والآن دعنا من هذا الرجل فلأطعنن^(١) فى حوصه^(١) إذا رُوخى فى
أجلى ، وأخبرنا عما جد فى مسألتنا

فقال : لم يجد شئ غير أنى علمت علم اليقين أن الهجمة لا تكون إلا
بعد أن تُسفر مراقبتك عن نتيجة حاسمة

فقال السبع : إن صادقاً بك خرج قبل مجيئك ، فهل رأيته فى
الطريق ؟ فقال نعم وإنى أعلم أنه يقصد « البندر » تلبيةً لطلب المأمور .
فقال له وكيف عرفت ذلك ؟ فضحك وقال هذا سر من أسرار مهنتى
الجديدة لا أبيعها لأحد . فضحك السبع أيضاً وقال احتفظ بأسرارك كما
تشاء ، ولكن اعلم أن رجال الضبط رجال خدعة لا يؤمن جانبهم ، ولا
يُعلم متى يشنون . فخير لنا أن نقاتل قبل أن يرتطم علينا الأمر وينحصر
الذنب^(٢) . وإنى سأكون على أهبة الرحيل بعد دقائق قليلة ، فاستعد

(١) لا كيدنه ولا جهدن فى هلاكه (٢) ينقطع والمراد قبل أن نهلك

أنت أيضاً : فقال إني لا أحتاج إلى تغيير ، فلباس الشحاذ ينكرني تنكيراً .
أخذ السبع يغير من ملابسه ومعارفه بسرعة وبمهارة حتى بدا رجلاً
آخر ليس بينه وبين الأول وجه شبه اللهم إلا في البناء : رأسٌ حليقٌ
يغطيه طربوش مغربي ذو ذيل متدلٍ كشيء ، وجبين عريض أشج
برز فيه حاجبان أوطغان ^(١) يظللان عينين مكتحلتين ، وعارضان أغرى
بهما الموصى حتى اجتث نبتهما ، وشاربان أسودان غليظان قد التوى
طرفاهما فوق وجنتين مبسوطتين ، وإحية سوداء مخروطية الشكل على
الطرز الفرنسي ، ومنكبان عريضان قد طرّح فوقهما شال صوفي أبيض ،
وجسم متين العضل في ثوب صوفي فضفاض في لون الرماد ، يعلوه عباءة
صوفية سوداء ، وحذاء أحمر قد ارتفع طرفه الأمامي إلى السماء .

تلك هي الصورة التي اختارها السبع لنفسه . وقف بعد أن أتم كل
شيء ، أمام مرآة صغيرة معلقة إلى الحائط يتفقد نفسه ، ويهتج بفنه ، ثم
صاح : فقدتني أمي ! إن هذا لفوق ما كنت أتصور ! ألا ترى معي
يا درويش أني خلقت من نفسي شخصاً جديداً في كل شيء ؟

فقال درويش : إن سيدي ماهر في كل شيء ، فلماذا لا يكون ماهراً
في ميدان التنكر أيضاً ؟

الفصل الثاني والرابعون

انقضاء الصاعقة

في الوقت الذي كان يتحدث فيه المحتلّيان كانت هذه المحاورّة تجري بين سليمان الخادم ورجل تلوح عليه مخايلُ النفوذ عند مدخل الحديقة : هل هذا منزل صادق بك ؟ نعم . هل يسكن هنا الشيخ الصالح ؟ نعم يا سيدي . هل هو موجود الآن ؟ نعم هو موجود . اذهب اليه وأخبره أن شخصاً يحمل رسالة هامة يريد مقابلته . إني لا أستطيع أن أفعل ذلك . ولماذا ؟ لأن سيدي الشيخ مريض منذ مدة ، وهو يأبى مقابلة أي شخص . ولكنني مضطر إلى مقابلته الآن .

فابتسم سليمان قائلاً في شيء من التعجب : الآن ؟ إن ذلك من رابع المستحيلات . إن سيدي الشيخ في خلوته في هذه الآونة ، ولا يستطيع امرؤ صغيراً كان أو كبيراً ، قريباً أو غريباً ، أن يقطع عليه صلواته المقدسة . وأين مكان خلوته ؟ في الجهة القبلية من الطبقة الأرضية . وإنك لا ترال نأبي تبليغ الرسالة ؟ إني أنفذ أمر مولاي . فلا أذهب أنا إذن وأبلغها بنفسى .

وهمّ المستفهم بالسير نحو البناء ، ولكن سليمان اعترض طريقه ، وصاح في غضب : إني لن أدعك تتقدم خطوة أخرى ، ولن أسمح لك قط بإقلاق راحة الشيخ

غير أن الزائر بدل أن يتقهقر دفع سليمان بيده دفعة قوية تركته يتمتر في ملابسه ، ومضى قدماً نحو غرضه .

وحينئذ نارتأثر الخادم ، وأخذ يعدو وراء ذلك المتطفل ، ملوحاً بقبضته في الهواء . وما رَقِيَ الدرجة الأولى من السلم الخارجى حتى شعر بيد تجذبه من ملابسه إلى الخلف ، فقد توازنه ، وكاد يهوى على ظهره إلى الأرض ، لولا أن اليد القابضة حلت دون ذلك

نظر الخادم المأخوذ فاذا به أمام رجال من الشرطة مسلحين يبنادقهم وعصيهم القصيرة ، ففارقته حماسته ، وخانه صوته ، ووقف بين مفاجئيه موقف الطفل إذا قبض عليه مرتكباً جريمة ، ذاهل الفكر ، مترامش الأوصال .

بينما كان هذا يجري في الحديقة الأمامية برز درويش من منبج حره صائحاً : « نَ هذا الوقح الذى تجرأ على الدنو من معبد الشيخ ، معكراً صفوه ، وقاطماً عليه عبادته ؟ فنظر اليه الضابط نظرة ذات معنى ، وقال فى حلم : ومن أنت ؟ فقال : أنا خادم الشيخ الصالح . فصاح الضابط بصوت الأمر : يا عسكري ! اقبض على هذا الرجل الوقح

فأمرع أحد المساكر لتنفيذ الأمر ، ولكن لم يكد يدنو من درويش حتى وقف جامداً فى مكانه ينتظر أمراً آخر .

فصاح الضابط فى حدة مخاطباً درويش : ضع هذه السكين على الأرض أيها الشقي ، وإلا أمرت برميك بالرصاص .

ولكن درویشا تقهر إلى أحد أركان الرُّحبة ، مُبْدِيًا قامة معتدلة
ووقف موقف المتحدِّي صامحا : إني أنذركم جميعا ألا تَقْرَبُوا مِنِّي ، وإلا
فالويل من انتقام الشيخ إنه لا يتردد إذا غضب في أن يَنْسِفَ بكم البيت
نسفا ، أو يخسف بكم الارض خسفا ، فخير لكم أن تنسحبوا كما جئتم
وهنا صاح الضابط « نار » فدوت رصاصتان في جو الرحبة اخترقتا
ساقى المسكين فخر يتخبط في دمه . . . بين ميت وحي !

وما سكن دوى الرصاص حتى سُمع صوت استغاثة منبعث من
الحديقة الخلفية ، تلاء صراخ في الطبقة العليا يشق أجواز الفضاء
فقطن الضابط لما حدث ، وصاح « إلى الخلف » فجرى العساكر إلى
باب الحديقة الخلفي وإذا بهم يرون أحد زملائهم - وكان موكلا بحراسة
ذلك الباب - في حالة يرثى لها حقا .

فصاح الضابط : ماذا جرى يا عبد الله ؟ فقال عبد الله متأوها وكفاه
إلى وجهه : لقد فرَّ المجرم من هذا الباب ، بعد أن قذف وجهي بزجاجة
بها سائل مُحْرِقُ أَفْقَدَنِي البصر . فصاح الضابط : وأين كانت وجهته ؟
فقال إنه مرَّ نحو الحقول . فجنَّ جنُون الضابط ، وأخذ يسب ويلعن

وإذ الحال كذلك أقبل صادق بك ، وقد طَفَأَ مِرْقَمُهُ ^(١) ، وصاح
في وجوه العساكر : مُجْرِمُونَ ! كيف اجتراءتم على انتهاك حرمة بيتي في غيبتى ؟
فأجابه الضابط مغضبا : إننا لم ننتهك حرمة بيتك ، ولكننا جئنا لنقبض

على لص هارب آويته . فقال إني أحتج بكل قواي على هذه الإهانة ، وسأعرف كيف أنتقم منكم . فأجابه : احتج كما تشاء ، وافعل ما تريد ، ولكن ذلك لا يمنعنا من تادية واجبنا ، ثم صاح بالعساكر : إلى الأمام !

أخذ الجنود يمدون هنا وهناك ، تُظلمهم أرواقُ الغسق ، ويعوقهم لَوَحَلُ المياه المتحفلة ^(١) من الأمطار . وسار على حفافهم عشرات من الأطفال والرجال الذين جذبهم الصراخ ودوى الرصاص ، ودفعهم حب الاستطلاع إلى متابعة الجارين في جريهم . ولوسألتهم عما حدث لأجابوك الإجابات مبهمه مختلفة .

وصل المدوّ بالعادين إلى حدود المباني غربا حيث يلتقي الطريق الفاصل بين الحقول والمباني بطريق الجعفرية

وهنا شَبَحَ ^(٢) لهم شيخٌ معتمٌ مشتمل بمبابة ، فما شكوا في أنه طريدهم . وصاح المطاردون عساكر وأطفالا : هاهو ذا !!

وهم الجنود بتصويب بنادقهم نحو صدر ذلك الواقف الجامد ولكن سرعان ما صاح : قفوا ، فاست أنا من تبغون .

وتقدم الضابط خطوتين من المتكلم ، وصاح في وجهه : من أنت إذن ؟ فقال المسكين : أنا الشيخ سعيد الحلاوي . فمرف الضابط فيه صورة رآها من قبل وقال : ولماذا تقف منزويا هكذا ؟ فقال بصوت منخفض : وقفت هنا لأرشدكم إلى مكان من تطلبون . إن المجرم الفارّ

محتفٍ هناك - وأشار إلى ثلاث هضاب من الآجر قائمة في وسط المزارع
فتم أُل وجه السامعين فرحاً ، وقال الضابط إنك جادٌ فيما تقول وإني
خير بنتيجة الخدعة ؟ فابتسم الشيخ سعيد قائلاً : ولم أخدعكم وأنا خصم
مثلكم . فقال سِر معنا إذن .

ثم أصدر أوامره للعساكر فانبثوا حول الهدف ، وتقدموا منه حذرين
مستعدين . ووقف التابعون على بعد ، يتوقعون نشوب المعركة

وما زال المحاصرون - وكانوا سبعة غير رئيسهم - يدنون من معقل
من ظنوه مخبئاً ، حتى كانوا على بضعة خطوات منه . وهنا أمرهم الضابط
بالوقوف مكانهم ، وتقدم هو ومسدسه في يده ، فطاف حول الهضبة
الأولى ، مُطلاً في كل حفرة وفي كل جحر ، ولكنه لم يعثر على شيء .
ثم طاف حول الثانية والثالثة وكانت النتيجة كذلك خيبة مروعة ،
ودهشة موجعة

وقف الضابط دقيقة أو اثنتين ذاهلاً ، ولم تقل حالة جنوده عن حاله .
ثم صاح ليظهر^(١) أحدكم على هذه الهضبة - وأشار إلى إحداها .
فأجيب الأمر بسرعة ، وصاح الظاهر إن السطح هنا مستو ، وليس فيه
حفرة ما . ثم ألقى نظرة على سطح التالية فلم يتبين شيئاً أيضاً ، ثم على سطح
الثالثة صائحاً : إني أُلح شيئاً أسود رابضاً فوق وسط الأخيرة

وما أتم جملة حتى أ برق الجوّ ، ودّوى صوت شديد مقطّ العسكري
على أثره فاقد الحياة

وحينئذ أطلق الجنود بنادقهم على ما ظنوه ممكن القتال ، ولكن
إجابته لهم دلّت على أن الرّماة كانوا مُصرّحين^(١) ، إذ لم يصيبوا
منه مقتلاً .

أدرك الضابط حَرَج مركزه ومركز رجاله ، وقوة حصن عدوه فأمرهم
بالتقهقر ثم بالإطلاق ، ولكن هذه الخطوة أفقدت منهم رجلاً آخر من
رجالهم وجرحت ثالثاً ولم تُدّنهم من غايتهم

وحينئذ جنّ جنون القائد وصاح : « هجوم » . فاندفع العساكر
اندفاع الآساد هاجها الانتقام ، وأخذوا يتسلّقون الهضبة من جهاتها الأربع
غير مباليين بالموت

وشعر المحاصرُ بقرب مَنِيَّتِهِ ، فطار عقله ، وأخذ يرمى رصاصه ، هنا
وهناك على غير هدى . وفي أثناء ذلك رُئى رأس عارٍ يبرز خلف الهضبة
البعيدة ، ثم لمبان يصحبهما دوى مسدس . ثم بدا صاحب ذلك الرأس فوق
سطح الهضبة صائحاً : كُفّراً ! لقد قتلته . . .

ولقد صدق الضابط ، فإن رصاصتيه المضمّيتين اخترقتا حجمه السبع
فهشمتاها تهشياً ، وتركته في حفرة جثة مشوهة هامدة !

(١) صرّح رمى ولم يصب

وكان اتملك النهاية صدى دوى فى آفاق طنطا وغيرها دوى المدافع ،
وقصص تناقلتها الألسن فى الأندية والمجامع !

خاتمة

لم تكن آخرة دروبش خيراً من آخرة رئيسه ، فلقد قضى نحبّه فى
مستشفى السجن على أثر بتر ساقيه بعد أن ذاق "الترتين" ، وفقد الراحتين !
أما عفيفة فقد أذبلتها الصدمة أيما إذبال ، ولم تفارق سواد الحداد حتى
ضمها سواد القبر الذى ضم ولدها من قبل !
وأما الحلاوى وأهله فقد عاشوا فى هناء وسرور ، وقد سالمهم الدهر
على أمل أن يكثر عما مضى ، والحمد لله أولاً وآخراً .

استدراك

أرجو من القارئ الكريم أن يضع الصواب مكان الخطأ ، وله الشكر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	الآخر	السير بعد	السير ليلاً
٢٢	الخامس	جفل	أجفل
٣٠	العاشر	كان	كاد
٢٧	الرابع عشر	يشربوا	يشربوا
٤٣	الرابع	فواهكم	أفواهكم
٧٥	الرابع عشر	ضخمة	ضخمة
٧٧	الثامن عشر	القلاج	القلاج
٨٦	التاسع	حسى	حسى
١٠٩	التاسع	مبغضا	منقضا
١١٢	التاسع	وعروا	وعزوا
١٢٩	السابع	ولكنه	ولكن
١٣١	العنوان	مسفر الجبل	مسفر الجبل
١٣٢	السطر الأخير	أجبي	أجنى
١٦١	الحادى عشر	نطاقة	نطاقة
١٦١	الثالث عشر	لم يستطيع	لم يستطع
١٦٣	السادس	رأصه	رأسه
١٦٣	الثامن	وتقدموه	وتقدموا
١٦٨	الرابع عشر	فأضفتم	فأضفتم